مركز دمشق للأبحاث والدراسات (مداد)

تيم أندرسون

الحرب القذرة على سورية

واشنطن- تغيير النظام والمقاومة

ترجمة وتقديم: ناهد تاج هاشم



الحرب القذرة على سورية

واشنطن ـ تغيير النظام والمقاومة

الحرب القذرة على سورية

واشنطن ـ تغيير النظام والمقاومة

العنوان بلغته الأصلية:
The Dirty War on Syria: Washington, Regime Change and Resistance
تأليف: *Tim Anderson*

FIRST EDITION
Originally published in English by Global Research, Canada

https://store.globalresearch.ca/store/new-the-dirty-war-on-syria-washington-regime-change-and-resistance-print-copy/

تيم أندرسون

الحرب القذرة على سورية

واشنطن ـ تغيير النظام والمقاومة

ترجمة وتقديم: ناهد تاج هاشم

مركز دمشق للأبحاث والدراسات (مداد)

عنوان الكتاب بالعربية: الحرب القـذرة علـى سـورية: واشـنطن- تغـيير النظـام والمقاومة
تأليف: تيم أندرسون
ترجمة: ناهد تاج هاشم
التدقيق والتحرير اللغوي: د. علي محمد اسبر
الطبعة العربية الأولى 2016
ISBN :978-9933-9205-9-3

مركز دمشق للأبحاث والدراسات (مداد)
سورية – دمشق
هاتف: 76 47 611 (11) 00963
فاكس: 31 47 611 (11) 00963
البريد الإلكتروني:
info@dcrs.sy
www.dcrs.sy

مركز دمشق للأبحاث والدراسات
Damascus Center For Research and Studies

الـمحتويات

مقدمة الترجمة

يُعَدُّ كتاب تيم أندرسون (Tim Anderson)، المعنون بـ **الحرب القذرة على سورية: واشنطن ـ تغيير النظام والمقاومة** (The Dirty War on Syria: Washington, Regime Change and Resistance) الصادر عن مركز **غلوبال ريسيرتش** (Global Research) في كندا في عام 2016، من بين الكتب القليلة التي تقدم قراءة محايدة للأحداث في سورية من حيث تركيزه على الديناميات الداخلية والخارجية للأزمة.

يقع الكتاب في مقدمة وثلاثة عشر فصلاً، نقرأ فيها عن الحرب في سورية وعليها. حيث يقدم المؤلف الأزمة السورية ضمن سياق قراءة تفكيكية، وإن كان الإطار النظري المفاهيمي للتفكيكية (Deconstruction) ليس حاضراً، لكن القراءة التي يقدمها أندرسون يعيد فيها إنتاج النص الأساس، والنص هنا، هو "الرواية السورية"، التي ظلّت على مدى خمس سنوات رهينة التجاذبات السياسية، ما أفضى لغياب الدليل الموضوعي، والحس النقدي المستقل الذي يترفّع فوق التحزّب والمصالح الذاتية.

يأخذ أندرسون في هذا الكتاب بيد القارئ نحو معرفةٍ مسلحة بالدليل العلمي، جاهراً بتأييده للدولة الوطنية السورية، دون أن يصبح ذلك التأييد موقفاً انفعالياً، ولا اختزالياً، إذ أنّه تأييدٌ للقيم الإنسانية ومبادئ حقوق الإنسان التي تنص على حق كل شعب في تقرير مصيره، دون أن يغفل الكاتب نقد الأخطاء التي تعاني منها الدولة السورية والعقبات التي واجهتها داخلياً.

يستهل المؤلف كتابه بمقدمة يتطرق فيها للدعاية والأكاذيب التي تشن في أي حرب وتسعى لتبرير التدخل، ويعيدنا لأمثلة من القرن الماضي حيث القوى الاستعمارية تستغل أي حدث داخلي في بلدٍ ما ليكون بمثابة "حصان طروادة" تدخل منه وتتدخل في شؤون الدول المستقلة تحت شعاراتٍ برّاقةٍ يُوهمُ ظاهرها بحماية المدنيين، ويرومُ باطنها قتلهم واستعمارهم، وانتزاع قرارهم الوطني المستقل.

ينتقل أندرسون في الفصل الأول والمعنون بـ"سورية وشرق أوسط واشنطن الجديد"، للحديث عن الأزمة السورية ضمن سياق لعبة "تغيير الأنظمة"، لكنه يدرك أنّ استقصاءه على أساس استدلالٍ منطقي للوصول إلى دليلٍ علميّ موضوعيّ، يتطلّبُ قراءة مزدوجة، داخليّاً وخارجيّاً (intrinsic and reading extrinsic) للواقع السوري بحيث تستند إلى الاطلاع والتجربة والمعاينة المباشرة للواقع، وتفضح الوجوه المختلفة للاستعمار المحدث (الجديد) (Neo-colonialism)، وتميط اللثام عن مشاريعه، لكن تصحيح الصور النمطية وإعادة توجيه البوصلة نحو الحقائق يحتاج لأدلة وقراءة تجريبية للمسألة موضع النقاش، ولذا يتطرق الكاتب للواقع السياسي السوري قبل وبعد عام 2011، ويعيد تقديم أهم الأحداث التي تُعَدُّ نقاط علام في تاريخ الأزمة السورية. فيضيء في الفصل الثاني على الحرب الدعائية ضد سورية والوجوه التي اتخذتها وخطورة الاعتماد على مصادر من جهات منحازة، ثم ينتقل في الفصل الثالث للحديث عمّا جرى في درعا في بداية عام 2011، ويضعه في سياق قراءة مساوقة (juxtaposed reading) لما جرى في حماة في ثمانينات القرن الماضي.

ينتقل الكاتب في الفصل الرابع للحديث عن السيد الرئيس بشار الأسد والإصلاح السياسي في سورية ويتخذ من عام 2000 نقطة بداية للتركيز على المراحل التي مرّت بها عملية الإصلاح السياسي وأسباب تعثرها. أما في الفصل الخامس فيتطرّق لمن يسميهم بـ"جهاديي الامبراطورية"، حيث يشير للتعاون بين

المشروع الجهادي التكفيري الذي يسيء للدين الإسلامي الحنيف والقوى الإمبريالية التي تحتل بلاد المسلمين وغير المسلمين. وفي الفصل السادس يقدم المؤلف قراءة للعلاقة بين وسائل الإعلام ومنظمات حقوق الإنسان والقوى الاستعمارية، حيث يورد أمثلة عن الكيفية التي أصبحت فيها وسائل الإعلام منخرطة ومنحازة للمشروع الاستعماري، وهذا الانخراط والتحيز وصلا لمرحلة أن تعمل تلك المؤسسات ووسائل الإعلام كما عمل الصحفيون المرافقون في أثناء حرب العراق، ما يشير إلى خطورة الأشكال الحديثة من الهيمنة الثقافية.

ثم ينتقل المؤلف في الفصل السابع للحديث عن مجزرة الحولة مستعرضاً الأدلة التي غُيّبت سابقاً والتي تشير إلى تورط التنظيمات المسلحة بهذه المجزرة واتهام الدولة السورية بها، ومن ثم يتطرق في الفصل الثامن لحادثة الكيماوي في الغوطة الشرقية، ويفرد أمامنا قراءة مختلفة مسلحة بالأدلة من جهات أكاديمية تدحض فرضية أن تكون الحكومة السورية قامت بمثل هذا العمل، تلك الحادثة التي كادت أن تفضي لأن تقوم القوى الكبرى بقصف واحتلال سورية.

يعرّفنا في الفصل التاسع على مبدأ "مسؤولية الحماية" واللعبة المزدوجة التي تلعبها القوى الكبرى التي تحاول الهيمنة على العالم، تلك الوصفة الجديدة من "التدخل الإنساني"، والنسخة الجديدة من "واجب الرجل الأبيض"، التي تفترض "الوصاية" على الشعوب المستضعفة، وتستند في ذلك إلى تفكير غربي تستحوذ عليه "عقدة المخلّص". ومن ثم ينتقل في الفصل العاشر ليستعرض واقع الصحة والاقتصاد في سورية في ظل العقوبات الغربية، التي تشكل "استعماراً" وهيمنة اقتصادية كذراعٍ من أذرع الاستعمار المختلفة، حيث تُستهدف مؤسسات الدولة وأطقم العاملين فيها، بقصد تحويلها إلى دولة "فاشلة" بالتوصيف الذي يلائم المصطلحات التي تُختلق بين حينٍ وآخر لتبرير التدخل.

وفي الفصل الحادي عشر وبعد أن ساق الأدلة والبراهين التي تفضح العلاقة بين الإرهاب والاستعمار، يفرد أندرسون مساحة للحديث عن العلاقة بين

"داعش" وأمريكا، مورداً الأدلة التي تدحض أي ادعاء عن أن التنظيم الإرهابي ظهر بشكلٍ طبيعي من المجتمعات المسلمة، إذ إنَّ "داعش" تحوّل لوحشٍ أطلقته أمريكا ليهدد أعداءها فبات يهددها أيضاً. ثم ينتقل في الفصل الثاني عشر ليتحدث عن العقلية الاستعمارية و"تفكيك الاستعمار" وكيف نتخلص من تبعيته، وبالتالي تحديد أدوات مقاومته، وإن إدراج هذا الفصل يحمل أهمية خاصة في كتاب ظاهره كتاب "تاريخ وتحليل" لواقع سياسي وأزمة عاصفة تشغل العالم، بيدَ أن باطنه هو وضع الأزمة السورية في سياق السرديات الاستعمارية، وعَدَّ أن التصدي للهيمنة التي أفضت لما نشاهده في سورية يتطلب "تفكيك الاستعمار" وهدم الصورة الفوقية عنه، وهذا تأكيدٌ من المؤلف على أن سورية حالة من حالات مقاومة الاستعمار، وبالتالي قراءة ما يحدث فيها لا يمكن أن تتسق دون قراءة جدليات الاستعمار والمقاومة، والسرد والسرد المضاد، والهوية الوطنية والذات الاستعمارية، والمركز والمحيط، وهذه القراءة التي قدمها أندرسون والتي أعادت رسم الصورة عن سورية في سياق ما بعد استعماري هي رسالة تستدعي قراءات أخرى موازية تخرج على تبسيط المشهد في سياق "معارضة وحكومة"، وترده إلى سياقه الأوسع، مثبتةً أن سورية دولة مستقلة تقاوم الاستعمار، ولذا لم يكن غريباً أن يعنون أندرسون كتابه بـ **الحرب القذرة على سورية، واشنطن ـ تغيير النظام والمقاومة**، إذ إن الحرب اتخذت ثلاثة مستويات اختزلها العنوان: الاعتداء من دول كبرى (خاصة أمريكا)، والوسيلة هي (محاولة تغيير "النظام")؛ أما المقاومة فهي عقيدة الصمود السورية التي ستعيد رسم الخرائط والتاريخ، إذ إن المقاومة هنا فعل عميق اشتمل على كل مستويات المقاومة الأساسية والثانوية، وهو مستوى تصبح فيه الهوية الوطنية أساساً لرسم الجغرافية، وتصبح هي الخريطة التي تتوحد فيها كل الانتماءات وإن بدت الأرض مؤقتاً في أيدٍ دخيلة، والمقاومة هذه هي مقاومة كل السوريين الرافضين للتدخل الغربي واستغلال المشاكل التي تعاني منها البلاد لفرض أجندات خارجية لا تستقيم وتاريخ السوريين الأصيل المبني على العزة والكبرياء ورفض التبعية للخارج.

ينهي المؤلف كتابه بفصل معنون بـ"نحو شرق أوسط مستقل"، وكأنه يريد إعادة تأكيد ما طرحه خلال كتابه وهو أن القصة بدأت بالشرق الأوسط وستنتهي به، وأن المشكلة بدأت في التبعية، وحلها في استقلال القرار، وأن الجغرافية ورسمها وتشكيلها وتمثيلها ليس قدر الشعوب، بل إنَّ الشعوب الحرة هي الشعوب المستقلة القادرة على أن ترسم جغرافيتها وتكتب تاريخها رغماً عن خرائط الاستعمار وقصصه ووكلائه. في هذا الفصل يستشرف أندرسون المستقبل بناء على كل المعطيات والنقاشات التي ساقها في فصول الكتاب ليخلص إلى أن سورية، ستخرج من هذه المحنة منتصرة على مخططات "تغيير الأنظمة" انتصاراً استراتيجياً سيغير وجه الشرق الأوسط بالشكل الذي يجعله شرقاً مستقلاً، وليس الشرق المتخيل في ذهنية الغربيين من القوى الاستعمارية.

* * *

ملاحظات منهجية

اعتمد في نقل هذا الكتاب من الإنكليزية إلى العربية على الترجمة بوصفها عملية تأويلية، ولذا تم الخروج على الاقتصاد في اللغة حين استدعى السياق إضافة ما هو ضروري لتوضيح فكرة ما دون تحميل النص ما لا يحتمله أو الخروج على رسالة المؤلف. وبحكم تواصل المركز مع المؤلف أوردت مجموعة من الحواشي التوضيحية التي تشير إلى غلط في النص الأصلي، سواء أكان طباعيّاً أم غير ذلك، بعد الحصول على موافقته وإذنه بذلك. كما اُلتُزِمَ في هذه الترجمة بالطبعة الورقية من الكتاب، حيث هناك نسخة إلكترونية نُشرت في كندا حذفت منها مقاطع محددة من قبل الناشر الكندي، لكن في هذه الترجمة أُورِدَ كل شيء وفقاً لنسخة ورقية وصلت إلى المركز من الكتاب وعلى أساسها تم العمل على هذه الترجمة.

* * *

لابد من توضيح مسألة أخرى أيضاً أنه وانسجاماً مع الأمانة في النقل تم الإبقاء على كل ما جاء في هذا الكتاب من مفردات أو عبارات، اقتبسها المؤلف في معرض عرضه للأدلة عن واقعة ما، والتي لا تتسق وثقافتنا وطبيعة مجتمعنا، وَوُضِعَت حاشية توضيحية عن ذلك حين اقتضى الأمر في غير موضع من الكتاب. إذ إن اللغة والخطاب والمفاهيم كانت من ضحايا ما سمي بـ"الربيع العربي" الذي أنتج ثقافة دعاية وتحريض وتكفير لا علاقة لها بروح التعددية الدينية والثقافية التي تتسم بها منطقتنا على نحو عام، وسورية على نحو خاص، ولئن وردت ألفاظ "طائفية" في هذا الكتاب كما سيلاحظ القارئ، فإنَّ هذا لم يكن من باب السقوط في فخ الصراع الطائفي الذي يرفضه المؤلف، دون إغفال أنه كاتب غربي وكتابه صدر أساساً باللغة الإنكليزية، وبالتالي يُعَدُّ موجّهاً إلى جمهورٍ غربيٍّ، ولكن إن استخدام المفردات جاء من باب التسلح بالقرائن وعرض السرد الإعلامي المتحامل، سواء أكان عربياً أم غربياً، ومن ثم تفكيكه، وإعادة النظر فيه.

* * *

أما فيما يتعلق بالناحية التقنية في الترجمة، وفيما يتصل بأسماء التنظيمات المعارضة في سورية، فقد ضبطت التسميات حسب المصادر العربية كما وردت في النص الإنكليزي، واستخدمنا الاسم كاملاً في البداية ومن ثم الاسم المختصر في غير مكان من الكتاب. وهكذا فعند ورود عبارة "The Islamic State" للإشارة إلى ما يسمى "الدولة الإسلامية في العراق والشام" استخدمنا الاسم الكامل ومن ثم "داعش" في غير مكان من الكتاب و"جبهة النصرة" استخدمنا للإشارة لها "النصرة" فقط. وكذلك الحال عند الإشارة لحلف شمال الأطلسي "North Atlantic Treaty Organization" استخدمنا الاختصار "الناتو" للدلالة على الاسم.

أمّا فيما يتعلق بكتابة الأسماء الأجنبية، فكتبت الأسماء كما تُلفظ بالعربية، وإن كانت هذه القاعدة لا تنطبق على الأسماء الفرنسية على سبيل المثال. كما تم استخدام الشولتين المزدوجتين للإشارة لما وضعه الكاتب بين شولتين هكذا (" ")، واستُخدمت الشولة المفردة هكذا (' ') حين احتجت كمترجمة إلى التحفظ على مفردة ما. كما تم الإبقاء على أسلوب الاقتباس كما استخدمه المؤلف وذلك بالإشارة بين قوسين إلى اسم الكاتب بالأحرف اللاتينية وأرقام الصفحات، هكذا (Anderson 2006)، وأُتبِعَ كل فصل بقائمة المراجع الأصلية كما وردت في اللغة الإنكليزية في النص الأصلي حتى يتسنّى للقارئ تتبع المرجع مباشرة. أما حين تم إدراج توضيح أو إشارة فقد اُستُخدمَ رمز النجمة، هكذا: (*) لإضافة شرحٍ أو إيضاح، وجميع الحواشي السفلية التي وردت تحت رمز النجمة هي تعقيبات وتوضيحات المترجمة ما لم يرد خلاف ذلك.

* * *

مركز دمشق للأبحاث والدراسات (مداد)

ناهد تاج هاشم

دمشق

22 حزيران/يونيو 2016

شكر وتقدير بقلم المؤلف

أتقدم بالشكر لأصدقائي السوريين، الذين تعلمت منهم، وساعدوني في كسب بعض التبصر عن بلادهم وثقافتهم المثيرتين للدهشة، وكذلك حول الصراع في بلدهم. وإن كان من المتعذر ذكر كل أولئك الذين منحوني وقتهم، لكن يتوجب علي أن أشكر أصدقائي المقربين ريمى، إلهام، ياسمين، أحمد، مرام، هنادي، تانيا، فواز، ماهر، إياد، سامر، مازن، رنا، عفراء ومحمد.

أريد أيضاً أن أقر ببعض الدروس التي تعلمتها من اثنين من علماء الدين الإسلامي في سورية. وهما الراحل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، إذ أصبحت قادراً على تقدير الإنسانية عند الكثير من المتدينين المحافظين. ثم وبعد أن التقيت بالشيخ العظيم المفتي أحمد بدر الدين حسون تجدد إيماني بالروحانية الحقيقية التي تكمن وراء الدين الحقيقي. وهذا ترياق ترحيبي للمسلمين غير الحقيقيين الذين يُبقون على الصراع الحالي. سأتذكر دائما تفسيرَ المفتي حسون عن "الإسلام الشامي". مرة أخرى، شكراً لكم جميعاً أساتذتي السوريين ولكن، بطبيعة الحال، أقر بالمسؤولية الكاملة عما كتبته في كتابي هذا.

تيم أندرسون
سيدني، أستراليا،
15كانون الأول/ يناير 2015

مُقدّمة المؤلف



نقطة تفتيش تابعة للجيش السوري، دمشق

تتفشّى بسبب أيّةِ حربٍ أكاذيبٌ وضروبٌ من الخداع على نحوٍ واسعٍ؛ غير أن الحربَ القذرة على سورية، بلغت مستوىً من التضليل الشامل لم يُشهد له مثيلٌ في الذاكرةِ الحيَّةِ للبشريَّةِ.

ويُشير الصحفي البريطاني ـ الأسترالي فيليب نايتلي (Philip Knightley) في هذا الاتجاه إلى أنَّ الحربَ الدعائيَّةَ تنطوي عادةً على «نمط يُمكن التنبؤ به على نحوٍ محبط»، من شيطنةِ زعيم العدوِّ وبالتالي أنصاره، ذلك بوساطةِ تركيزها على بثِّ أخبار اتهاماتٍ بفظائعَ مُرتكبةٍ، سواء أكانت حقيقيَّةً أم مختلقةً (Knightley 2001).

وبسببِ حَربٍ دعائيّةٍ من هذا القبيل، أصبح بشار الأسد ـ وهو طبيبُ عيونٍ دمث الخُلقَ ـ (الشرَّ الجديدَ) في العالم، وبدا أن الجيش السوري، وفقاً لتقارير متناغمة في وسائل الإعلام الغربية، كأنَّهُ لا يفعل شيئاً سوى قتل المدنيين على مدى أكثر من أربع سنوات!

يتوهَّمُ الكثيرون، حتى الآن، أنّ الصراعَ السوريَّ "حربٌ أهليةٌ"، أو ربما "ثورةٌ شعبيةٌ"، أو شكلٌ من أشكالِ (الصراعِ الطائفيِّ الداخليِّ). كانت هذه المزاعم، في كثير من الوجوه، مفتعَلةً أساساً من القُوى الكبرى، التي قادت سلسلة من عمليات "تغيير الأنظمة" في منطقة الشرق الأوسط، بُنيت جميعها على ذرائعَ كاذبة، على مدى السنوات الخمس عشرة الماضية.

يُمكِنُ أن أَعُدَّ هذا الكتاب عملاً أكاديمياً موضوعيّاً، لكنه أيضاً دفاعٌ قويٌّ عن حقِّ الشَّعبِ السوريِّ في تقريرِ مصيرِ مجتمعهِ ونظامهِ السياسيِّ. وهذا الموقف، الذي أتخذه هنا، رغم أنَّه ينسجمُ مع القانونِ الدوليِّ ومبادئ حقوق الإنسان، بيد أنَّه قد يثير الحفيظة الغربية، من حيث إننا اعتدنا، كغربيّين، على التمتع بحقٍّ من الامتيازِ المُفترض (Prerogative) بطريقةٍ نتجاوزُ فيها الحدودِ كافةً.

ينبغي عليَّ أن أكون حازماً في بعض الأحيان، لأستطيع أن أشق طريقي وسط اللغة المخادعة المنتشرة عن حقيقة الوضع السُّوريّ، إذ سعت القُوى الكبرى في سورية لإخفاء تدخلاتها المباشرة، باستخدام الجيوش الوكيلة، مُشوِّهةً صورةَ الحكومة والجيش السوريين، لاتهامِهما بارتكاب الفظائع المستمرة، ثم تظاهرت بأنها تريد إنقاذ الشعب السوري من حكومته. فكان من جرّاء ذلك أنَّ صار عددُ معارضي الحربِ على سوريَّة، من الشعوب الغربيَّة، أقلّ بكثير مما كان عليه الحال عند غزو العراق، لأنهم خُدعوا حول طبيعتها الحقيقية.

لم يكن لديَّ في عام 2011 سوى فهمٍ أوليٍّ عن سوريَّة وتاريخها. ومع ذلك، كنت مرتاباً بشكلٍ كبير عند قراءتي عن أعمال العنف التي اندلعت في مدينة درعا الحدودية في جنوب البلاد. كنت أعلم أنّ هذا العنف، أعني: قنص الشرطة والمدنيين، واستخدام أسلحة نصف آليَّةٍ، لا ينبعُ تلقائياً من المظاهرات في

الشارع، وازدادَ ارتيابي فيما يتعلّقُ بدور القُوى الكبرى، إذ كنت طوال حياتي أسمع الأكاذيب عن ذرائع الحروب. ولذا قرّرتُ أن أبحثَ في الصِّراعِ السوريِّ، فقرأتُ مئات الكتبِ والمقالاتِ، وشاهدتُ العديدَ من أشرطةِ الفيديو، وتحدّثت إلى أكبر عددٍ ممكنٍ من السُّوريين. كما كتبتُ عشرات المقالات، وزرتُ سورية مرتين في أثناء الصِّراع. وهذا الكتابُ يمثّل خلاصة تلك الأبحاث.

ليست الحروب القذرة بجديدة، إذ تنبَّأ البطلُ القوميُّ الكوبيُّ خوسيه مارتي[*] (José Martí) لصديقٍ له بأن واشنطن ستحاول أن تتدخل في شؤون كوبا الوطنيَّة المتصلةِ بنضالها من أجل الاستقلال عن الإسبان: «يريدون أن يحرّضوا على الحرب»، كتب في عام 1889، «لتكون لديهم ذريعةُ التدخُّلِ، ومن ثَمَّ يستولون على البلاد بوساطةِ نفوذهم كوسطاء وراعين...ليس هناك عملٌ أكثر جُبناً ممَّا قاموا به، ولم يقعْ مثل هذا الشرّ بدمٍ باردٍ على هذا النحو في تاريخِ الشُّعوبِ الحُرَّةِ» (Marti 1975:53).

هذا، وفي سياقٍ متصلٍ، وبعد تسع سنوات على ما كتبه مارتي، وقعَ انفجارٌ في ميناءِ هافانا ـ في أثناء حربِ الاستقلال الثالثة[**] ـ أصابَ المدمرة الأمريكية مين (USS Maine)، ما أسفر عن مقتل مائتين وثمانية وخمسين بحّاراً أمريكياً، و كان ذلك بمثابة ذريعة للغزو الأمريكي.

انتزعت الحربُ الإسبانية ـ الأمريكية، التي حدثت بعد ذلك، النصرَ من الكوبيين على الإسبان، إذ اغتنمتها الولاياتُ المتحدة للسيطرة على ما تبقى من الأراضي الكوبيّة التي كانت تحت سيطرة الاستعمار الإسباني. وهكذا اقتُطعت أراضٍ من كوبا وفُرض دستور. والحقيقة أنَّه لم يكن هناك من دليل يثبت أن

(*) خوسيه مارتي: (1853 ـ 1895) بطل قوميّ كوبيّ وشخصيّة مهمة في أدب أمريكا اللاتينية، في حياته القصيرة كان شاعراً، وكاتب مقالات، وصحافيّاً، وفيلسوفاً ثوريّاً، ومترجماً وعبر كتاباته ونشاطه السياسي صار رمزاً لمحاولة كوبا الاستقلال عن إسبانيا في القرن التاسع عشر، (المترجمة).

(**) حرب الاستقلال الثالثة: نشبت بين الثوار الكوبيين والاستعمار الإسباني وتدخلت فيها الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإسبان، وانتهت عام 1898 بانتصار الكوبيين واستقلالهم، إلا أن الولايات المتحدة قامت باستغلال الحرب واستعمار منطقة غوانتانامو، (المترجمة).

الإسبانَ مسؤولون عن تفجير "المدمرة مِين"؛ غير أنَّ مواطنين كوبيين كُثراً يُرجِّحون أن الجيش الأمريكي هو الذي قصف هذه المدمرة التابعة له. ومازال النَّصب التذكاريُّ في هافانا، الذي يخلّد ذكرى أولئك البحارة، يحمل هذا النقش: «لضحايا مين الذين قضوا بسبب شراهة الإمبريالية والرغبة بالسيطرة على جزيرة كوبا» (Richter 1998).

هذا، وقد ارتكبت الولايات المتحدة العديد من التدخلات في أمريكا اللاتينية في القرن اللاحق(*). فقد كانت هناك حرب قذرة واضحة، قادَتها مجموعة من المرتزقة المدعومين من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) أطلق عليهم تسمية "مقاتلي الحرية"، هاجموا من مقرهم في هندوراس، حكومة الساندينستا (Sandinista)(**) وشعب نيكاراغوا في ثمانينات القرن العشرين. وليس بَدْعاً القول: إنَّه لا يختلف هذا الصراع، كثيراً، في طريقةِ حدوثه، عن الحرب على سورية. حيث لقي أكثر من ثلاثين ألف شخص في نيكاراغوا حتفهم. وأدانت محكمة العدل الدولية (ICJ) إثر ذلك الولايات المتحدة بمجموعة من الهجمات الإرهابية على ذلك البلد الصغير في أمريكا الوسطى، ووجدت أنه يتوجب على أمريكا التعويض لنيكاراغوا (ICJ 1986)، لكنّ واشنطن تجاهلت تلك الأحكام.

وها نحن نجدُ الأمرَ نفسَهُ يتكرَّر، إذ ركبت القُوى الكبرى الموجةَ السياسيَّةَ، مع اندلاع "ثورات الربيع العربيّ"، منتزعةً زمام المبادرة من الشعوب لتفرضَ "شتاءً إسلامويّاً"(***)، مهاجمةً الدول المستقلة القليلة المتبقية في المنطقة.

(*) المقصود القرن العشرين، (المترجمة).

(**) حركة الساندينستا: جبهة التحرير الوطني ساندينستا (Sandinista National Liberation Front)، حركة يسارية في نيكاراغوا، نسبةً إلى سيزر أوغيسطو ساندينو (César Augusto Sandino) أحد أبطال المقاومة في نيكاراغوا ضد الاحتلال الأمريكي بين عامي (1927 ـ 1933). حكمت الساندينستا بين عام 1979 ـ 1990، انظر: http://www.britannica.com/topic/Sandinista، (المترجمة).

(***) نستخدم مصطلح "إسلاموي" للإشارة للإسلام السياسي والحركات المختلفة التي تمثله، (المترجمة).

لقد شاهدنا، وبسرعة كبيرة، تدمير ليبيا، وهي بلدٌ صغير يتمتع بأعلى مستوى معيشة في أفريقيا. حيث ساعدَ قصفُ حلفِ شمالِ الأطلسيِّ (الناتو)، وحملة القوات الخاصة، جماعاتِ القاعدة على الأرض. وكان الدّافعُ الأساس وراء تدخل الناتو هو الأكاذيب عن مجازر فعلية وشيكة، يُفترض أن تقوم بها، أو تُخطط للقيام بها، حكومة معمّر القذّافي. قادت هذه المطالبات بسرعة لاستصدار قرار من مجلس الأمن الدولي لحماية المدنيين من خلال "الحظر الجوي". لكن بتنا نعلم الآن أنه كان هناك خيانة للثقة، وأن قوى الناتو أساءت التفويض المحدود، الذي منحتها إياه الأمم المتحدة، لتطيحَ بالحكومة الليبية (Mckinney 2012).

لم يثبت لاحقاً أيُّ دليلٍ على أنَّ القذافي تقصَّد، سواء فعلاً أم قولاً، القيام بارتكاب مذابح جماعيَّة، كما كان يُطرح على نطاقٍ واسع (Forte 2012). واعترفت جينيفيف غاريغوس (Genevieve Garrigos) من منظمة العفو الدولية (فرنسا) أنه لم يكن هناك "أي دليل" ليدعم الادعاءات السابقة لمجموعتها عن أن القذّافي استخدم "المرتزقة السود" لارتكاب المذابح (Forte 2012; Edwards 2013).

كما يوضح آلان كوبرمان (Alan Kuperman)(*)، معتمداً بشكل كبير على مصادر من أمريكا الشمالية(**)، النقاط الآتية:

أولاً، لقد كان قمعُ القذّافي للتمرد في شرق ليبيا، والذي كان في غالبيته تمرداً إسلاموياً، «أقلَّ فتكاً» ممَّا كان يطرح، بل كانت هناك أدلة في الواقع على أنه «امتنع عن ارتكاب العنف العشوائي». ذلك بدلالة أنَّ الإسلامويين أنفسهم قد تسلّحوا منذ البداية. وبحسب تقديرات أمريكية لاحقة، فإنه من بين ما يقرب من

(*) آلان كوبرمان (Alan Kuperman): أستاذ مساعد في القضايا العامة في جامعة تكساس الأمريكية، (المترجمة).

(**) درج المؤلف على استخدام "أمريكا الشمالية" للإشارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، (المترجمة).

ألف قتيل، في الأسابيع السبعة الأولى، كان هناك فقط نحو ثلاثة بالمئة من النساء وكذلك من الأطفال (Kuperman 2015).

ثانياً، لقد تدخّل الناتو عندما كانت القوات الحكومية على وشك أن تستعيدَ شرق البلاد، مدعياً أن هذه الخطوة جاءت لتفادي مجزرة وشيكة. قُتل عشرة آلاف شخص بعد تدخل الناتو، مقارنةً مع ألف قبل تدخله. والواقع أنَّ القذافي لم يرتكب أيّة عمليات انتقامية في بنغازي، ولم يكن هناك «أي دليل أو سبب» يدعم المزاعم بأنه كان يعتزم القيام بعمليات قتل جماعيٍّ (Kuperman 2015). لكن الضرر وقع، وسلّم الناتو البلاد لمجموعات متناحرة من الإسلامويين ومن "الليبراليين" المنحازين للغرب. وأطاح بدولةٍ مستقلة نسبياً، ودُمِّرت ليبيا. فبعد مُضي أربع سنوات، ليس هناك حكومة فاعلة ولا يزال العنف قائماً. وذهبت الحرب العدوانية ضد ليبيا دون عقاب.

اندلع كذلك تمرد "إسلامويٌّ" مسلحٌ آخر، لكن في درعا، وهي مدينة تقعُ في جنوب سورية، ذلك قبل يومين من قصف الناتو ليبيا. غير أنَّه نظراً إلى ربطِ هذا التمرّد بالمظاهرات من أجل حركة الإصلاح السياسي، مُوِّهت طبيعته. إذ لم يدرك الكثيرون أن أولئك الذين كانوا يقدّمون السلاح، أعني: قطر والسعوديَّة، كانوا يبثون أخباراً مضللة في قنواتهم الإعلامية، مثل قناتي: الجزيرة والعربية. لكن كانت هناك أسباب أخرى لاستمرارية تلك الأساطير عن هذه الحرب إذ إن غربيين كُثراً، سواء أكانوا ليبراليين أم يساريين، بالإضافة إلى محافظين متشدِّدين، أحبوا فكرة أنهم يلعبون دور المنقذ لشعب آخر، فراحوا يُصرِّحونَ عن آرائهم بقوة، عن دولة لا يعرفون عنها سوى القليل، وانضموا إلى ما بدا أنه "القتال لأجل هدف نبيل" ضد من وصفوه بـ"الدكتاتور الجديد". مع وجود هكذا مهمة، وبسبب الزهوّ بالصورة عن الذات، نسيَ الجمهور الغربي، على ما يبدو، الأكاذيب عن الحروب السابقة، والإرث الاستعماري الخاص به.

أريد أن أذهب أبعد من ذلك إلى حدّ القول: إنه في الحرب القذرة على سورية، تخلّت الثقافةُ الغربيَّة بشكل عام عن تقاليدها النبيلة المتمثّلة في: المنطق، والحفاظ على المبدأ الأخلاقي، والبحث عن الأدلة الموضوعية في

أوقات الصراع لصالح تقاليد أسوأ وهي: "الامتياز الامبريالي بالتدخل"، المدعوم بالتحيز العنصري العميق، وضعف التفكّر في تاريخ تجاربها. وقد تعزز هذا الضعف من خلال حملةِ حربٍ دعائيّةٍ شرسة. فبعد أن بدأوا بشيطنة الرئيس السوري بشار الأسد، فَرضوا حصاراً إعلامياً افتراضياً ضدّ أي شيء قد يقوّض قصة الحرب هذه. وظهر عدد قليل جداً من وجهات النظر الغربية المنطقية بشأن سورية بعد عام 2011، إذ استُبعدت الأصوات المُنتقدة للحرب على نحوٍ فعال. هذا هو سياق الأحداث الذي دفعني لتأليف هذا الكتاب. وكتابي هذا دفاعٌ عن سورية، وليس موجّهاً أساساً لأولئك الغارقين في الأساطير الغربية، وإنما للذين يحاولون فهمها والتعامل معها. ولذا فهذا الكتاب مرجع علمي وإسهامٌ في تاريخ الصراع السوري. حيث أصبحت القصص الغربية مُسرفة، وأعتقد أنّه من الإسراف أيضاً أن نسترسل فيها كثيراً. فمن الأفضل، كما أعتقد، الحديث عن الأحداث الحالية كما هي، ثم معالجة التضليل والتعمية على ما يحدث(*) (Smokescreen) في وقتٍ لاحق. وإنني، إذ أفعل ذلك، فأنا لا أتجاهل الأساطير الغربية، ففي الواقع هذا الكتاب يوثّقُ الكثير منها. غير أنّي أبدأ كتابي بالحديث عن حقيقة الحرب.

تقوم الأسطورة الغربية على فكرة الامتيازات الإمبريالية، في شكلِ تساؤلٍ مُفاده: ما الذي يجب علينا "نحن" القيام به حيال مشاكل شعبٍ آخر؟ وهذه مقاربة لا أساس لها في القانون الدولي وحقوق الإنسان! وتشمل الخطوات اللاحقة سلسلة من الافتراءات عن ذرائع وطبيعة وأحداث الحرب. كانت الذريعة الأولى ضد سورية هي أن دول الناتو ودول الخليج، تدعم ثورةً علمانية ديمقراطية. وعندما بدا أنه من غير الممكن تصديقُ ذلك، كانت الرواية الثانية تقول: إنهم يحاولون إنقاذ الأغلبية المضطهدة من السكان، "المسلمين السُّنَّة"، من "النظام العلويِّ" الطائفي. ثم عندما استحوذت الفظائع الطائفية التي ارتكبتها القوى المناهضة للحكومة على اهتمام الرأي العام، أصبحت الذريعة الادعاء بأنَّ

(*) تعني المفردة حرفياً "ستار الدخان"، ولكن تستخدم هنا للإشارة إلى القصص غير الحقيقية التي تهدف إلى التضليل والتعمية وإخفاء حقيقية أمر ما، (المترجمة).

هناك حرباً تدورُ رحاها في الخفاء: حيث قيل إن "المتمردين المعتدلين" يحاربون الجماعـاتِ المتطرفـة، وبالتـالي هنـاك حاجـة للتـدخل الغـربي لـدعم هـؤلاء "المتمردين المعتدلين" ضد الجماعة المتطرفة " الجديدة " التي نشأت في ظروف غامضة وتشكل تهديداً للعالم.

كانت تلك القصة "باء". ولا شكَ أن هوليوود ستقدّم أفلاماً بنـاءً علـى هـذا السيناريو في السنوات القادمة. ولكنّ هذا الكتاب يبدأ مع القصة "ألف". وهي أن الجيوش الوكيلة من الإسلامويين، الـذين يـسلّحهم حلفـاء الولايـات المتحـدة الأمريكية عامَّةً، وكلٌ من السعودية وقطر وتركيا خاصّةً، يتسللون ضمن حركـة الإصلاح السياسي ويقنصون الشرطة والمدنيين. ثم يلقون باللائمة في ذلك علـى الحكومة، ويشعلون تمرّداً يسعى لإسقاط الحكومة السورية، ودولتـها التعدديـة العَلمانية. يأتي ذلك كله عَقِبَ الهدفِ الـذي أعلنتـه الولايـات المتحـدة بـشكل صريح في إقامة "شرق أوسطٍ جديد"، وإخضاع كل بلد في المنطقة، من خـلال الإصلاح، أو نزع السلاح بشكل أُحـاديِّ الجانـب، أو الإطاحـة بـشكل مباشـر بالحكومات. وكان الدور واقعاً حتماً على سورية، بعد أفغانستان والعراق وليبيا.

تكوّنت الجيوش الوكيلة، في الحالة السورية، من قوّات مشتركة مؤلَّفة مـن الإخوان المسلمين والمتعصبين الوهابيين من السعودية، ورغمَ الصِّراع الظاهريِّ على السلطة بين هذه المجموعـات ومموليهـا، إلا أنّهـا كلّهـا تـشترك كـثيراً في الأيديولوجية السلفية، وفي معارضتها للأنظمة العَلمانية أو القومية، وفي السعي لإقامة دولة دينية.

غير أنَّ الإسلامويين المتحالفين مع واشنطن واجهـوا في سـورية جيـشاً وطنيـاً منضبطاً لم يتفكك على أسسٍ دينية، رغم الكثير من الاستفزازات. وكان هناك أيـضاً حلفاءُ أقوياء للدولة السورية في روسيا وإيران. ولم يكن قَدَرُ سورية كقدر ليبيا.

كان العنف في هذه الحرب التي طال أمدها، بالنسبة إلى الغرب، يأتي من الجيش السوري، الذي قيل: إنّه كان يستهدف المدنيين ويقتلهم. أمـا بالنـسبة للـسوريين، فقـد كـان النـاس يـرون الهجمـاتِ الإرهابيـة اليوميـة علـى البلـدات والمـدن والمـدارس

والمستشفيات والمجازر ضد الناس العاديين التي كان يرتكبها "مقاتلو الحرية" المدعومون من الناتو، ثم كان الجيش يردُّ بهجمات مضادة. فلقد جنّد السعوديون والقطريون الإرهابيينَ الأجانبَ من عشرات البلدان، ودعموا المرتزقة المحليّين.

ولئن أُطلقت من خارج سورية، على الجماعات الإرهابيَّة، تسميات متعددة، مثل: "المعارضة"، أو "المسلحين" أو "الجماعات السُّنِّيَّة"(*)، لكن في داخل البلاد تخلت المعارضة السياسية الفعلية عن الإسلامويين في أوائل عام 2011. حيث تسبَّب العنف بإخراج الاحتجاجات من الشارع، ووقف المعارضون في غالبيتهم ـ فيما عدا الإخوان المسلمين وبعض الشخصيات في المنفى ـ مع الدولة والجيش، وإن لم يقفوا مع حزب البعث الحاكم. وكان الجيش السوري قاسياً مع الإرهابيين، وعلى النقيض من الدعاية الغربية، كان بالفعل حامياً للمدنيين. في حين كان "الإسلامويون"(**) قساةً مع الجميع، ومُجاهرين بذلك. ولجأ الملايين من المشردين في الداخل إلى الحكومة والجيش، في حين هرب ملايين آخرون من البلاد.

لقد أزمعت القوى الكبرى في "نهاية اللعبة" المأمولة لها إسقاط الدولة السورية، وإن تعذّر عليها ذلك، سوف تسعى إلى الوصول بها إلى دولة مختلّة وظيفياً، أو تمزيقها إلى دويلات طائفية، وبالتالي كسر محور الدول الإقليمية المستقلة. يضم هذا المحور، إلى جانب سورية وإيران ـ وهما الدولتان الوحيدتان في المنطقة اللتان ليس فيهما قواعد عسكرية أمريكية ـ حزبَ الله في جنوب لبنان، والمقاومةَ الفلسطينية. كما أن العراق، الذي لا يزال يعاني من إرهاصات الغزو الغربيِّ ومجازر الغرب واحتلاله، بدأ مؤخراً في مواءمة نفسه مع هذا المحور. وبدأت روسيا أيضاً تلعب دوراً هاماً يمثل الثقلَ المضادَّ لما تقوم به القُوى الأخرى.

يُظهر التاريخ والسلوك الحديثان أن أيّاً من روسيا وإيران ليست لديهما أية طموحات استعمارية، يمكن أن تُشابه تلك التي لدى واشنطن وحلفائها، أعني:

(*) الواقع أنَّ تسمية الجماعات الإرهابيَّة بـ"الجماعات السُّنِّيَّة" لا يعدو أن يكون تضليلاً للنَّاس عن الحقيقة بهدف إشعال نار الفتنة الطائفيَّة، (المترجمة).

(**) لا يدلّ مصطلح الإسلامويين هنا على أتباع الدين الإسلامي الحنيف، بل على المتطرفين الذين يتخفون وراء هذا الدين، وهو منهم براء، (المترجمة).

بريطانيا وفرنسا وتركيا، حيث كانت تلك الدول من الدول الاستعمارية سابقاً في المنطقة. ومن وجهة نظر "محور المقاومة"، فإن هزيمة الحرب القذرة على سورية تعني أن المنطقة يمكنها أن تتكاتف ضد القوى الكبرى. وإن نجاح سورية في مقاومتها يعني بداية النهاية لمشروع واشنطن المنشود، أعني: "الشرق الأوسط الجديد".

هذا هو المشهد الكبير: يبدأ هذا الكتاب بتوثيق القصة (ألف) ويفضح القصة (باء). وهو يؤدي هذا الهدف من خلال إنقاذ بعض التقاليد الغربية التي تقوم على: استخدام المنطق، والحفاظ على المبدأ الأخلاقي والبحث عن الأدلة المستقلة في حالة الصراع. وإنني آمل أن يشكّل مصدراً مفيداً، وفيما يلي أضع لمحةً موجزة عن فصول الكتاب:

يقدّم **الفصل الأول**(*)، والمعنون بـ**(سورية و"شرق أوسط" واشنطن "الجديد")**، سوريّةَ في سياق خُطط الولايات المتحدة لإقامة "شرق أوسط جديد"، حيث تشكّل هذه الخطة الفصل الأحدث في تاريخٍ طويل من محاولات الولايات المتحدة للسيطرة على المنطقة.

يتطرق **الفصل الثاني**، والمعنون بـ**(البراميل المتفجرة، المصادر المنحازة والحرب الدعائية)**، للكيفيَّة التي تُنقلُ بوساطتها الأخبار، عن سورية، وقراءة الأزمة فيها. حيث أظهرت وسائل الإعلام الاعتماد المفرط على المصادر المنحازة (المتحزِّبة)، الملتزمة بالحرب وتشويه سمعة الجيش السوري. وكان ذلك العائق الرئيس أمام فهم الجدل عن الأسلحة الكيمياوية، والمذابح التي وقعت بحقّ المدنيين، ومستويات الدعم أو المعارضة للرئيس الأسد.

يعيد **الفصل الثالث**، والمعنون بـ**(درعا 2011: تمرد إسلامويّ آخر)**، استناداً إلى مجموعة من المصادر، رَسْمَ المشهد حول حقيقة التمرد الإسلامويّ

(*) الفصل الثاني في الطبعة الانكليزية، هو الفصل الأول بعد المقدمة، حيث أعطى المؤلف رقماً تسلسلياً للفصول من المقدمة للفصل الأخير وبالتالي عندما يشير للفصل الثاني فهو يقصد الفصل الأول بعد المقدمة وكذلك الحال في الفصول اللاحقة، فالفصل الثامن مثلا هو عملياً الفصل السابع بعد المقدمة، (المترجمة).

المدعوم من السعودية الذي وقع في درعا في آذار/ مارس 2011. لقد كانت تلك الهجمات المسلحة مختلفة تماماً عن مسيرات الإصلاح السياسي، التي سرعان ما طردها الإسلامويون من الشارع.

يشرح **الفصل الرابع**، والمعنون بـ**(بشار الأسد والإصلاح السياسي)**، حركةَ الإصلاح السياسيّ منذ تولي الرئيس بشار الأسد سدة الرئاسة في عام 2000 وحتى بداية الأزمة في 2011. حيث يتبين لنا، أن معظم جماعات المعارضة كانت ملتزمة بالإصلاح ضمن سياق سوري، مع مناهضة كل هذه المعارضة تقريباً للهجمات على الدولة السورية. ثم يستعرض الفصل دور الرئيس بشار الأسد بوصفه مُصلحاً وطنيّاً، ويقدّم الدليل أيضاًعلى شعبيته.

ينظر **الفصل الخامس**، والمعنون بـ**(جهاديي الإمبراطورية)**، في التعاون بين الإسلام السياسيِّ السلفيّ والقُوى الإمبريالية في الشرق الأوسط. حيث أصبح الإسلامُ السلفيُّ السياسيُّ، الذي يختلف عن التيارات الإسلامية المناهضة للإمبريالية في إيران وجنوب لبنان، قوةً طائفية، في حالة تنافسٍ مع القومية العربية في كلٍّ من مصر وفلسطين وسورية، ويستغل علاقاتِ التعاون طويلة الأمد مع القوى الكبرى. حيث تقدّم هذه اللمحة التاريخية معلومات أساسية مهمة عن طبيعة "الثورة" الإسلامويّة في سورية، وشعاراتها المختلفة.

يحدد **الفصل السادس**، والمعنون بـ**(وسائل الإعلام المُرافقة(*)، المنظمات المُرافقة)**، أساليب الدعاية التي تقوم بها قنوات الإعلام ومنظمات "حقوق الإنسان" (هيومان رايتس ووتش (HRW)، و"آفاز" (Avaaz)، الخ) التي تعمل كأبواق

(*) يشير مصطلح "embedded media" لوسائل الإعلام المرافقة لقوات عسكرية معينة. حيث ظهر مصطلح "embedded journalists" في حرب العراق، وكانت وزارة الدفاع الأمريكية أول من استخدم المراسلين والمصورين الذين كانوا يرافقون القوات الأمريكية إلى المناطق الساخنة، وجاء ذلك بعد الانتقادات الواسعة التي وجِّهت لأمريكا بخصوص المستوى المتدني من الحرية التي أعطيت للصحفيين في تغطية حرب الخليج الأولى وكذلك الحرب على أفغانستان. للمزيد انظر الموسوعة البريطانية:
http://www.britannica.com/topic/embedded-journalism، (المترجمة).

و"وسطاء" في أجندة واشنطن. حيث تحوَّلَ الكثيرون إلى مدافعين شرسين عن "الحرب الإنسانية". فقد أُنشِئ العديد من المنظمات غير الحكومية الغربية الجديدة (على سبيل المثال "حملة سورية" (سيريا كامبين) (Syria Campaign)، و"الخوذات البيضاء" (الوايت هيلميتس) (White Helmets) من قبل وكالات وول ستريت (Wall Street)، خصيصاً من أجل الحرب القذرة على سورية. وقد تم توثيق العديد من افتراءاتهم في هذا الكتاب.

ينظر **الفصل السابع**، والمعنون بـ**(إعادة النظر في مجزرة الحولة)،** وبالتفصيل في الأدلة حول أول مجزرة مُدبرة(*) تم التحضير لها من قبل جهات معينة (بعد نجاح هذه التقنية في ليبيا)، للتأثير في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، من أجل النظر في مسألة التدخل العسكري. وفي حين وجدت أول مجموعة تحقيق تابعة للأمم المتحدة، والتي كانت في الواقع في سورية، أدلة متناقضة حول هذه المجزرة، إلا أن مجموعة ثانية تابعة للأمم المتحدة، خارج سورية، والتي اشترك في رئاستها دبلوماسي أمريكي، حاولت إلقاء اللوم على الحكومة السورية. غير أن أكثر من عشرة شهود ألقوا باللوم على "لواء الفاروق الإسلاموي'" التابع لـ('الجيش السوري الحر') (SFA) الذي قتل القرويين الموالين للحكومة، واستولى على المنطقة، وسيطر عليها لعدة شهور. كما يلاحظ وجود العديد من "المجازر المدبّرة" الأخرى.

يقدم **الفصل الثامن**، والمعنون بـ**(افتراءات الكيمياوي: حادثة الغوطة الشرقية)،** تفاصيل عن ثاني أكبر حادثة "مدبرة" أخرى استقطبت اهتماماً دولياً. كانت هذه الحادثة، التي وقعت في آب/ أغسطس 2013، والتي أطلقت شرارة تصعيد كبير كاد ينطوي على توجيه ضربات صاروخية أمريكية ضد سورية، قد وُظفت لاتهام الحكومة السورية بقتل مئات المدنيين، بما فيهم الأطفال، باستخدام الأسلحة الكيمياوية. لكن وفي غضون فترة زمنية قصيرة نسبياً، كانت

(*) استخدم المؤلف مصطلح "false flag" والذي يشير إلى عمليات سريّة توحي بأن الجهة المنفذة للعمليات هي جهة غير تلك التي تنفذها فعلاً، وفي الحالة السورية استخدم المؤلف المصطلح للإشارة لعمليات نفذتها جهات معينة واتُهمت الدولة السورية بالوقوف وراءها، (المترجمة).

هناك مصادر متعددة عن أدلة مستقلة (بما في ذلك أدلة من الولايات المتحدة)، دحضت هذه الاتهامات. غير أن خصوم سورية، رغم ذلك كله، يكـررون تلـك الاتهامات الكاذبة، حتى الآن، كما لو كانت هي الحقيقة.

يتناول **الفصل التاسع**، والمعنون بـ**(مسؤولية الحمايـة واللعبـة المزدوجـة)**، عقيدة سياسية ظهرت مؤخراً، وهي مجموعة فرعية من "التدخل الإنساني" المـروَّج له، لتُضاف إلى مجموعة أدوات الإمبريالية. وكان تطبيق هذا المبدأ في ليبيـا كارثيـاً على هذا البلد الصغير. ولحسن الحظ فشلت محاولات تطبيقه في سورية.

يوثّـق **الفـصل العاشـر**، والمعنـون بـــ **(الـصحة والعقوبـات)**، هجمـات الإسلامويّين المدعومين من الناتو على النظام الصحي في سورية، ربطاً مع تأثير العقوبات الاقتصادية الغربية. حيث تسبّب هذان التياران معاً، أعـني: الهجمـات والعقوبات، بضرر كبيرٍ على القطاع الصحي العـام في سـورية. وحيـث إنَّ هـذه الهجمات لا تحملُ أيٍ دافع منطقي لحشد الدعم الـشعبي المحلـي، لـذا علينـا تفسيرها كجزء من استراتيجية شاملة للحط من قدْر الدولة السورية، مما يجعلها أكثر عرضة للتدخل الخارجي.

يوثّق **الفصل الحادي عشر**، والمعنون بـ**(واشنطن، الإرهاب و"داعـش": الأدلة)**، العلاقةَ بين القُوى الكبرى وأحدث وأكبر مجموعة إرهابيـة تـزعم أنهـا تحاربها. إذ إنه يمكن فقط من خلال الدليل أن نطور رأياً مستنيراً عن هذه المسألة المثيرة للجدل، ولكن الأدلة دامغة. إذ هنـاك اخـتلاف أيـديولوجي ضـئيل بـين المجموعات السلفية الإسلامويّة المختلفـة، ولقـد موّلـت واشـنطن وحلفاؤهـا وسلَّحوا كل مجموعة منها.

ينـاقش **الفـصل الثـاني عـشر**، والمعنـون بـــ**(التـدخل الغـربي والعقليـة الاستعمارية)**، العقليَّةَ الثقافيَّةَ الغربيَّـةَ الـتي تكمـن وراء الانتـهاكات المـستمرة لحقوق الشعوب الأخرى.

ينظر **الفصل الثالث عشر**، والمعنون بـ **(نحو شرق أوسطٍ مستقل)**،في نهاية اللعبة في الأزمة السورية، وما تعنيه بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط. فلقد نجحت

الجمهورية العربية السورية، وبتكلفة باهظة جداً، جيشاً وشعباً، في مقاومة العدوان الذي شنّه مجموعة من الأعداء الأقوياء. وتعود نجاة سورية من هذا المشروع لمرونتها، ولوحدتها الداخلية، وأيضاً لدعم بعض الحلفاء الأقوياء. فلقد كان دخول القوة الجوية الروسية في أواخر أيلول/ سبتمبر 2015 مهماً. وكذلك أيضاً دخول القوات البرية المنسقة من إيران والعراق ولبنان، دعماً لسورية مستقلة.

عندما تهدأ الهجمات على سورية، ستبدو منطقة الشرق الأوسط وقد تهيأت لتشهد تحولاً، مع المزيد من الإرادة السياسية والاستعداد العسكري من جانب محور المقاومة. وهذه إشارة إلى بداية النهاية لفورة واشنطن على مدى خمسة عشر عاماً من سفك الدماء و"تغيير الأنظمة" في جميع أنحاء المنطقة بأسرها.

المراجع:

- Edwards, Dave (2013) ‘Limited But Persuasive’ Evidence - Syria, Sarin, Libya, Lies’, Media Lens, 13 June, online: http://www.medialens.org/index.php/alerts/alert-archive/alerts-2013/735-limited-but-persuasive-evidence-syria-sarin-libya-lies.html

- Forte, Maximilian (2012) Slouching Towards Sirte: NATO’s War on Libya and Africa, Baraka Books, Quebec

- ICJ (1986) Case concerning the military and paramilitary activities in and against Nicaragua (Nicaragua v. United States of America) Merits’, International Court of Justice, Judgement of 27 June 1986, online: http://www.icj-cij.org/docket/?sum=367&p1=3&p2=3&case=70&p3=5

- Knightley, Phillip (2001) ‘The disinformation campaign’, The Guardian, 4 October, online: http://www.theguardian.com/education/2001/oct/04/socialsciences.highereducation

- Kuperman, Alan J. (2015) Obama’s Libya Debacle’, Foreign Affairs, 16 April, online: https://www.foreignaffairs.com/articles/libya/2015-02-16/obamas-libya-debacle

- Martí, Jose (1975) Obras Completas, Vol. 6, Editorial de Ciencias Sociales, La Habana

- McKinney, Cynthia (Ed) (2012) The Illegal War on Libya, Clarity Press, Atlanta

- Putin, Vladimir (2015) ‘Violence instead of democracy: Putin slams ‘policies of exceptionalism and impunity’ in UN speech’, RT, 28 September, online: https://www.rt.com/news/316804-putin-russia-unga-speech/

- Richter, Larry (1998) ‘Havana Journal; Remember the Maine? Cubans See an American Plot Continuing to This Day’, New York Times, 14 February, online: http://www.nytimes.com/1998/02/14/world/havana-journal-remember-maine-cubans-see-american-plot-continuing-this-day.html

سـورية وشـرق أوسـط واشـنطن الجديد



استمرَ الحكم الملكي السعودي، منذ الخمسينات، حليف واشنطن الرئيس في تنمية الإرهاب المنظم كأداة لزعزعة استقرار الشرق الأوسط

كانت سورية هي الدولةُ المُنْتَظَرُ الإطاحة بها بعد غزو أفغانستان والعـراق، وتدمير ليبيا. فلقد خطّطت واشنطن، وحلفاؤها، في المنطقة لهذا الشيء لبعض الوقت. حيث كان من المفترض، بعد "تغيير النظام" في دمشق، أن يُعزل حليفُ سورية "حزب الله"، الذي يتزعم المقاومة اللبنانية ضـد إسـرائيل. وبهـذا تـصبح الجمهورية الإسلامية في إيـران البلـدَ الوحيـد في الـشرق الأوسـط دون قواعـدَ عسكريّةٍ أمريكيّةٍ. ثم بعد إيران، يمكن لواشنطن أن تسيطرَ على المنطقة بأكملها، مستبعدةً منافسين مُحتملين، مثل: روسيا والصين، وبالتالي تضيعُ فلسطين.

كان هذا كلّه جزءاً من خطة واشنطن لـ"شرق أوسطٍ جديد"، لكن لم يكتب لها النجاح. إذ ظهرت مقاومةٌ باسلةٌ ومُنظمةٌ لا يمكن التقليل من أهميّتها. حيث صدَّ الجيش الوطني السوري الموجةَ تلو الأخرى من هجمات الإسلامويين المتطرفين، التي كانت بدعم من الناتو، ودول الخليج، وبقي الدعم الروسي والإيراني راسخاً. كما تجدر الإشارة إلى أن سورية وطدت أشكالاً جديدة من التعاون مع العراق الضعيف، ولكن الصاعد. إذ عملت واشنطن على مدى عقود لتقسيم العراق وإيران، وبالتالي فإن العلاقات القوية بين كلٍّ من إيران، والعراق، وسورية، ولبنان، وفلسطين تمثل تحدّياً إقليمياً لـ"اللعبة الكبرى" الجديدة في عصرنا. إذ لم يعد الشرق الأوسط مرتعاً للقوى الكبرى.

نعلمُ الآن، أن الولايات المتحدة والمتعاونين معها من حلفائها في الإقليم أعني كلاً من: المملكة العربية السعودية وإسرائيل وتركيا وقطر والأردن، كانوا وراء كلِّ جماعةٍ متطرّفة مناهضةٍ لسورية ظهرت منذ بداية الصراع الأخير. لقد استخدموا أسوأ القُوى الرجعية والطائفية لتحقيق مآربهم. لكن علينا، من ناحية أخرى، ألاّ نسيءَ فهم محور المقاومة على أنه ظاهرةٌ طائفية. فهذه المجموعة (المحور)- التي تضم كلاً من: الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وسورية العَلمانية والمقاومة اللبنانية (حزب الله)، والفلسطينيين- أقول: إنّها: مجموعةٌ مناهضةٌ في الصميم للإمبريالية. فقد تحالفت سورية، البلدُ "العَلماني" الوحيد المتبقي في المنطقة، ومنذ وقت طويل، مع إيران، بما في ذلك ضدّ العراق العَلماني بقيادة صدام حسين. ثم استخدمت واشنطن صدّام للحطّ من قدْر إيران، بعد الثورة الإيرانية عام 1979.

لم تدعم إيران، من ناحية أخرى، أبداً جماعة الإخوان المسلمين الطائفية في أي من عمليات التمرّد التي قامت بها ضد سورية العَلمانية. وفي حين تدعم إيران المسلمين الشيعة في حزب الله، إلا أنّ السبب الأكبر وراء شيطنتها، يعود إلى كونها تُسلّح الفلسطينيين، فلسطين التي لا يكادُ يوجد فيها أي مسلم شيعي. وعليه، تدحضُ هذه التعددية التي يتّسم بها محور المقاومة أيّة مزاعم عن أنه محورٌ طائفي. إذ إن الترويج للطائفية (Sectarianism) في الشرق الأوسط يأتي،

غالباً، من حلفاء واشنطن الرئيسين، المملكة العربية السعودية، وغيرها من دول الخليج، ومن يقومون بالتطهير العرقي (ethnic cleansers) في إسرائيل، حيث يتشاركون جميعاً هدفَ الولايات المتحدة في الإبقاء على المنطقة ضعيفة ومُقسّمة.

ولكن كيف أصبحت سورية مُستهدفة؟

يمكننا أن نعزو استهداف سورية إلى دورها المركزي في الحروب العربية الإسرائيلية عامةً، وخاصةً حروب عامي 1967 و1973، بما يُشكِّلُ صراعاً إقليميّاً مشتركاً، ضد الدولة الصهيونية التوسعية. ومن ثَمَّ كان من دعمِ سورية لثورة 1979 في إيران أن جعلها تغرّد خارج سرب واشنطن. وإذا عدنا إلى عام 1980، في عهد إدارة الرئيس الأمريكي جيمي كارتر (Jimmy Carter)، نلاحظ أنَّ واشنطن كانت تبحث عن "تغيير النظام" في دمشق. إذ حثّت برقيةٌ أرسلها مجلس الأمن القومي إلى وزير الخارجية الأمريكي زبيغنيو بريجنسكي (Zbigniew Brzezinski)(*) على إجراء دراسة متناسقة، بما في ذلك مع الشركاء الأوروبيين والملَكيات العربية، لـ«تحديد الأنظمة البديلة الممكنة» لحكومة الرئيس حافظ الأسد. كانوا يفكرون في كيفية «الحد من مشاكل رد الفعل غير المدروس [من قبل حليف سورية الاتحاد السوفيتي] على تغيير النظام في دمشق». أقرّت المذكرة أيضاً أن أي انسحابٍ للقوات السورية من لبنان (دخلت سورية لبنان لوقف الحرب الأهلية في عامٍ 1975 وظلت هناك حتى عام 2005) سيؤدي لمجازفة "كبيرة" تتمثل في تجدد الحرب الأهلية في ذلك البلد، وخلق «دوافع كبيرة للانخراط العسكريِّ الإسرائيليِّ في جنوب لبنان» (NSC 1980).

ولذا لم يكن من قبيل المصادفة أن جماعة الإخوان المسلمين ـ وهي الجماعة الأكثر تنظيماً في المعارضة السورية، والتي يعود تاريخ تعاونها مع القُوى الخارجية إلى أربعينات القرن الماضي ـ قد بدأت بسلسلة من الهجمات الطائفيَّة الدمويَّة من تلك الفترة فصاعداً، إلى أن تم سحق تمردهم الأخير في مدينة حماة في عام 1982. لقد كان ذلك التمرد مدعوماً من حلفاء الولايات المتحدة كالمملكة العربية

(*) كان حينها مستشاراً للأمن القومي، (المترجمة).

السعودية، وصدّام حسين، والأردن (Seale 1988:336-337). لاحظت المخابرات الأمريكية في ذلك الوقت أن «السوريين براغماتيون ولا يريدون حكومة من الإخوان المسلمين» (DIA 1982: vii). لكن المحللين الأمريكيين، وبعد فترة وجيزة، استخدموا القمع الذي تعرّضت له جماعة الإخوان المسلمين في حماة ليبرهنوا على «التأسيس الحقيقي لسورية كدولة شمولية» (Wikas 2007: vii)، ولكن هذا الكلام ليس صحيحاً، بيد أنّه من المفيد أن نعرفه.

جاء التحول الاستراتيجي اللاحق ضد سورية بعد الهجمات التي وقعت في أيلول/سبتمبر 2001 على مركز التجارة العالمي في نيويورك، وقرار جورج و. بوش (G.W. Bush) إعلان "الحرب على الإرهاب". وعلى الرّغم من اختلاق العديد من الذرائع حول التدخلات التي تلت ذلك، لكن كان أن تم وضع خطة شاملة لمنطقة الشرق الأوسط بسرعة كبيرة. يقول الجنرال الأمريكي السابق ويسلي كلارك (Wesley Clark)، في مذكراته، إنّه وبعد أسبوعين من هجمات أيلول/سبتمبر عام 2001، أخبره "جنرالٌ رفيعٌ" في البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) إن الهجوم على العراق (والذي حدث بعد ثمانية عشر شهراً من أحداث أيلول/سبتمبر) اتُّخذ القرار بشأنه بالفعل. ثم بعد ستة أسابيع يقول إن ذلك الجنرال نفسه أبلغه:

«إن الحقيقة أسوأ من ذلك»، قبل أن يشير إلى وجود مذكرة «من مكتب وزير الدفاع ... [قائلاً] إننا في طريقنا للإطاحة بسبع دول في غضون خمس سنوات. بدأت تلك القائمة مع العراق وسورية وانتهت مع إيرانً» (Clark 2007).

لقد كان رئيس العراق صدام حسين عدواً لسورية، من خلال دعمه الانتهازي لجماعة الإخوان المسلمين السورية، وتعاونه مع الولايات المتحدة في حرب طويلة ودامية ضد إيران. لكن الحكومة السورية، بقيادة حافظ الأسد، دعمت الولايات المتحدة، في إخراج العراق من الكويت في ما سُمّي حربَ الخليج الأولى (1990 ـ 1991). وكانت تلك الحرب [التي شنها صدام]، أيّاً كان رأيُنا عن المَلكية في الكويت، خرقاً واضحاً لعقيدة الأمم المتحدة للأمن الجماعي، وعلى هذا الأساس، استدعت تفويضاً من مجلس الأمن الدولي

بالتدخل. ولكن سورية وإيران عارضتا غزو العراق الذي حدث في وقت لاحق (2003)، رغم أنه كان يهدف لعزل عدوهما المشترك، صدام حسين. لقد كان واضحاً أن غزو العراق غير قانوني، وحرباً عدوانية.

ترك غزو العراق عواقبَ غير مقصودة أدّت إلى تحولٍ في سياسة الولايات المتحدة، وهي الخطوة التي أُطلق عليها "إعادة التوجيه" (Redirection) (Hersh 2007). فبعد أن تم اجتثاث إدارة صدام حسين البعثية، بدأت الحكومة المُشكلة حديثاً في بغداد* بالتحول نحو علاقات ودية مع إيران. لم يكن الأمر مرتبطاً بكون أغلبية أهل العراق من المسلمين الشيعة، وإن لم يكن للحد الموجود في إيران، فالعراقيون طوروا ثقافة أكثر تعددية، ولم يريدوا دولة دينية. إذ إن خروج عدو إيران، صدام، من السلطة، سمح بمناقشة قضايا ذات اهتمامات مشتركة في جوّ طبيعي من علاقات الجوار. بيد أن فكرة علاقات جوار جيدة بين العراق وإيران أقلقت واشنطن على نحو جدي. فلم تعمل الولايات المتحدة على تأجيج الحرب الإيرانية العراقية، ولا قامت بغزو العراق، لتصلَ لتلك النتيجة.

بدأت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس (Condoleezza Rice) في وقت مبكر من عام 2005 الحديث عن نشر "الفوضى الخلاقة" (creative chaos) في المنطقة، للدفع قدماً نحو تحقيق خطة الرئيس جورج و. بوش في شرق أوسط جديد (Karon 2006). واستناداً إلى تقاليد القُوى العظمى، أطلقت واشنطن استراتيجية جديدة تقوم على مبدأ "فرّقْ تسد". دعا العاملون في البيت الأبيض سياسة بوش الجديدة بـ "إعادة التوجيه"، وهي استراتيجية تنطوي على مواجهة أكثر وضوحاً مع إيران ومحاولة قيادة «الانقسام الطائفي بين المسلمين الشيعة والسنة ... [لكن] لسوء حظ البيت الأبيض، وطّدت إيران علاقة وثيقة مع حكومة رئيس الوزراء نوري المالكي ذات الغالبية الشيعية" (Hersh 2007). وأخبرت رايس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي أنها ترى

(*) وردت في النص الإنكليزي خطأ على النحو التالي «الحكومة المشكلة حديثاً في دمشق»، وقمنا بتصحيح الخطأ فالسياق يشير إلى بغداد، حيث راسلنا المؤلف وتم تأكيد التصحيح، (المترجمة).

«تحالفاً استراتيجياً جديداً» في المنطقة، تُمثل فيه «الدول السنية» [دول الخليج] مراكز الاعتدال، في حين يقف كلٌّ من إيران وسورية وحزب الله «على الطرف الآخر من هذا الانقسام» (Hersh 2007).

وقامت هذه الفكرة على إثارة النعرات الطائفية لخلق صراعٍ، ولاسيّما في العراق. وبالفعل بدأت تدريبات "الفريق الأحمر" التابع للقيادة المركزية الأمريكية في عام 2006، حيث ركّز التخطيط العسكري على هذه النعرات التي وصفها واضعوه بأنها انقسامات على أساس عرقي، أي: العرب/ مقابل الفرس (الإيرانيين)، متسائلين لاحقاً: فيما إذا كان الانقسام على أساس سُنيٍّ-شيعيٍّ [قد يكون] الإطار الأنسب للتذرّع من أجل التدخل.

كان الافتراض الرئيس لديهم أنه لا يبدو «أن هناك سيناريو سينضم فيه العرب والفرس معاً للعمل على مناهضة الولايات المتحدة/ الغرب» (Narwani 2011). وكان المُبتدعُ في العمليّة إنشاء تنظيم القاعدة في العراق (IQI)، المموَّل من قبل السعوديين، حيث نفّذ هجمات طائفية على المساجد والمراكز الدينية الأخرى، من أجل تأجيج التوترات في المجتمع. وقد اعترف مسؤولون غربيّون بارزون في جلسات خاصة أن العديد من أصحاب المليارات من المملكة العربية السعودية (مع نظرائهم من دول الخليج الأخرى) يشكلون «أهم مصدر للتمويل [كذلك] للجماعات "السنية" الإرهابية في جميع أنحاء العالم» (Jones 2014).

غير أنَّ أنَّ تنظيم القاعدة في العراق، الذي صار يُعرف أيضاً تحت تسمية مزعومة هي: "دولة العراق الإسلامية" (ISI)، ادّعى في البداية أنه عراقيُّ التكوين في أغلبيته الساحقة (Felter and Fishman 2008: 3)، إلا أن التمويل والتجنيد السعوديين أضفيا عليه الطابع الدولي بشكل كبير. حيث تؤكد هذا الأمر السجلات التي استولى عليها الجيش الأمريكي في تشرين الأول/ أكتوبر 2007 في سنجار، على الحدود العراقية السورية. إذ تشير تلك السجلات إلى مجموعة من نحو خمسمئة شخصٍ: نصفهم من السعودية، ومن شمال أفريقيا، (أعني: ليبيا وتونس والجزائر، والمغرب) هذا بالإضافة إلى غيرهم. وتشير

تقديرات أخرى بين عامي 2005 و2007 بدرجة أكبر أو أقل، إلى وجودِ جنسيات مختلفة، حيث إن المجموعة الأكبر منهم (40-55٪) كانت من السعوديين (Felter and Fishman 2008: 8, 30-31).

كان تفجير شباط/ فبراير في عام 2006، في مسجد الإمام العسكري في سامراء جنوب العراق، والذي أسفر عن مقتل أكثر من ألف شخص، من الأمثلة السيئة عن استراتيجية إثارة الصراع الطائفي. ورغم دعوات ضبط النَّفْس التي أطلقها زعماء الشيعة في كلّ من العراق وإيران ولبنان، كانت هناك أعمال انتقامية طائفية. وعندما جرت عمليات الاعتقال، قيل: إن هذا العمل قد نفذته خلية لتنظيم القاعدة يقودها عراقي وتضم تونسي، وأربعة سعوديين، وعِراقِيين اثنين آخرَين (Ridolfo 2007). ورغم تورُّط تنظيم القاعدة منذ البداية، ركّزت وسائل الإعلام الأمريكية والمحللون على ما سمي" النعرات الطائفيّة في العراق" (Worth 2006). وفي حين دعم صدام حسين جماعة الإخوان المسلمين في سورية، لم يسمح بوجود جماعات مرتبطة بتنظيم القاعدة في العراق. لقد كان وجود تلك الجماعات تطوراً راهناً حينئذٍ، وليس مجرد ردّ فعلٍ "عضويٍّ" على الاحتلال الأمريكي. حيث تعترف مصادر غربية في بعض الأحيان أن الكثير من المال والمقاتلين التابعين لتنظيم القاعدة قد صدّرتهم المملكة العربية السعودية (Bruno 2007). إلا أنها تُعتّم أيضاً على القضية، زاعمةً أن كلاً من إيران وحزب الله، كانا من وقت إلى آخر، يدعمان تنظيم القاعدة (Kaplan 2006). لكن هذه الادعاءات باطلة تماماً.

لقد كانت إسرائيل جزءاً لا يتجزأ من خطة الشّرق الأوسط الجديد، إذ في تموز/يوليو- آب/أغسطس 2006، وبعد الحصول على "الضوء الأخضر" من واشنطن (Hersh 2006)، استخدمت إحدى ذرائعها لغزو جنوب لبنان. وكان الهدف الأوسع هو تقويض حزب الله ونزع سلاحه. لكن بعد أن لقي أكثر من ألفٍ ومئتي لبنانيٍّ ومئة وخمسة وستين إسرائيليّاً حتفهم، تم التوصل إلى وقف لإطلاق النار برعاية الأمم المتحدة. حيث كانت إسرائيل فشلت في كلِّ أهدافها. دعت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس هذه المأساة - في وقتٍ قضى

فيه أربعمئة شخصٍ نحبهم، وشُرّد نصف مليون إنسان ـ مجـرد «مخـاض شـرق أوسط جديد» (Karon 2006). دفع هذا التصريح رامي خوري من صحيفة ديلي ستار (Daily Star) في بيروت إلى أن يكتب:

«إنَّ واشنطن منخرطة بشكلٍ حصريٍّ تقريباً مع الحكومات العربية [مَلَكيات دول الخليج] التي لا تأثير لها عملياً في سورية، وهذه الحكومات صدقيتها لدى الرأي العام العربي معدومة، وتتلاشى شرعيتها في أوطانهـا، وتعـزز سياسـاتها المؤيـدة للولايـات المتحـدة نمـوّ الحركـات الإسـلامويّة [المتطرّفـة]» (Khouri 2006).

كانت سورية بالنسبة إلى واشنطن ـ في مرحلة زعزعة استقرار عراق ما بعـد صدام ـ "مسألة مؤجلة"، لكن بالكاد منسية. فنعلم من البرقيات التي نشرها موقع ويكيليكس (Wikileakes) أن سفارةَ الولايات المتحدة في سورية، كانت تخشى رغم العقوبات التي فُرضت في عام 2005 اللاتعاونَ السوريِّ مـع أمريكـا حـول العراق، لكن كان أن آلَ الأمرُ بـسورية في عـام 2006 «إلى وضـع أقـوى بكـثير محلياً ودولياً مما كانت عليه في عام 2005»(*).

حاولت واشنطن اتهام دمشق بإيواء مقاتلي المقاومة العراقية (حيـث كانـت سورية قد استوعبت ما يزيد على مليون لاجئ من العراق، بعد الغزو الأمريكـي في عام 2003)، لكن تسربت معلومات من السفارة الأمريكية عـن أن «العناصـر المتطرّفة تـستخدم سـورية بـشكل متزايـد كقاعـدة انطـلاق، في حـين اتخـذت [حكومة الجمهورية العربية السورية] بعـض الإجـراءات ضـد الجماعـات الـتي تُصرّح عن ارتباطها بتنظيم القاعدة». ومـع ذلـك اقترحـت الـسفارة علـى وزارة الخارجية البحث عن فرص لـ«عرقلـة صـناعة القـرار الـسوري [قـرار الـرئيس السوري بشار الأسد]، والإبقاء على حالة عدم التوازن، وجعله يدفع ثمناً باهظاً عن أخطائه» (US Embassy Damascus 2006).

(*) وردت خطأ طباعي في النسخة الإنكليزية على أنها 2006 وتم تصحيحها بناء علـى رسـالة للمؤلـف، (المترجمة).

وكان يجري في هذه الأثناء وضع مُنطلق للتدخُّل. حيث خصصت وزارة الخارجية الأمريكية خمسة ملايين دولار لـ"برامج الحوكمة والإصلاح في سورية" في أوائل عام 2006 (Wikas 2007: vii). فقد كانت إدارة بوش تموّل قنواتٍ إعلامية ومنظمات غير حكومية. وتؤكد برقيات أمريكية في هذا الصدد أن وزارة الخارجية الأمريكية موّلت تلفزيون بردى، الذي مقره لندن، وشبكة من السوريين الذين يقيمون في الخارج تسمى "الحركة من أجل العدالة والتنمية" (Whitlock 2011). كان هذا برنامجاً خاصاً انطلق بالتوازي مع عمل مماثل قامت به على نطاق واسع المبادرة الوطنية للديمقراطية (NED) التي تمولها وزارة الخارجية الأمريكية.

وجاء هذا التمويل بوساطةِ جماعات وسيطة في الولايات المتحدة، ولا سيما مجلس الديمقراطية، الذي تلقّى بدوره المنح المقدمة من مبادرة الشراكة الشرق أوسطية. كما تقول البرقيات المرسلة من السفارة الأمريكية في دمشق في المدّة الممتدة من عام 2009 فصاعداً: إن مجلس الديمقراطية تلقى ستة ملايين وثلاثمئة ألف دولارٍ أمريكي لإدارة برنامج سوري يسمى بـ"مبادرة تعزيز المجتمع المدني"، والذي تضمن "مفاهيم مختلفة عن البث" بما في ذلك تلفزيون بردى. ولوحظ لاحقاً وجود رقم أعلى من ذلك، يصل إلى حوالي اثني عشر مليون دولار في المدة الممتدة بين عامي 2005 و2010، حيث أبلغت السفارة الأمريكية في دمشق وزارة الخارجية أن الحكومة السورية « سوفُ تَعُدُّ ـ من دون أدنى شك ـ أنَّ أية أموال أمريكية تذهب إلى جماعات سياسية غير مشروعة أمراً يصل إلى حدّ «تغيير النظام». وكان الأمريكيون قلقين من أن المخابرات السورية (المخابرات سيئة السمعة على حد زعمهم) كانت ناشطة في مراقبة هذه البرامج (Whitlock 2011).

ولئن فرضت إدارة بوش سلسلة من العقوبات على سورية، بين عامي 2003 و2008، والتي من المفترض أنها كانت مرتبطة بدور سورية في لبنان والعراق، إلا أنه كانت هناك أيضاً اتصالات دبلوماسية رفيعة المستوى مع الحكومة السورية. حيث غالباً كانت سياسة الولايات المتحدة تبدو غير متماسكة، بيدَ أن

العداء كان ظاهراً. لقد طالبت الولايات المتحدة بتحرير السياسة الاقتصادية في سورية، ولكنها أيضاً منعت محاولات سورية للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية (Sadat and Jones 2009). وقد وصف وليام روف (William Rugh)، السفير الأمريكي السابق لدى دولة الإمارات العربية المتحدة، سياسة الولايات المتحدة تجاه سورية بأنها سياسة "العزلة والمونولوج"، بينما تقول المحللة السابقة في وكالة المخابرات المركزية مارثا كيسلر (Martha Kessler): إن السياسة (الأمريكية) يجب أن تقوم على أساس «من الاعتقاد بين كثيرين في هذه الإدارة [الأمريكية] بأنَّ هذا "النظام" [الحكومة السورية] يجب أن يرحل» (Sadat and Jones 2009).

وشمل هذا الطموح الاستعداد العسكريّ، ليس فقط بالمعنى التقليديّ. وكان البريطانيون أيضاً يدعمون الأمريكيين آنذاك. يقول وزير الخارجية الفرنسي السابق رولان دوما (Roland Dumas)، وذلك قبل عامين من اندلاع العنف في سورية: «التقيت مع اثنين من كبار المسؤولين البريطانيين الذين اعترفوا لي أنهم كانوا يُعدون شيئاً حول سورية... كانت بريطانيا تنظم غزواً للمتمردين إلى سورية. وسألوني حتى، رغم أنني لم أعد وزيراً للخارجية، إذا ما كنت أود المشاركة»، ويقول بأنه رفض هذا العَرْض (Lehman 2014). والواقع أنَّه لم تتضح أية تفاصيل حول هذه الخطة التي وضعت عام 2009.

غير أنه قد كان للولايات المتحدة خبرةٌ طويلةٌ في الحروب السرية القذرة، حيث قاتل الأمريكيون من خلال وكلاء لهم، كما في أمريكا الوسطى (على سبيل المثال في السلفادور ونيكاراغوا)، وفي أفريقيا (مثلاً: في زائير وأنغولا) وفي الشرق الأوسط (كما ما جرى في أفغانستان). فبعد أن أعلن الرئيس بوش "الحرب على الإرهاب" في عام 2001، تم تعديل الدليل الخاص بالجيش الأمريكي حول "الحروب غير التقليدية" (UW) مرات عديدة ليأخذ في الحسبان مجموعة من الأنشطة التي يتعيّن على الولايات المتحدة القيام بها لمتابعة خططها الطموحة. وقد تضمنت نسخة عام 2008 من هذا الدليل اقتباساتٍ تتفق مع قول

الحكيم الصيني القديم صن تسو(*) (Sun Tsu) عن إن «هزيمة العـدو دون قتـال هي قمة المهارة» (US Army 2008:101). وهذا يعني أنه من الكفـاءة والفعاليـة أن تُطوّر مجموعة من الوسائل، بعيداً عن المواجهة العـسكرية المباشـرة. يـضع هذا الدليل تصوراً عن "الحرب غير التقليديـة" الـتي «يجـب أن تنـشب بفعـلٍ أو بمعيّة أو بوساطة البدائل (surrogates)»، بدلالة الأمثلة السابقة على ذلـك فيمـا حدث في نيكاراغوا وأفغانستان.

يؤكد الدليل، أن «الهدف المُعلن بوضوح من الحرب غـير التقليديـة [هـو] دعـم حركـات التمـرد والحركـات المقاومـة والعمليـات العـسكرية التقليديـة» (US Army 2008:1, 1-2, 1).

كانت تلك الحرب غير التقليدية هي بالضبط ما كان يُحضَّرُ لسورية، وقبـل الأحداث التي جرت في أواخر عام 2010 وفي أوائـل عـام 2011، في كـلٍّ مـن مصر وتونس، والتي عرفت بـ "الربيع العربي". وكان النموذج يقوم على توسـيع تنظيم القاعـدة (أو"الدولـة الإسـلامية") في العـراق، بالاعتمـاد علـى شـبكات الإخوان المسلمين في سـورية، والمخلـصين لهـا مـن الطـائفيين الأشـرار مـن السعوديين.

لو تم عزل سورية، كما جرى في العراق وليبيا، كان يمكن لهذه الخطـة أن تمضي قدماً. لكن الجيوش الوكيلة من دول النـاتو والخلـيج العـربي اصـطدمت بمحور المقاومة، ومعه بعض الحلفاء الأقوياء، الذين يملكون الخبرة في مقاومة الاستفزازات الطائفية.

(*) صـن تـسو: (ولـد عـام 551 ق.م ومـات عـام 496 ق.م، اشـتُهر بكتابـه ذائـع الـصيت "فـن الحـرب"، (المترجمة).

المراجع:

- Bruno, Greg (2007) ‘Profile: Al-Qaeda in Iraq’, Council on Foreign Relations report, Washington Post, 19 November, online: http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2007/11/19/AR2007111900721.html

- Clark, Wesley (2007) A Time to Lead: for duty, honor and country, St. Martin’s Press, London

- DIA (1982) ‘Syria: Muslim Brotherhood Pressure Intensifies’, Defence Intelligence Agency (USA), May, online: https://syria360.files.wordpress.com/2013/11/dia-syria-muslimbrotherhoodpressureintensifies-2.pdf

- Felter, Josep and Brian Fishman (2008) ‘Al-Qa’idas’s Foreign Fighters in Iraq: a first look at the Sinjar records’, Combating Terrorism Center at West Point, New York, online: https://www.ctc.usma.edu/posts/al-qaidas-foreign-fighters-in-iraq-a-first-look-at-the-sinjar-records

- Hersh, Seymour (2006) ‘Watching Lebanon’, The New Yorker, 21 August, online: http://www.newyorker.com/magazine/2006/08/21/watching-lebanon

- Hersh, Seymour (2007) ‘The Redirection’, New Yorker, 5 March, online: http://www.newyorker.com/magazine/2007/03/05/the-redirection

- Jones, Owen (2014) ‘To really combat terror, end support for Saudi Arabia’, The Guardian, 1 September, online: http://www.theguardian.com/commentisfree/2014/aug/31/combat-terror-end-support-saudi-arabia-dictatorships-fundamentalism

- Kaplan, Eben (2006) ‘The Al-Qaeda-Hezbollah Relationship’, Council on Foreign Relations, 14 August, online: http://www.cfr.org/terrorist-organizations-and-networks/al-qaeda-hezbollah-relationship/p11275

- Karon, Tony (2006) ‘Condi in Diplomatic Disneyland’, Time, 26 July, online: http://content.time.com/time/world/article/0,8599,1219325,00.html

- Khouri, Rami (2006) ‘Birth pangs of a New Middle East’, Daily Star, July, online: http://www.dailystar.com.lb/GetArticleBody.aspx?id=113043

- Lehmann, Christof (2013) ‘Dumas, ‘Top British officials confessed to Syria war plans two years before Arab Spring’, NSNBC, 1 June, online: http://nsnbc.me/2013/06/16/dumas-top-british-officials-confessed-to-syria-war-plans-two-years-before-arab-spring/

- Narwani, Sharmine (2011) ‘Pentagon game to divide Iranians and Arabs’, Salon, 26 October, online: http://www.salon.com/2011/10/26/pentagon_game_to_divide_iranians_and_arabs/

- NSC (1980) ‘Syria July 16, 1980’, National Security Council, 4203XX, Memorandum for Zbigniew Brzezinski, declassified document.

- Ridolfo, Kathleen (2007) ‘Iraq: Samarra Bombing Set Off Year Of Violence’, Radio Free Europe, Radio Liberty, 12 February, online: http://www.rferl.org/content/article/1074662.html

- Sadat, Mi H and Daniel B Jones (2009) ‘U.S. Foreign Policy Towards Syria: balancing ideology and national interests’, Middle East Policy Council, Summer, Volume XVI, Number 2, online: http://www.mepc.org/journal/middle-east-policy-archives/us-foreign-policy-toward-syria-balancing-ideology-and-national-interests?print

- Seale, Patrick (1988) Asad: the struggle for the Middle East, University of California Press, Berkeley CA

- US Army (2008) ‘Army Special Operations Forces: Unconventional Warfare’, FM 3-05.130, United Stats Army John F. Kennedy Special Warfare Center and School, Fort Bragg NC

- US Embassy Damascus (2006) ‘Influencing the SARG in the end of 2006’, Cable to US State Department, Wikileaks, 13 December, online: https://wikileaks.org/plusd/cables/06DAMASCUS5399_a.html

- Whitlock, Craig (2011) ‘U.S. secretly backed Syrian opposition groups, cables released by Wikileaks show’, Washington Post, 17 April, online: https://www.washingtonpost.com/world/us-secretly-backed-syrian-opposition-groups-cables-released-by-wikileaks-show/2011/04/14/AF1p9hwD_story.html

- Wikas, Seth (2007) ‘Battling the Lion of Damascus: Syria’s domestic opposition and the Asad regime’, Washington Institute for Near East Policy, Policy Focus #69, May, online: http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/battling-the-lion-of-damascus-syrias-domestic-opposition-and-the-asad-regim

- Worth, Robert F. (2006) ‘Blast Destroys Shrine in Iraq, Setting Off Sectarian Fury’, New York Times, 22 February, online: http://www.nytimes.com/2006/02/22/international/middleeast/22cnd-iraq.html?_r=0

"البراميل المتفجرة": المصادرة المنحازة والحربُ الدعائية



لوحة معروضة في أحد شوارع دمشق، يظهر فيها كلّ من الرئيس بشار الأسد والشيخ الراحل البوطي عالم الدين السوري المتخصص بالدراسات الإسلامية، إذ استُشهد في عملية تفجير استهدفت مسجداً للمصلين قضى نحبه منهم معه في التفجير نحو أربعين رجلاً. ووقفت جبهة النصرة وراء هذه العملية بما أنها هددت بقتله مراراً، وتشير الدلائل إلى أنها قامت بتنفيذ تهديدها بالفعل في أيار 2013(*)، ومن ثَمَّ ألقت باللائمة في ذلك على الحكومة السورية.

تقتضي الحربُ الدعائية عادةً نكران أيَّ منطق أو مبدأ يُمكن أن يُعمل بهما في سيرورة الحياة العادية، وتكشفُ الحربُ القذرةُ على سورية هذا الأمر على نحوٍ كبير. إذ يسري في الأخبار الغربية عن سورية سيل مُطَّرد من: قَصَصِ الفظاعات مثلٍ: "البراميل المتفجرة"، والأسلحة الكيماوية، وعمليات " القتل بدم بارد"،

(*) وردت خطأ طباعي (أيار/ مايو) والصحيح أن الشيخ استشهد في 21 آذار/مارس 2013 حيث يعود المؤلف لذكر التاريخ الصحيح في غير موضع من الكتاب، (المترجمة).

ووقوع ضحايا من الأطفال الصغار، حيث تشترك هذه القصص جميعها في أمرين: أولاً، أنها تلفيق يهدف إلى تصوير كلٍّ من رئيس سورية وجيشها في أُفق ارتكاب جرائم الحرب؛ والأمر الثاني، أن هذه القَصَص كافةً، حين ندقق فيها، يتبيّن أنها تصدر عن جهات منحازة. وأننّا خُدعنا بها (كرأي عامٍ غربيٍّ).

لم تُعنَ السِّجالات الغربيّة المُثارة عن سورية بالمعايير الأخلاقية المُتواضع عليها بين الناس على نحوٍ يضمن تآلف المصالح لا تناقضها، ويتيحُ في الوقت نفسه البحث عن أدلة موضوعية، بما يُسهمُ في استبعادِ المزاعم التي تنصبُّ في خدمة المآرب الشخصيَّة للأطراف المعتدية.

لكنَّ مُناخاً غربيّاً مشوباً بالتحيُّز لا بدّ أن يستجلب دائماً المزيد من التلفيقات، التي يُعاد تكرارها لجمهور من السُّذَّج وحتى الأكاذيب التي استُخدمت لتبرير عمليات غزو سابقة (على سبيل المثال كما حدث في غزو العراق 2003)، أو مثلما جرى في الحروب القذرة (كما في ليبيا 2011)، أقول: حتى هذه الأكاذيب ما تزال ذات تأثير راهن في وعينا. وكما هو الحال في الحروب السابقة، فإن الهدف دائماً هو شيطنة العدو، من خلال تكرار المزاعم عن الفظاعات المُرتكبة، وهذا يُفضي بالتالي إلى حشد الدعم الشعبي المؤيد للحرب (Knightley 2001).

إلا أنه و(حتى) في حالات الحرب، يُعَدُّ ضروريّاً الاسترشادُ بقواعد ناظمة عندما يتعلّقُ الأمر باستقراء حيثياتِ أيِّ دليلٍ مُشْكِلٍ، على الأقل إذا ما أردنا أن نفهم حقيقة المسألة بصدقيّةٍ تامة. إذ إن الطرف المُعتدي لديه دائما المصلحة في تشويه سمعةِ الخصم، ونزع الشرعية عنه. ولهذا السبب علينا دائماً أن ننظر في "دليلِ" الطرف المُعتدي ضد خصمه بكثيرٍ من الشك. والقضية ليست في أنَّهُ غير قادراً على فهم خصمه، وإنما في أن ما يقوله سيكون محكوماً دائماً بالمصلحة الذاتية. إذن، علينا أن نفترض وجود تحيّز مُبالغ فيه عند المُعتدي في عرض أدلته. وفي حال لم يكن هناك من طريقة للتثبُّت من صحة ذلك الدليل، أو كان دليلاً منحازاً يأتي خدمةً "لمصلحة ذاتية"، يجب علينا أن نرفضه بوصفه دليلاً لا يملك أية أهمية من الناحية القانونيّة.

إنَّ استبعاد الأدلة التي تأتي خدمةً لمصلحةٍ ذاتيَّةٍ يتسق مع المبدأ العام المطبق في القانونين المدني والجنائي؛ فالدليل يُؤخذ بعين الاعتبار عندما ينقلب ضد مصلحة الطرف المُعتدي، كما في حال الاعترافات، أو عندما يقول لنا شيئاً عن عقلية الطرف الذي يقدمه.

تسري هذه المبادئ سواء أَكُنَّا نتحدث عن طبيعة العنف في زمن الحرب، أم عن الحقوق الدستورية، مثل: حرية الرأي العام وحق الانتماء السياسي. ولذا فعندما تدّعي الجماعات الإسلاموية المسلحة وشركاؤها أن عدوها، أي: الجيش العربي السوري، يقوم بذبح المدنيين (AP 2015)، فإن هذا الادعاء لا سندَ له. إذ إننا نتوقع أن تهاجم الأطراف المتحاربة بعضها بعضاً بالاتهامات كما بالأسلحة. كما إن القصص المزيفة عن فظاعات ارتكبتها الحكومة كانت تنتشر على قدم وساق منذ بداية الصراع.

لكن الأم أغنيس مريم، وهي رئيسة دير(*) في حمص، استنكرت الجرائم المدبرة التي ارتكبها 'الجيش السوري الحر' في عام 2011، حيث تم استخدام صور الضحايا في محطات الإعلام التي يديرها الإسلامويون الطائفيون (SANA 2011). وبالمثل، كتب الصحفي الأمريكي نير روزن (Nir Rosen) عن «قتلى المعارضة من المقاتلين الذين كانوا يُصوّرون على أنهم مدنيون أبرياء قتلوا على يد قوات الأمن» (Rosen 2012).

والسؤال: ما العِبرة التي نستخلصها هنا؟ العِبرة أن علينا أن نَحْذَرَ قصص الفظاعات التي تصدر عن جهات منحازة. لأنها تؤدي في أحسن الأحوال دور "السارية" التي يُعلّق عليها شراع سفينة المعتدين، أو يمكن أن تكون مجرد اتهامات تحثّنا على البحث عن الأدلة الموضوعيّة، لكنها تكونُ في الأعم الأغلب حرفاً للانتباه عن حقيقة الواقع الحاليّ

وهكذا نكتشف أنَّه ـ وللسبب ذاته ـ عندما تُقدّم إمارة قطر (التي استثمرت

(*) هذا الدير هو دير مار يعقوب المُقطّع ويقع على بعد 4 كم غربي مدينة قارة في منطقة القلمون عند سفح جبال لبنان الشرقية، على مسافة 90 كم إلى الشمال من دمشق، (المترجمة).

المليارات من الدولارات في الهجمات المسلحة في سورية) شاهداً مأجوراً، مجهول الهوية، مع صور العديد من جثث القتلى الذين تعرضوا للتعذيب، ملقيةً اللوم على الجيش السوريّ، لقيامه بـ « القتل بدم بارد» (O'Toole 2014; Jalabi 2015)، يجب أن يكون واضحاً أن هذا الدليل منحاز ولا يمكن الاعتماد عليه (Smith Spark 2014; MMM 2014). إذ حقيقة أن هذه القصة قدّمها طرف مُعتدٍ قبل مؤتمر جنيف للسلام(*)، يجب أن تدعونا لمزيد من الشك. حيث إنه دون وجود الدليل الموضوعيّ الذي يدعم الشاهد المزعوم ليس لدينا من طريقة للتثبت في أي توقيتٍ، أو ظرفٍ أو حتى أي بلد التُقطت تلك الصور. فأولئك الذين يمولون ويسلحون الجماعات الطائفية عملوا دائماً على ذبح مئات الآلاف في السنوات الأخيرة، في الحروب في كلٍّ من أفغانستان، والعراق وسورية. وبما أنَّ الأمور تجري على هذا النحو، فسوف تُصطنع دائماً صورٌ عن مزيدٍ من الجثث والضحايا، فليس هناك شح في صور الضحايا. كما أن حقيقة أن المصادر الإعلامية الغربية تقوم بنشر هذه الاتهامات، مستخدمةً محامين (ممن تدفع لهم قطر أيضاً) لتقديم الدعم "المبدئي، أي: الأولي" (Cartalucci 2014; Murphy 2014) يُظهر (هذا) فهمهم القاصر للدليل المستقل.

ينطبق هذا القياس ذاته على حالة المزاعم المتعلقة بمسألة الشرعية. إذ إن تأكيدات المسؤولين الأمريكيين، بشكل صريح، وبلا وجه حق، في سعيهم لتغيير "النظام" في سورية، أن الرئيس بشار الأسد «فقد شرعيته» (على سبيل المثال انظر ما قالته وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون للجزيرة في عام 2011) يجب أن ينظر لها على أنها مسألة دعاية منحازة، وتأتي خدمة لمصلحة ذاتية.

ونلاحظ في خصوص المزاعم بشأن هجوم آب/ أغسطس عام 2013 بالأسلحة الكيماوية في الغوطة الشرقية، محاولة الحكومة الأمريكية، وبعض وكالاتها المرافقة، استخدام التَّليمترية (telemetry)، أي: إرسال المعطيات

(*) المقصود مؤتمر جنيف حول سورية، (المترجمة).

بالتَّلميتر(*). كما يُلاحظ في هذا الاتجاه تقديم بعض الأدلة الظرفية الأخرى لتوريط الجيش السوريّ (Gladstone and Chivers 2013; HRW 2013). وقد استمرت واشنطن، ووسائل الإعلام في المحيط التابع لها، بتكرار الاتهامات الكاذبة نفسها حتى بعد أن دحضت مجموعة من الأدلة تلك الاتهامات (LIyyd and Postal 2014; Hersh 2014; Anderson 2014). وفي أجواء الحرب هذه، كان عدد قليل من وسائل الإعلام الغربية شجاعاً بما يكفي ليقول إن «الإمبراطور عارٍ من الثياب»(**).

ربما نولي المزيد من الاهتمام عندما تكون الأدلة التي يقدمها أحد الأطراف المتحاربة ضد مصلحته الشخصية. ومثال ذلك: ما جاء في المقابلات التي أجرتها وسائل إعلام غربيّة مع قادة 'الجيش السوري الحر' في عام 2012. إذ اعترفوا جميعهم أنهم مبغوضون من قبل السكان، وأن الرئيس السوري يتمتع بولاء معظم السكان في حلب. حيث قال أحدهم: إنَّ الرئيسَ السوريَّ يتمتعُ بتأييد «70% من السكان في تلك المدينة ذات الغالبية السُّنية» (Bayoumi 2013)، وقال آخر: إن السكان المحليين «جميعهم موالون لـ(.. بشار)(***)، ويبلّغون عنا» (Abouzeid 2012) وقال ثالث: «إنهم جميعاً مُخبرون... يكرهوننا، ويحمّلوننا مسؤولية الدمار الذي لحق بالمدينة» (Abdul-Ahad 2012).

ولئن كانت هذه الأدلةُ قوليَّةٌ، إلا أنَّ أهميتها تتأتى من كونها تعمل ضد مصلحة الطرف الذي قدَّمها، ولذا لها أهمية أكبر من تلك المزاعم التي تكون لخدمة مصلحةٍ ذاتيَّةٍ. وبالمثل، ففي حين كان رؤساء حكومات الناتو يؤكدون أن «الرئيس الأسد فقد شرعيته»، كان هناك تقرير داخلي أصدره الناتو قدّر بأن 70% من السوريين يؤيدون الرئيس بشار الأسد، وأن 20 % منهم كانوا

(*) التَّليمتر جهاز كهربائي لقياس كمية ما، وإرسال النتيجة بوساطة الراديو عادة إلى محطة بعيدة تُسجّل، (المترجمة).

(**) أي إن الخداع ظاهر، (المترجمة).

(***) إن تلك الجماعات وبسبب موقفها الطائفي أو الأيديولوجي أو السياسي، تستخدم مفردات غير مناسبة عند الإشارة إلى مقام الرئاسة، (المترجمة).

محايدين، و10% يدعمون "المتمردين" (World Tribune 2013; BIN 2013). وإن لم يكن هناك من تفاصيل عامة منشورة عن الطريقة التي اعتمدها هذا التقرير في وضع تقديراته، إلا أنَّ له (بلا شك) بعض الأهمية من حيث إنه يأتي ضد المصلحة الذاتية (لمصدر التقرير). كما إنه يتطابق تقريباً مع نتائج الانتخابات الرئاسية التي جرت في حزيران/يونيو 2014، حيث فاز الرئيس بشار الأسد في تلك الانتخابات بنسبة 65% من إجمالي مجموع أصوات الناخبين المتمتعين بحق الانتخاب، أي: ما يعادل 88,7% من الأصوات من معدل مشاركة وصل إلى 73,4% (International Idea 2015).

ربما يكون الخطأ المنهجيُّ الأكثر شيوعاً في وسائل الإعلام الغربية، التي تقدم الأخبار عن الأزمة السورية، هو الاعتماد غير العادي على شخصٍ واحدٍ، وهو رجل يعيش في بريطانيا يطلق على نفسه تسمية 'المرصد السوري لحقوق الإنسان' (SOHR). إذ إن العديد من القصص حول أعداد القتلى السوريين وفظائع "النظام" والأضرار الجانبية الضخمة كانت تأتي من هذا الرجل! لكن رامي عبد الرحمن كان يرفع دائماً علم 'الجيشِ السوريِّ الحرِّ' الذي تقوده جماعة الإخوان المسلمين من موقعه على الإنترنت (SOHR 2015). ويدّعي أنه يجمع المعلومات من شبكة من الشركاء في سورية وجوارها. ومن المنطقي أن نَعُدَّ هؤلاء الأشخاص في معظمهم مناوئين للحكومة. إن القنوات الإعلامية التي تختار الاعتماد على هكذا مصدر منحاز بشكل صريح تقوِّض صدقيتها. ونسأل هنا: ألا يوجد اكتراث بمسألة الصدقيّة من قِبَلِ الغربيين؟ الواقع أنَّ الحكومات الغربيّة دعمت، في هذا الصراع، خط الإخوان المسلمين فيما يخص سورية، وهذا ربما جعلها أقل اهتماماً بمسألة الصدقيّة. إذ غالباً ما تعرض وسائل الإعلام الغربية قصص 'المرصد السوريِّ لحقوق الإنسان' مع أرقام الضحايا المُبهر، كما لو أنها كانت أرقاماً حقيقيّة (انظرْ على سبيل المثال AP 2015، وPollard 2015). وقد تُضاف عبارة إنكار "النظام" لهذه الأرقام نفسها في آخر فقرات الخبر كنوع من محاولة إضفاء الموضوعية على ما قيل.

ربما تُضفي أحياناً انتقادات عبد الرحمن العَرضية للجماعات السلفية المتنافسة (مثل "داعش") نوعاً من الصدقيّة على أقواله. لكن مهما يكن من شيء، فإن الاعتماد دون تفكُّر على هذه التقارير المنحازة مهم في الإبقاء على الأسطورة الغربية عن أن الجيش السوري يقوم باستهداف وقتل المدنيين.

نلاحظ الكثير من جوانب المشكلة نفسها فيما يتصل بالحملة الإعلامية التي شُنّت في عامي 2014 ـ 2015 على "البراميل المتفجرة"، حيث قيل: إنَّ نوعاً معيناً من قنابل سلاح الجوّ السوريّ، والتي تحوي وقوداً وشظايا، كانت السبب وراء خسائر فادحة في الضحايا بين المدنيين. لكن وكما يوضح روبرت باري (Robert Parry) (2015) أن أيَّ نوعٍ من القنابل المحلية الصُّنع، والتي «تُرمى من الحوامات»، مِنَ المُرجَّح أن تكون بالمقابل أقل عشوائية بكثير من معظم الهجمات الصاروخية، ناهيك عن اليورانيوم المنضب، والنابالم والفوسفور الأبيض والقنابل العنقودية وإلى ما هنالك ممَّا اعتادت واشنطن استخدامه. لكن القضية هنا لا علاقة لها بالجانب التكنولوجيّ، بقَدْر ما تتعلّق، تبعاً للمزاعم ذات الصلة، بابتكار أداة جديدة لتوليد الرعب وإسعار الحرب، أي: "البراميل المتفجرة" التي صارت ترويسة مكررة تُصاغُ تحتها الافتراءات على الجيش السُّوريّ، بأنَّه يقتلُ المدنيين بوساطتها. حيث تم افتراض الطبيعة "العشوائية" لهذا السلاح "الجديد" فقط من خلال التكرار.

لقد كانت الغالبية العظمى من المواقع التي حدثت فيها الهجمات المزعومة بـ"البراميل المتفجرة"، في خلال عامي 2014 ـ 2015، هي المناطق التي تحتلها العصابات الإسلامويّة الطائفية، في شمال شرق حلب ودوما في شمال شرق دمشق والرقة في الصحراء الشرقية. ويمكن أن نشير إلى ما نشرته منظمة هيومان رايتس ووتش (التي مقرها أمريكا) (والمرتبطة بشكل وثيق بمجلس العلاقات الخارجية في الولايات المتحدة، وهو هيئة مرتبطة بالخارجية الأمريكية)، أقول: نشرت هذه المنظمة خريطةً توضح مواقع المئات من أماكن الهجمات التي تعرّضت لتلك البراميل المتفجرة، في شمال شرق حلب، الذي تسيطر عليه المعارضة (HRW 2014).

لقد كانت "المعارضة" في تلك المنطقة في الحقيقة من النصرة، فرع القاعدة في سورية، المتحالفة مع "الجبهة الإسلامية" المدعومة من السعودية (وهي اتحاد بين مجموعات سابقة للجيش السوري الحر، حركة أحرار الشام، وصقور الشام، ولواء التوحيد، وجيش الإسلام، الجبهة الكردية، ولواء الحق)، وظهر لاحقاً كلّ من تنظيم ("داعش")، والحزب الإسلامي التركستاني، وجيش الفتح. كل هذه المجموعات عملياً هي مجموعات إرهابية مسؤولة عن ارتكاب فظاعات متعددة في سورية.

ولذا ليس مستغرباً، والحالُ كذلك، أن يقوم الجيش السوريُّ بقصف تلك المجموعات بشكل منتظم. فعلى النقيض من أسطورة "المعارضة المعتدلة"، تعمل الجماعات الإرهابية غالباً مع بعضها بعضاً. ويمكن أن نشير (في هذا الصدد) إلى أحد كبار قادة 'الجيش السوري الحر'، عبد الجبار العكيدي، المدعوم من أمريكا، والذي كان واضحاً تعامله الوثيق مع "داعش" على نحوٍ فعَّال (انظر Eretz Zen 2014). كما أن 'الجيش السوري الحرّ' عمل بشكل وثيق مع النصرة منذ البداية.

تصدرُ معظم الافتراءاتُ عن قتل "المدنيين" عن المجموعات الإسلاموية نفسها، أو من "النشطاء" المرافقين لها. ثم تُضخَّم تلك الافتراءات من قبل وسائل الإعلام الغربية، وأيضاً من قبل المنظمات غير الحكومية الغربية، والتي تعمل كجهات "مرافقة" منخرطة بشكل فعّال في السياسات الخارجية للحكومات الغربية. إذ تأتي أرقام الضحايا عادة من 'المرصد السوري لحقوق الإنسان'، الذي مقره بريطانيا (SOHR 2015)، ومن الشبكة السورية لحقوق الإنسان التي مقرها بريطانيا كذلك (SN4HR 2015)، ومن مركز توثيق الانتهاكات في سورية الذي مقره اسطنبول (VDC 2015; Masi 2015). وتُعَدُّ هذه المراكز كافةً متحالفة مع العصابات الإسلاموية، ولكنها عادة ما تحافظ على بعض المسافة عن "داعش" أمام الرأي العام.

ولقد أدرج مركز توثيق الانتهاكات في سورية أسماء بعض الضحايا من تنظيم "داعش" بوصفهم "شهداء" الثورة (انظر Sterling 2015b). إن النقطة التي

أبتغي توضيحها هنا هي أن جميع هذه الأصوات أصوات منحازة، من حيث هي أصوات لإسلامويين طائفيين ملتزمين بالإطاحة بالدولة العلمانية، ولديهم الدافع الكبير للكذب وتشويه سمعة الجيش (العربي) السوري.

يزعم الرئيس الأمريكي باراك أوباما، القائد العام للحرب الدعائية ضد سورية، أن نظيره السوريّ «يصدر الأوامر لإلقاء البراميل المتفجرة، لارتكاب مجازر بحقّ الأطفال الأبرياء» (Obama in Mosendz 2015)، وحيث إنه لم يكن هناك من دليل يثبت أن الرئيس بشار الأسد كان لديه أيّة نية من هذا القبيل، فإن باري (Parry) (2015) كان محقّاً أن يسمي تلك العبارة التي قالها أوباما مجرد « دعاية بحتة ومضلّلة».

كما تدعم مزاعم البيت الأبيض منظمة هيومان رايتس ووتش، وهي "هيئة مرافقة"، حيث كررت رئيستها كينيث روث (Kenneth Roth) بقلقٍ شديد عبارة "برميل متفجر"، لكنها فُضحت إذ تبين أنها نشرت صوراً من غزة المـدمرة ومن عين العرب (كوباني)، زاعمةً أن الحالتين كلتيهما تُظهران حلب بعد تعرضها للقصف بـ"براميل بشار الأسد"(*) (MOA 2015, Interventions Watch 2015).

يبدو أن إعادة استخدام صور الضحايا مسألة مُعتادة، إلا أن الأساس في الدعاية الغربية عن الحرب هو الاعتماد المستمر على مصادر منحازة. إذ من الواضح أن حملة البراميل المتفجرة وُضعت خصيصاً بهدف نزع الشرعية عن كلٍّ من الحكومة السورية والجيش (العربي) السوري، ربما لردع أو إبطاء الهجمات على الجماعات الإسلاموية، لكن الجيش (العربي) السوري لا يعتذر لأحد عن قصف المناطق التي يسيطر عليها الإرهابيون، يضاف إلى ذلك أنه بذل الجهود دائماً لإجلاء المدنيين، قبل القيام بأية عمليات قصف ضد المناطق التي يسيطر عليها الإرهابيون.

لقد غادر معظم المدنيين منذ وقت طويل المناطق التي قيل: إنها تعرّضت

(*) درجت الجهات المناهضة للحكومة السورية على ربط كل شيء بمقام الرئاسة بما ينسجم مع هدف "شيطنة" رئيس وشعب العدو كما أتى عليه فيليب نايتلي آنفاً، (المترجمة).

لقصف بـ"البراميـل المتفجـرة"، في كـانون الأول/ ينـاير 2015. فقـد عرضـت رويترز (2015a) صور فيديو تُظهر بعض أكبر عمليات إخلاء المدنيين في دومـا (إلى الشمال الشرقي من دمشق) من قبل الجيش (العربي) السوري. بعدها بعـدة أشهر نددت رويترز بارتكاب مجزرة بحق "المدنيين" في دوما نفسها، مستخدمة "نـــشطاء" 'المرصـــد الـــسوري لحقـــوق الإنـــسان' كمـــصدر لمعلوماتهـــا (Reuters 2015b). وهكذا فإن تكرار مثل هذه الادعـاءات المُغرضـة مـن قبـل الجماعات المسلحة وشُركائها "الناشطين" قاد إلى أن تكون هناك عناوين من قبيل "براميل النظام السوريّ المتفجرة تقتل من المدنيين أكثر ممـا تقتـل مـن تنظيمـي "داعش" والقاعدة مجتمعين" (Masi 2015).

توحي هذه الصور إلى أن هناك مطلب مُسَوَّغ للقيام بحرب أوسع في سورية. لقد أُخِذَت صور النساء والأطفال في البلداًت التي هجرها سكانها والتي تحتلـها الجماعات المسلحة مـن سـياقات أخـرى. حيـث تبنـت منظمـة العفـو الدوليـة (أمريكا) على نحو كبير قصص البراميل المتفجرة إلى جانب الأرقام المُختلقة عن أعداد الضحايا "المدنيين"، لكن منظمة العفـو الدوليـة لـديها أيـضاً مـشكلة في الطريقة، أعني: اعتمادها على مصادر منحازة، مثل: مركز توثيق الانتهاكات في سورية، والشبكة السورية لحقوق الإنسان، و'المرصد السوري لحقوق الإنسان'. لقد أدى انحياز منظمة العفو الدولية للغرب إلى أن تُكرِّرَ أكاذيب الناتو المختلقة في صـراعات أخـرى ـ كمـا في ليبيـا والكويـت ـ في (المـسألة الـسورية) (انظرْ Sterling 2015b).

هذا لا يعني أن الجيش السوري لم يضطر إلى توجيه نيرانه إلى مناطق ينتشر فيها أشخاص مدنيون يؤلفون الحواضن الاجتماعية للمسلحين، لاسـيما أولئـك المرافقين للجماعات الإرهابية. لكن بالمقابل الكثير من الـسوريين ممـن تـأثرت أسرهم بشكل مباشر جرّاء الهجمات الإرهابية يتساءلون لماذا الحكومة لم تقصف مناطق مثل دوما، وشمال حلب وأجزاء من الرقة؟ حيـث يقولـون: إن المـدنيين الوحيدين المتبقين هناك هم ممن يدعمون عـصابات قطـع الأعنـاق. فالولايـات المتحدة لم تتردد في قصف المقاومـة العراقيـة في الفلوجـة (العـراق) في 2004

(Democracy Now 2005). لكن الأمر مختلف في سورية، فكما قال أحد الأعضاء السابقين في القوات الشعبية المساندة للحكومة:

«إنَّ الإسلامويين يختبئون [بالفعل] وراء المدنيين. ولكن إذا كنا حقاً قتلنا كل من يدعم العدو، لكان حي دوما قد تم تدميره منذ فترة طويلة – (فيمكن) تسويته بالأرض بالدبابات في يوم واحد، كما كان يطالب لمدّة طويلة بعض المندفعين [السوريين]. لكن (الرئيس) الأسد لا يريد ذلك ... فمهمتنا هي إعادة توحيد البلاد. لذلك، قبل كل مهمة كان يقال لنا: يجب ألا نطلق النار على المدنيين تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف. وفي حالة مقتل أحد المدنيين، هناك دائماً تحقيق، وإذا لزم الأمر، محكمة عسكرية» (Mizah 2015). لكن هذه الهواجس تم تجاهلها ببساطة في النقاش الغربي النرجسي والمتهور.

لذا علينا أيضاً أن نولي أهمية كبرى فيما يخص المزاعم التي تطلقها جهات خارجية تنشر استطلاعات الرأي عن سورية. فعلى سبيل المثال، رغم أن مؤسسة أو أر بي إنترناشيونال (ORB)، والتي مقرّها بريطانيا، ليست بوكالة حكومية، إلا أنه يتم تمويلها في دولة معادية لسورية ومنخرطة في نقاشات هامة بالنسبة للأطراف المتحاربة.

ويمكننا الإشارة ـ كمثال على ذلك ـ إلى الاستطلاع الذي أجرته في منتصف 2014 والذي يبدو فيه أنَّ «ثلاثة من بين كل خمسة من السوريين يدعمون التدخل العسكري الدولي في بلادهم» (الجدول ORB 2014:1).

وهذا المقترح هو قضية تشغل فقط الحكومات الغربية وأما الرقم فلا يُصدق. فأولاً، إن أولئك السوريين الذين يدعمون الحكومة (هم أغلبية كبرى من السوريين بكل المقاييس)، كانوا دائماً يعارضون التدخل الأجنبي. ثانياً، معظم المعارضة السورية تعارض التدخل الأجنبي. ويمكن التدليل في هذا المقام على الوثيقة الأشمل الخاصة بالمعارضة السورية، وهي إعلان دمشق (2005)، حيث عارضت هذه الوثيقة كلاً من الهجمات المسلحة ضد الدولة والتدخل الخارجي. والحقيقة أنه لم يحدْ لاحقاً عن هذا الموقف، إلا جماعة الإخوان المسلمين،

وبعض الشخصيات في المنفى، و[بعض] المجموعـات الكرديـة. وعليـه، يُعـدُّ الزعم ـ بعد ثلاث سنوات من الحرب بما فيها مـن معانـاة جـسيمة، وبكـل مـا انطوت عليه من مستويات كبيرة من تدخل الناتو ومَلَكِيّاتِ الخليج-بأنَّ 60% من السوريين يريدون ذلك النوع من التدخل، أقول: يعد هذا الزعم أمراً لا يـستوي مع الحقائق المعروفة. هذا الكلام يتوافق مع استطلاع غير تمثيلي للرأي(*)، فيرفع من تمثيل أصوات الـذين يـدعمون الجماعـات المـسلّحة، لـذا علينـا أن ننظـر بالطريقة التي تجمع بوساطتها مؤسسة أو أر بي **(ORB)** معلوماتها.

وعلى هذا الأسـاس، تُعـدّ أسـاليبهم غـير شـفافة، إذ إن هـذه المجموعـة البريطانية تُجري استطلاعات الرأي في سورية من خلال توظيف مجموعة صغيرة من السوريين، تتواصل معهم من خلال الهاتف والإنترنـت. حيـث يـتم تـدريب هؤلاء المندوبين المحليين على القيام بمقابلة مجموعات صغيرة مـن النـاس في سورية. لذا تقدم أو أر بي **(ORB)** معلومات ضحلة عن الكيفية التي تختـار بهـا مُمثليها على الأرض داخل سورية، أو كيف يقوم هؤلاء بدورهم في اختيار مـن يُجرون معهم المقابلات. هم فقط يؤكدون (ودون إعطاء تفاصيل إحصائية فنيّة) أنَّ استطلاعهم كان صادقاً من حيثُ التمثيلُ الإحصائيُّ.

وزعمَ في هذا الاتجاه استطلاعٌ أجرتـه أو أر بي في منتـصف عـام 2014 أن 4% مـن الـسوريين يقولـون: إنَّ "داعـش" [التنظـيم الإسـلاموي المـدعوم مـن السعودية] «يمثّل مصالح وتطلعات الشعب الـسوريّ» (ORB 2014). لقـد كـان تنظيم "داعش" وقتئذٍ المجموعـة المـسلحة الأبـرز المناهـضة للحكومـة. وهـذه النتيجة، أي: (4٪ يؤيدون)، كان يمكن أن تكون معقولة، بما لا يتعـارض مـع غيرها من المعلومات. لكن تقوَّضت صدقيتها، بسبب المستوى المبالغ فيه وغير المعقول من نسبة التأييد الواردة فيها لدعم التدخل العسكريِّ الأجنبيِّ.

أما الشذوذ الآخر في استطلاع أو أر بي فهو(ذلك) الاستطلاع الذي أجرتـه في تموز/ يوليو 2015، إذ أظهر أن 21٪ من السوريين ينظرون نظرة إيجابيّة لتنظـيم

(*) بمعنى: أن العيّنة لا تمثل المجموعة السكانية التي تدّعي تمثيلها، (المترجمة).

"داعش" (ORB 2015 :الجدول الثالث). ورغم أنَّ هذا الاستطلاع لم يكن يتعلق بالضبط بالسؤال نفسه، إلا أن الفرق بين هذه الأرقام (4٪ و21٪) كبير، وبالكاد يمكن تفسيره من خلال أي شيء يمكن أن يكون قد وقع بين عامي 2014 و2015.

(كما أنه) لم يسبق أن أشارت أيٌّ من جهات الاستطلاع الأخرى، إلى أنَّ المتعصبين من "داعش"، يتمتعون بذلك المستوى من الشعبية. كما أن نسبة 35% ممن لديهم "نظرة إيجابية تماماً" عن تنظيم النصرة الإرهابي (ORB 2015)، الذي اشتهر بالتفجيرات بالشاحنات الملغومة وقطع الرؤوس، هي أيضاً نسبة غير قابلة للتصديق. في الواقع، كيف يمكن أن ينظر ثلث المجتمع، أي مجتمع كان، بعين الرضى إلى الجماعات الإرهابية التي قيادتها أجنبية، ممن اشتهر أتباعها بالفظائع التي ارتكبوها؟ هناك شيء ما خاطئ جداً هنا.

وعليه، إن التفسير الأكثر منطقية لذلك، هو بأنّ هناك انحيازاً خطيراً يؤثّر في "تمثيلية" العينة التي تختارها أو أر بي في مسوحاتها الميدانية.

لقد انتقدت ورقة أكاديمية في السابق أو أر بي، بسبب طريقتها المُبهمة، و"غير المكتملة" و"المخالفات الهامة" في تقديراتها عن الوفيات الناجمة عن الحرب في العراق (Spagat and Dougherty 2010). ونجد هذه الجانب من عدم الموثوقية أيضاً في بياناتها عن سورية. ورغم ما بدا أنَّه دعم مبالغ فيه لجماعات مرتبطة بتنظيم القاعدة، لا يزال استطلاع 2015، يُظهر الرئيس الأسد على أنه القوة التي ينظر إليها بتقبُّلٍ أكبر، رغم منحه نسبة 47٪ فقط (الجدول3 :ORB 2015)، وهذا رقم أقل بكثير من أي استطلاع آخر للرأي (سوري أو غير سوري) في خلال الأزمة. ومن المثير للاهتمام، بحسب استطلاع 2015، الذي أجرته أو أر بي، أن 82% من السوريين يعتقدون أن الولايات المتحدة هي وراء ظهور "داعش" (الجدول:20 :ORB 2015). ولكن بالنظر إلى غيره من الحالات الشّاذة من المسح ليس من الممكن الاعتماد على هذا الرقم أيضاً.

ويبدو واضحاً أن استطلاعات أو أر بي، من خلال عمليات الاختيار التي تكون في الغالب غير مُعلنة، أعطت صوتاً مبالغاً فيه لمجموعات معيّنة من الناس

المناهضين للحكومة. وهذا ربما ليس مستغرباً من شركة بريطانية، وربما يساعد على تعزيز المناقشة العامة عن سورية في الدول الغربية، بيدَ أنه لا يساعد الخارج على فهم حقيقة ما يجري في سورية.

ولئن كان مهماً تعرُّف مصادر التحيُّز، فإنَّ تكرار القَصَص المناهضة لسورية المستندة إلى مصادر منحازة، لا يجب أن ينظر إليها على أنها مسألة تحيّز بسيط. فنحن نعلم من الأدلة الموضوعيّة أن الادعاءات السابقة عن المجازر، كانت ملفّقة من قبل الجماعات الطائفية، ثم دعمت واشنطن هذه الادعاءات نفسها. وقد تم توثيق ذلك فيما يتعلّق بالقتل الجماعي في الحولة، وعقرب، وداريا، والغوطة الشرقية (انظرْ: الفصلين السابع والثامن). فبعد أن توضّحت هذه الفضائح، لم تكن هناك اعتذارات أو اعترافات من قبل البيت الأبيض أو وسائل الإعلام الغربية التي نشرت القصص الأولى. هذا النمط من السلوك يعني أن الادعاءات الكاذبة الأخرى من المحتمل حدوثها. وفي حين أن الدارسين الذين يتوخون الحقيقة في الأزمة يجب أن يعودوا إلى الدراسة المستندة إلى مبدأ "الادعاءات والادعاءات المضادة"، لكن يجب علينا أن ندرك أيضاً وجود ماكينة دعائية تعمل على نطاقٍ هائل، ومن المرجّح أن تحافظ على الاعتماد على الدعاية المُختلقة في المستقبل المنظور.

المراجع:

- Al Jazeera (2011) 'Clinton says Assad has 'lost legitimacy', 12 July, online: http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2011/07/20117120403037 9613.html

- Anderson, Tim (2015a) 'The Houla Massacre Revisited: 'Official Truth' in the Dirty War on Syria', Global Research, 24 March, online: http://www.globalresearch.ca/houla-revisited-official-truth-in-the-dirty-war-on-syria/5438441

- Anderson, Tim (2015b) 'Chemical Fabrications: East Ghouta and Syria's Missing Children', Global Research, 12 April, online: http://www.globalresearch.ca/chemical-fabrications-east-ghouta-and-syrias-missing-children/5442334

- AP (2015) 'Syrian army barrel-bomb attacks kill at least 70 in Aleppo, activists say', The Guardian, Associated Press, 31 May, online: http://www.theguardian.com/world/2015/may/30/syrian-army-air-strikes-aleppo-islamic-state

- Cartalucci, Tony (2014) 'US Feigns "Horror" Over Cooked-Up Report on Syrian War They Engineered', Land Destroyer Report, January, online: http://landdestroyer.blogspot.co.uk/2014/01/us-feigns-horror-over-cooked-up-report.html

- Damascus Declaration (2005) 'The Damascus Declaration for Democratic National Change', English version in Joshua Landis blog 'Syria Comment', 1 November, online: http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-1/syriablog/2005/11/damascus-declaration-in-english.htm

- Democracy Now (2005) 'Pentagon Reverses Position and Admits U.S. Troops Used White Phosphorus Against Iraqis in Fallujah', 17 November, online: http://www.democracynow.org/2005/11/17/pentagon_reverses_positio n_and_admits_u

- Eretz Zen (2014) 'US Key Man in Syria Worked Closely with ISIL and Jabhat al-Nusra', Youtube, 17 August, online: https://www.youtube.com/watch?v=piN_MNSis1E

- Gladstone, Rick and C.J Chivers (2013) ‘Forensic Details in U.N. Report Point to Assad’s Use of Gas’, New York Times, 16 September, online: http://www.nytimes.com/2013/09/17/world/europe/syria-united-nations.html?_r=0&adxnnl=1&adxnnlx=1387381766-55AjTxhuELAeFSCuukA7Og

- Hersh, Seymour (2014) ‘The Red Line and the Rat Line’, London Review of Books, 17 April, online: http://www.lrb.co.uk/v36/n08/seymour-m-hersh/the-red-line-and-the-rat-line

- HRW (2013) ‘Attacks on Ghouta: Analysis of Alleged Use of Chemical Weapons in Syria’, Human Rights Watch, Washington, 10 September, online: http://www.hrw.org/reports/2013/09/10/attacks-ghouta

- HRW (2014) ‘Syrian Government Bombardment of Opposition-held Districts in Aleppo’, Human Rights Watch, 30 July, online: https://www.hrw.org/video-photos/image/2014/07/30/syrian-government-bombardment-opposition-held-districts-aleppo

- Idea International (2015) ‘Voter turnout data for Syrian Arab Republic’, online: http://www.idea.int/vt/countryview.cfm?id=210#pres

- Interventions Watch (2015) ‘CEO of Human Rights Watch misattributes video of Gaza destruction’, 9 May, online: https://interventionswatch.wordpress.com/2015/05/09/ceo-of-human-rights-watch-misattributes-video-of-gaza-destruction/

- Jalabi, Raya (2015) ‘Images of Syrian torture on display at UN: ‘It is imperative we do not look away’, The Guardian, 12 March, online: http://www.theguardian.com/world/2015/mar/11/images-syrian-torture-shock-new-yorkers-united-nations

- Knightley, Phillip (2001) ‘The disinformation campaign’, The Guardian, 4 October, online: http://www.theguardian.com/education/2001/oct/04/socialsciences.highereducation

- Lloyd, Richard and Theodore A. Postol (2014) ‘Possible Implications of Faulty US Technical Intelligence in the Damascus Nerve Agent Attack of August 21, 2013’, MIT, January 14, Washington DC, online: https://www.documentcloud.org/documents/1006045-possible-implications-of-bad-intelligence.html#storylink=relast

- Masi, Alessandria (2015) ‘The Syrian Regime’s Barrel Bombs Kill More Civilians than ISIS and Al Qaeda Combined’, IBTimes, 18 August, online: http://www.ibtimes.com/syrian-regimes-barrel-bombs-kill-more-civilians-isis-al-qaeda-combined-2057392

- Mint Press (2015) ‘US Propaganda War in Syria: Report Ties White Helmets to Foreign Intervention’, 11 September, online: http://www.mintpressnews.com/us-propaganda-war-in-syria-report-ties-white-helmets-to-foreign-intervention/209435/

- Mizah, Michel (2015) ‘A Russian-Syrian volunteer talks about his experience in the "Shabiha" pro-Assad paramilitary’, interviewed by Arthur Avakov, Live Leak, 15 September, online: http://www.liveleak.com/view?i=992_1442362752

- MOA (2015) ‘Human Rights Watch Again Accuses Syria Of "Barrel Bomb" Damage Done By Others’, Moon of Alabama, 9 May, online: http://www.moonofalabama.org/2015/05/human-rights-watch-again-accuses-syria-of-barrel-bomb-damage-done-by-others.html

- Mosendz, Poll (2015) ‘The Full Transcript of President Obama’s Speech at the United Nations General Assembly’, Newsweek, 28 September, online: http://www.newsweek.com/read-full-transcript-president-obamas-speech-united-nations-general-assembly-377504

- MMM (2014) ‘Fail Caesar: Exposing the Anti-Syria Photo Propaganda’, Monitor on massacre marketing’, 8 November, online: http://libyancivilwar.blogspot.com.au/2014/11/fail-caesar-exposing-anti-syria-photo.html

- Murphy, Dan (2014) ‘Syria ‘smoking gun’ report warrants a careful read’, Christian Science Monitor, 21 January, online: http://www.csmonitor.com/World/Security-Watch/Backchannels/2014/0121/Syria-smoking-gun-report-warrants-a-careful-read

- ORB (2014) ‘Three in Five Syrians Support International Military Involvement’, ORB International, July, online: http://www.opinion.co.uk/article.php?s=three-in-five-syrians-support-international-military-involvement

- ORB (2015) ‘ORB/IIACSS poll in Syria and Iraq gives rare insight into public opinion’, ORB International, July, online: http://www.opinion.co.uk/article.php?s=orbiiacss-poll-in-iraq-and-syria-gives-rare-insight-into-public-opinion

- O’Toole, Gavin (2014) ‘Syria regime’s ‘industrial scale killing’, Al Jazeera, 22 January, online; http://www.aljazeera.com/indepth/features/2014/01/syria-regime-industrial-scale-killing-2014122102439158738.html

- Parry, Robert (2015) ‘Obama’s ludicrous ‘barrel bomb’ theme’, Consortium News, 30 September, online: https://consortiumnews.com/2015/09/30/obamas-ludicrous-barrel-bomb-theme/

- Pollard, Ruth (2015) ‘Assad regime’s barrel bomb attacks caused many civilian deaths in Syria: UN Envoy’, Sydney Morning Herald, 23 July, [the headline suggests the UN envoy is the source of the ‘barrel bomb’ kills civilians story, in fact the SOHR is the source] online: http://www.smh.com.au/world/assad-regimes-barrel-bomb-attacks-caused-many-civilian-deaths-in-syria-un-envoy-20150722-giihvw.html

- Reuters (2015) ‘Over 1,000 Syrian civilians evacuated from near Damascus’, Youtube, 17 January, online: https://www.youtube.com/watch?v=H-DstETWlTY

- Reuters (2015b) ‘Air strikes near Damascus kill at least 80 people: activists’, 16 August, online: http://www.reuters.com/article/2015/08/16/us-mideast-crisis-syria-idUSKCN0QL0E320150816

- Rosen, Nir (2012) ‘Q&A: Nir Rosen on Syria’s armed opposition’, Al Jazeera, 13 Feb, online: http://www.aljazeera.com/indepth/features/2012/02/201221315020166516.html

- SANA (2011) ‘Mother Agnes Merriam al-Saleeb: Nameless Gunmen Possessing Advanced Firearms Terrorize Citizens and Security in Syria’, Syrian Free Press Network, 19 November, online: http://syrianfreepress.wordpress.com/2011/11/19/mother-agnes-merriam-al-saleeb-nameless-gunmen-possessing-advanced-firearms-terrorize-citizens-and-security-in-syria/

- Smith-Spark, Laura (2014) ‘Syria: Photos charging mass torture by regime ‘fake’’, CNN, 23 January, online: http://edition.cnn.com/2014/01/22/world/meast/syria-torture-photos/

- SN4HR (2015) Syrian Network for Human Rights, online: http://sn4hr.org/

- Sterling, Rick (2015a) ‘Humanitarians for war on Syria’, Counter Punch, 31 March, online: http://www.counterpunch.org/2015/03/31/humanitarians-for-war-on-syria/

- Sterling, Rick (2015b) ‘Eight Problems with Amnesty’s Report on Aleppo Syria’, Dissident Voice, 14 May, online: http://dissidentvoice.org/2015/05/eight-problems-with-amnestys-report-on-aleppo-syria/

- SOHR (2015) ‘Syrian Observatory for Human Rights’, online: http://www.syriahr.com/en/

- Spagat, Michael and Josh Dougherty (2010) ‘Conflict Deaths in Iraq: A Methodological Critique of the ORB Survey Estimate’, Survey Research Methods, Vol 4 No 1, 3-15

- VDC (2015) ‘Violation Documentation Center in Syria’, online: https://www.vdc-sy.info/index.php/en/

درعا 2011: تمردٌ إسلامويٌّ آخر



صورة مُلتقطة لأسلحة مُقدَّمة من السعودية استولت عليها قوات الأمن السوريّة في المسجد العُمريّ في درعا، آذار/مارس 2011

مصدر الصورة: سانا

«لقد كانت حركةُ الاحتجاجِ في سوريّة بأغلبيتها السَّاحقة سلميّةً حتى أيلول/سبتمبر 2011».

هيومن رايتس ووتش (HRW)، آذار/مارس 2012، واشنطن

«رأيتُ من بدايةِ الأحداث محتجين مسلّحين في تلك المظاهرات ... وكانوا هم أول من أطلق النار على الشَّرطة. وكان يأتي تصدّي قوات الأمن ـ في كثير من الأحيان ـ ردّاً على العنفِ الوحشيِّ من قِبَلِ المتمردين المسلّحين».

الراحل المغدور الأب فرانس فان دير لوت(*) (Father Frans Van der Lugt)، كانون الأول/يناير 2012، حمص ـ سورية.

«لا يُمكن قبول الزعم بأنَّ المعارضة المناهضة للحكومة السوريّة لم تنتقل من الحالة السلميّة إلى العمل المسلح، إلا في الآونة الأخيرة، لأنَّ هذا الزعمَ نفسه لا يعدو أن يكون كذباً محضاً. إذْ استمرَّ قتلُ الجنود والشَّرطة والمدنيين، وغالباً ما كان يقع ذلك في أكثر الظروف وحشيّةً، وقد كان ذلك الأمر منذ البداية تقريباً».

البروفيسور جيرمي سولت (Professor Jeremy Salt)، تشرين الأول/أكتوبر 2011، أنقرة ـ تركيا.

كانت هناك رواية مزدوجة فيما يخصُّ الصِّراع في سوريّة، مع بداية أعمال العُنف المسلّح التي اندلعت في عام 2011، في مدينة درعا الحدودية في الجنوب من سورية. تأتي الرواية الأولى من الشهود المستقلين في سورية –مثل: الراحل الأب فرانس فان دير لوت في حمص ـ إذ يقولون: إنَّ مسلحين تسلّلوا إلى المظاهرات التي خرجت في البداية، للمطالبة بالإصلاح السياسيّ، وأطلقوا النار على كلٍّ من الشَّرطة والمدنيين. وأكّدوا أنَّ هذا العنف قد جاء من الإسلامويين الطائفيين؛ أما الرواية الثانية، فمصدرها الجماعات الإسلاموية ("المتمردون") وداعموها الغربيون. حيث يزعمون أنه كان هناك عنفٌ "عشوائيٌّ" من قِبَلِ قواتِ الأمن السورية لفضّ التجمعات السياسية، وأنَّ "المتمردين" ظهروا من حركة الإصلاح السياسية العلمانية.

(*) فرانس فان دير لوت: راهب هولندي (1938 ـ 2014) استقر في سورية منذ عام 1976، حيث عمل في أديرة مختلفة فيها، اغتيل على أيدي مسلحين في السابع من نيسان/ أبريل 2014 في الدير الذي كان يقيم فيه في حمص القديمة، (المترجمة).

بيدَ أنَّ دراسةً متأنيّةً للأدلة الموضوعيّة، تُظهر أن رواية "المتمردين" المدعومين من واشنطن رغم انتشارها على نطاق واسع، كانت جزءاً من استراتيجية، لنزع الشَّرعية عن الحكومة السورية، بهدفً التحريض على "تغيير النظام". ويُعَدُّ ضرورياً لفهم هذا الأمر ملاحظة أنه قبل التمرد المسلّح في آذار/مارس، 2011، كانت هناك شحنات أسلحة قادمة، من المملكة العربية السعودية، للإسلامويين المتطرفين الذين كانوا في المسجد العمريِّ. ويُعَدُّ مُفيداً أيضاً في هذا الاتجاه مراجعة العصيان المسلّح الذي قام به الإخوان المسلمون في وقت سابق، في حماة عام 1982 ذلك نظراً إلى القصص المتوازية التي ظهرت حول كل من التمَرُّدين.

يُقدّم لنا كلٌّ من استخبارات وزارة الدفاع الأمريكية (DIA 1982) والكاتب البريطاني الراحل باتريك سيل (Patrick Seale) (1988) رواياتٍ مستقلةً عمّا حدث في حماة؛ فبعد سنوات من الهجمات الطائفية العنيفة من قبل الإخوان المسلمين في سورية، وبحلول منتصف عام 1980، كسر الرئيس حافظ الأسد "ظهر" تمرّدِهم الطائفيِّ، الذي كان يهدف إلى فرض دولة سلفيَّة إسلامية. وقد فُضحت إحدى مؤامرات الانقلاب الأخيرة وشعر الإخوان بأنهم «مدفوعون لبَدْء انتفاضةٍ في معقلهم في حماة». ويصفُ سيل بداية العنف على النحو التالي:

«كانت وحدةٌ من الجيش تقوم بتمشيط المدينة القديمة عند الساعة الثانية من ليلة 2 ـ 3 شباط/ فبراير 1982. فسقطت في كمين. وربما قتلَ القناصةُ الذين كانوا يعتلون أسطح الأبنية عدداً من الجنود... أعطى زعيم الإخوان أبو بكر [عمر جواد] الأمر لانتفاضة شعبية، فتحرّك مئات من المقاتلين الإسلامويين. ومع حلول الصباح ذُبح حوالي سبعين رجلاً من القيادات البعثية، وأعلن المقاتلون المنتصرون (في الاشتباك) المدينةَ "محرَّرةً"» (Seale1988:332).

غير أنَّ الجيش ردَّ بقوة ضخمة مؤلفة من حوالي اثني عشر ألف مقاتل. واحتدمت المعركة لمدة ثلاثة أسابيع. لقد كانت (حرباً أهلية)(*) مدعومةً من الخارج، وكان هناك بعض الانشقاقات في الجيش. يتابع سيل قائلا:

(*) لم تكن عملية إعادة الأمان التي قام بها الجيش العربي السوري في أعقاب أحداث حماة حرباً أهليّة على الإطلاق، بل مواجهة حقيقية مع عصابات مسلحة تُغذّيها قوى أجنبية، (المترجمة).

«وبينما كانت الكفة ترجح ببطء لصالح الحكومة، انكفأت العصابات إلى الأحياء القديمة. وبعد القصف العنيف، تحركت القوات الخاصة والمسلحون غير النظاميين مدعومين بالدبابات وأُلحق الأذى بعدد كبير من المدنيين بفعل المعارك، في مدّة التطهير الطويلة، كما تعرّضت مناطق بأكملها لأضرار فادحة» (Seale 1988:333).

وزعم تقرير للمخابرات الأمريكية ـ بعد مُضي شهرين ـ الآتي: «ربما يصلُ إجماليُّ عددُ الضحايا في حادثة حماة إلى قرابة الألفين، وهذا العدد يشمل ما يقدر بثلاثمئة إلى أربعمئة من أعضاء النخبة في "الجهاز السري" للإخوان المسلمين (DIA 1982:7). ويدرك سيل أنَّ القوات الحكومية تعرّضت أيضاً لخسائر ليست قليلة. كما يشير إلى أنّه قد «قضى عدد كبير من الناس في أثناء مطاردة الجيش للمسلحين... أما العدد الإجمالي لضحايا أحداث حماه، فيقدره المتعاطفون مع الحكومة بثلاثة آلاف، وأما معارضوها فيقولون: إنَّ العدد كان عشرين ألفاً، ولكن مهما يكن من شيء، فإنَّ العدد الأقرب للحقيقة هو عدد بين خمسة آلاف وعشرة آلاف». ويضيف: «كانت العصابة مجموعة من المقاتلين الأشداء». يتلقون التمويل من الخارج ... [و] كان معهم ما لا يقل عن خمسة عشر ألف رشاش» (Seale 1988:335). وقد ضخّمت قصص الإخوان المسلمين اللاحقة عدد الضحايا، ليصل إلى أربعين ألفاً من المدنيين، وبالتالي، حاولوا إخفاء عصيانهم للدولة والمجازر الطائفيّة التي ارتكبوها عبر زعمهم أنَّ القيادة السوريّة قد نفّذت «مذبحة بحق المدنيين» (انظر على سبيل المثال Nassar 2014).

وقد ألقى الرئيس السوري السابق حافظ الأسد باللائمة ـ إلى حدٍ كبير ـ في تمرد حماة على المؤامرة الأجنبية. وهنا يلاحظ سيل أن (الرئيس) حافظ لم يكن «مرتاباً دون تأكّد»، ذلك بدلالة الاستيلاء على العديد من الأسلحة الأمريكية التي كانت بحوزة المتمردين، ومجيء الدعم الخارجي بوساطة عدد من المتعاونين: الولايات المتحدة، الملك الحسين في الأردن، والميليشيات المسيحية اللبنانية ("حرّاس الأرز" المنحازة لإسرائيل) وصدام حسين في العراق (Seale 1988:336-337).

يساعدنا التمرد الذي حدث في حماه على فهم العنف في درعا، لأنه مرة أخرى في عام 2011، رأينا الإسلامويين المسلّحين الذين يقنصون من الأسطح الشَّرطة والمسؤولين الحكوميين، مُسْتَدْرِجينَ القوات المسلحة، ثم كانوا بالمقابل يصيحون: «مذبحة بحق المدنيين»، عندما يتعرضون مع أعوانهم إلى هجومٍ من الجيش. ورغم أن الولايات المتحدة لعبت دوراً هاماً، من خلال حلفائها، في تمرد حماة، لكن عندما انتهى كل شيء، لاحظت المخابرات الأمريكية باقتضاب أن: «السوريين براغماتيون ولا يريدون حكومة إخوان مسلمين» (DIA 1982:vii).

في حالة درعا، والهجمات التي امتدّت إلى حمص والمناطق المحيطة بها في نيسان/أبريل 2011، كان الهدف المُعلن بوضوح مرة أخرى هو إسقاط "النظام" العَلماني أو النظام "العلويّ الكافر"(*). وكان خطُّ المواجهة الأماميُّ من المتعاونين مع الولايات المتحدة يضم كلاً من المملكة العربية السعودية وقطر، ومن ثَمَّ تركيا. وقد أصدر المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين السورية، محمد رياض الشقفة، بياناً في 28 آذار/مارس لم يدع مجالاً للشك في أن هدف الجماعة كان طائفيّاً.

ونجد في بيان الشقفه تأكيده أنَّ "عدونا" هو "النظام العلماني" وعلى أعضاء جماعة الإخوان المسلمين «أن يتأكّدوا من أن الثورة سوف تكون إسلامية خالصة، حتى لا يكون هناك طائفة أخرى لها نصيبٌ من الفضل بعد نجاحها» (Al-Shaqfa 2011).

وعندما قلّل شيخو من شأن الدور الأول لجماعة الإخوان، عاد وأكّد أنها «استمرت في تثقيل وزنها الفعليّ على أرض الواقع في خلال الانتفاضة ... [بسبب] الدعم التركي القطري»، والقدرة العامة التنظيمية (Sheikho 2013). وظهر مع الوقت "المجلس العسكري الأعلى للجيش السوري الحر" في عام 2012 (وهو قناة لتمرير الأسلحة أكثر من كونه قيادة عسكريّة)، وقد قيل: إن جماعة الإخوان المسلمين تهيمن على ثلثيه (Draitser 2012). ويجدر بالذكر

(*) يُشير المؤلِّف هنا إلى الشعارات الطائفيّة الحاقدة التي تستخدمها الجماعات الإرهابيّة المسلحة، (المترجمة).

انضمام المجموعات السلفية الإسلاموية الأجنبية الأخرى بسرعة لهذه "الثورة السورية". وقد أشار تقرير للمخابرات الأمريكية في هذا الاتجاه في آب/ أغسطس 2012، ـ وكان على النقيض من تصريحات واشنطن العلنية عن "الثوار المعتدلين" ـ إلى الآتي:

«إن السلفيين والإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة في العراق (AQI)، والذي أصبح في وقت لاحق ["داعش"] يؤلفون جميعاً القُوى الرئيسة التي تقف وراء التمرد في سورية ...حيث دعم تنظيم القاعدة في العراق المعارضة السورية من البداية، أيديولوجيّاً وعبر وسائل الإعلام على حدّ سواء» (DIA 2012).

كان هناك استياء شعبيٌّ في سورية، في شباط/ فبراير 2011، وكان قد تأثر إلى حدٍّ ما بالأحداث التي وقعت في كلٍّ من مصر وتونس. وقامت مظاهرات مناهضة للحكومة وأخرى مؤّيدة لها، حيث كانت هناك حركة إصلاح سياسيّ حقيقيّة غاضبة من الفساد وانفراد حزب البعث الحاكم بالسلطة. فقد أشار تقرير في عام 2005 إلى «مجموعة من حركات الإصلاح التي تتشكل ببطء وفي طريقها للظهور» (Ghadry 2005)، وفي الواقع أنَّ "وجوهاً كثيرة" من المعارضة السوريّة التي هي في نسبتها الأعم غير إسلامويّة، كانت ناقمة -منذ ذلك الوقت تقريباً- على السُّلطة (Sayyid Rasas 2013)، وسوف نؤجل الحديث عن مجموعات المعارضة المُشار إليها هنا إلى موضع آخر من هذا الكتاب (انظرْ: الفصل الرابع). لكن جزءاً واحداً فقط من تلك المعارضة، أعني: الإخوان المسلمين وغيرهم من السلفيين، كانت له صلة بالعنف الذي اندلع في درعا. والحقيقة أنَّه قد قوبلت المظاهرات الكبيرة المناهضة للحكومة بمظاهرات ضخمة مؤيدة لها. والجدير ذكره في هذا السياق أنّه في أوائل شهر آذار/مارس ألقي القبض على بعض المراهقين في درعا، بسبب شعار كتبوه على الجدران استلهموه من شمال أفريقيا(*) "الشعب يريد إسقاط النظام". وأفيد أنهم تعرضوا للتعذيب من قبل

(*) يقصد المؤلف الإشارة إلى تونس ومصر وليبيا حيث بدأت المظاهرات التي رفعت شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" من هناك، (المترجمة).

الشرطة المحلية، ثم تدخل الرئيس بشار الأسد، وأقيل المحافظ من منصبه وأطلق سراح المراهقين (Abouzeid 2011).

لكن التمرّد الإسلامويّ كان في طريقه إلى التفاقم، متخفياً بلبوس مظاهراتٍ في الشارع. وفي 11 آذار/مارس، قبل عدة أيام من اندلاع العنف في درعا، كانت هناك تقارير تفيد بأن القوات السورية قد صادرت «شحنة كبيرة من الأسلحة والمتفجرات ومناظير للرؤية الليلية ... في شاحنة قادمة من العراق». وأوقفت الشاحنة عند معبر التنف الجنوبي، على مقربة من الأردن.

وفي سياقٍ متصل، قالت وكالة الأنباء الحكومية السورية (سانا): إنَّ الهدف من هذه الأسلحة «استخدامها في أعمال تؤثر في الأمن الداخلي في سورية، وتنشر الاضطراب والفوضى». وأظهرت الصور لقطات لـ«العشرات من القنابل اليدوية والمسدسات وكذلك البنادق وأحزمة الذخيرة». وقال سائق هذه الشاحنة: إن الأسلحة تم تحميلها في بغداد، وقد تم دفع 5000 دولار أمريكي لتسليمها إلى سورية (Reuters 2011). ورغم هذا التصدي لعمليات التهريب، وصلت الأسلحة إلى درعا، وهي مدينة حدودية فيها حوالي مئة وخمسين ألف نسمة(*). ويُلاحظ أنّه عند هذه النقطة تزداد الهُوّة بين روايات "المتمردين ـ الغربيين" والروايات المستقلة، على نحوٍ دراماتيكي كبير.

أجمعَ الإعلامُ الغربيُّ على أن المحتجين أحرقوا وحطّموا المكاتب الحكومية، ثم حدث أن «فتحت قوات الأمن المحلية النار على المتظاهرين، ما أسفر عن مقتل عدد منهم» (Abouzeid 2011). بعد ذلك، قام "المحتجون" بمظاهرات أمام المسجد العُمَريِّ، ولكن في المقابل تعرّضوا للهجوم.

أمّا من جهتها فقالت الحكومة السورية: إنه كانت هناك هجمات على قوات الأمن لم يسبقها حدوث استفزازات، ما أسفر عن مقتل عناصر من الشَّرطة ومدنيين، إلى جانب حرق المكاتب الحكومية. لقد كان هناك تأييد خارجي لهذه

(*) كان الرقم أكبر من ذلك، ربما يشير المؤلف للمحافظة، أي درعا المدينة دون ريفها، (المترجمة).

الرواية. وفي حين ألقت صحيفة الدايلي ميـل البريطانيـة (Daily Mail) (2011) في عنوانها الرئيس اللوم على قوات الأمن بسبب قتـل "المتظـاهرين"، أظهـرت الصحيفة صور أسلحة، و بنـادقAK47 (كلاشـينكوف)، بالإضـافة إلى قنابـل يدوية، كانت قوات الأمن استعادتها بعـد اقتحـام المـسجد العُمـريّ. وأشـارت الصحيفة إلى تقارير تفيد بأن "عصابة مسلحة" فتحت النار على سيارة إسعاف، ما أسفر عن مقتل «طبيب ومُسْعِفٍ وشُرَطِيٍّ». ونشرت القنوات الإعلامية في البلدان المجاورة خبرَ مقتل الشُّرَطِيِّ السوريِّ، في 17 ـ 18 آذار /مارس.

ولاحظَ تقريرٌ إخباريٌّ لبنانيٌّ أن «سبعة مـن رجـال الـشرطة قتلـوا في أثنـاء اشتباكات بين قـوات الأمـن والمتظـاهرين في سـورية» (Yalibnan 2011)، في حين ذكر تقريرٌ إخباري إسرائيلي: إنَّ «سبعة من ضباط الشَّرطة وأربعة على الأقل من المتظاهرين في سورية قتلوا ... وأحرقت مقـار حـزب البعـث والمحكمـة» (Queenan 2011). حيـث اسـتهدف قنّاصـون رجـالَ الـشَّرطة مـن علـى أسطح الأبنية.

وكانت الحكومة الـسوريّة ـ حـتى في هـذه الظـروف ـ تحـثُّ علـى ضـبط النفس، وحاولت الاستجابة لحركة الإصلاح السياسيِّ، فقالت مستشارة الرئيس الأسد، الدكتورة بثينة شعبان، في مؤتمر صحفيٍّ: إن الرئيس قد أمر بألّا «تطلـق الذخيرة الحيَّة حتى لو قتل عناصر من الشرطة أو قوات الأمن أو موظفي الدولة». وما كان من (الرئيس) الأسد أيضاً، إلا أن عَرَضَ معالجـة المطالـب الـسياسية، مثل: تسجيل الأحزاب السياسية، وإلغاء قوانين الطوارئ، والسماح بقَـدْرٍ أكـبر من الحريّات الإعلامية (al-Khalidi 2011). لكن لا شيء مـن ذلـك ـ علـى مـا يبدو ـ كان يهم أو يردع الإسلامويين.

لاحظَ العديدُ من التقارير، بما في ذلك تقارير الفيديو، وجود قنّاصة علـى الأسطح يطلقون النار على الحشود والشرطة، في أثنـاء تـشييع جنـازات القتلـى الذين قضوا. وقيـل: إنـه لم يكـن «واضـحاً مَـنْ الـذي يُطلـق النـار علـى مَـنْ» (Aljazeera 2011a)، حيث كانت «مجموعـة مـسلحة مجهولـة تعتلـي أسـطح

المنازل، لتطلق النار على المتظاهرين وقوات الأمن» (Maktabi 2011). لكن قناة الجزيرة (2011b) التي يملكها النظام الملكي (الأميري) القطري، سَرْعان ما اقترحت بقوة أن القنّاصة كانوا من الموالين للحكومة. وقالت القناة القطرية «أرسل الرئيس السوري بشار الأسد الآلاف من الجنود السوريين مع أسلحتهم الثقيلة إلى درعا من أجل عملية لا يريد النظام لأي أحد في العالم أن يراها». ولكن فرضية قناة الجزيرة أن قنّاصة موالين للحكومة السورية كانوا يقتلون «الجنود والمتظاهرين على حدٍّ سواء» لم تكن منطقيّة، بل اعتباطيَّة وخارجة على السياق. إذ جاءت القوات المسلحة إلى درعا على وجه التحديد، لأن الشَّرطة تعرّضت لإطلاق النار وقتلِ عددٍ من أفرادها.

لقد سلّحت المملكة العربيَّة السعوديَّة، وهي حليف إقليمي رئيس للولايات المتحدة، الطوائف السلفية "السنية" للتحرك ضد الحكومة العلمانية. فقد أكّد المسؤول السعودي أنور عشقي في وقت لاحق لتلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية (البي بي سي) أن بلاده قد أرسلت أسلحة إلى المسجد العُمَريِّ في درعا (Truth Syria 2012). ومن منفاه في المملكة العربية السعودية، دعا الشيخ السّلفي عدنان العرعور إلى حربٍ مقدّسة ضد المسلمين العلويين الليبراليين، الذين قيل: إنهم يسيطرون على الحكومة السورية: «بإذن الله سنطحن [العلويين] في طاحونة اللحم ونطعم لحمهم للكلاب»(*) (MEMRITV 2011). فقد كان هدف السلفيين تأسيس دولة دينية أو خلافة. ثم انتشر شعار دمويٌّ إباديٌّ هو«المسيحيون إلى بيروت، والعلويين إلى التابوت» على نطاق واسع، وهذه حقيقة نقلتها وسائل الإعلام في أمريكا في وقت مبكر من أيار/مايو 2011 (على سبيل المثال Blanford 2011). وبالفعل اشتغل الإسلامويون من "لواء الفاروق" التابع للجيش السوريّ الحرّ على تنفيذ هذه التهديدات إلى حدٍّ كبيرٍ (Crimi 2012). وقد لاحظ في هذا الاتجاه المحلل الكندي ميشيل تشوسودوفسكي (Michel Chossudovsky) (2011): «أنَّ نشر القوات المسلحة

(*) يحاول المؤلِّف هنا أن يدل على الشعارات الطائفيّة البغيضة التي كان يستخدمها المحرضون على إشعال نار الفتنة الطائفية في سورية بدعم من السعودية، (المترجمة).

بما في ذلك الدبابات في درعا [كان] موجَّهاً ضد تمرد مسلّح منظم، الذي كان نشطاً في المدينة الحدوديّة منذ 17 ـ 18 آذار/مارس».

بعد تلك الأيام الأولى التي شهدت عنفاً في درعا، استمرّ قتل قوات الأمن السورية، لكن تم التعتيم على تلك الأخبار إلى حدٍّ كبير خارج سورية. ومع ذلك، كتبت المحللة المستقلة شارمين نارواني (Sharmine Narwani)(*) عن المستوى الذي وصل إليه هذا القتل نفسه في أوائل عام 2012، ومرَّة أخرى في منتصف 2014.

والجدير ذكره في هذا المنحى أنه قد وقع جنود سوريون في كمين قرب درعا أدّى إلى مذبحة بحقهم، كان ذلك في أواخر آذار/ مارس أو أوائل نيسان/ أبريل، على طريق الوادي بين درعا المحطة ودرعا البلد، وتعرّضت شاحنات القافلة لإطلاق نار. تراوحت التقديرات حول ضحايا الجنود، من مصادر حكومية ومعارضة، بين ثمانية عشر إلى ستين جنديّاً. وقال أحد سكان درعا: لم تُنشر الأخبار عن عمليات القتل هذه، لأنَّه: «في ذلك الوقت، لم تكن الحكومة تريد أن تظهر أنها ضعيفة، ولا المعارضة تريد أن تظهر أنها مسلحة». يسجل المدّون السوري المناهض للحكومة، نزار نيّوف، هذه المجزرة على أنها حدثت في الأسبوع الأخير من شهر آذار/مارس. ويقول كاتب آخر مناهض للحكومة، وهو رامي عبد الرحمن (من مقره في إنكلترا، ويدعو نفسه 'المرصد السوري لحقوق الإنسان'):

«كان ذلك في الأول من نيسان/ أبريل حيث قتل حوالي ثمانية عشر أو تسعة عشر عنصراً من قوات الأمن ...» (Narwani 2014). كما أكّد نائب وزير الخارجية السوريّ فيصل المقداد، وهو نفسه أحد سكان درعا، أن: «الحكومة صمتت عن هذه الحادثة في محاولة لعدم الاستعداء أو إثارة العواطف، ولتهدئة الأمور حتى لا تشجّع أيّ نزوعٍ نحو تأجيجِ العواطف قد تؤدي إلى تصعيد الوضع» (Narwani 2014).

(*) محللة ومعلقة سياسية مختصة بشؤون الشرق الأوسط، أستاذ مساعد سابقاً في كلية سانت انتوني في جامعة أكسفورد، (المترجمة).

لكن، ترتبت خطورة معينة على الصمت عن عمليات القتل التي قام بها المسلحون المناهضون للحكومة، إذ بسبب ذلك عَدّت وسائل الإعلام الغربية أن الضحايا الذين كانوا يسقطون هم: (أ) ضحايا سقطوا بسبب الجيش (ب) أنهم من المدنيين. وكان من جرّاء ذلك ـ على مدى ستة أشهر ـ عند ذِكْرِ عدد القتلى في وسائل الإعلام الدوليّة، أن يُطرحوا على نحوٍ مقنعٍ عموماً بوصفهم جميعاً من "المحتجين" الذين قضوا على يد الجيش السوري. فعلى سبيل المثال، ذكر تقرير لرويترز في يوم الرابع والعشرين من آذار/مارس أن المستشفى الرئيس في درعا استقبل «جثث سبع وثلاثين شخصاً على الأقل من المتظاهرين كانوا قد قتلوا يوم الأربعاء من الشهر نفسه» (Khalidi 2011). لاحظْ هنا أنَّ جميع القتلى قد أصبحوا "متظاهرين"، رغم التقارير السابقة عن مقتل عدد من أفراد الشَّرطة والعاملين في مجال الصحة.

كما قُتل تسعة عشر جندياً آخرون في الخامس والعشرين من نيسان/ أبريل، أيضاً بالقرب من درعا. حصلت نارواني على أسمائهم وتفاصيل عنهم من وزارة الدفاع السورية، وتم تأكيد هذه التفاصيل من وثيقة أخرى من مصدر غير حكومي. وفي خلال نيسان/ أبريل 2011 أحصت نارواني عدد الجنود السوريين الذين قتلوا على «يد رماة مجهولين في مناطق مختلفة في جميع أنحاء سورية» فبلغ ثمانية وثمانين جنديّاً (Narwani 2014). وتابعت في دحض الادعاءات عن أن الجنود الذين قتلوا كانوا "منشقين"، أي سقطوا برصاصِ الجيشِ السوريِّ لرفضهم إطلاق النار على المدنيين. لكن نجد زعماً أطلقته هيومن رايتس ووتش، عبر إحالتها إلى مقابلات مع خمسين "ناشطاً" لم تكشف عن أسمائهم، بأنَّ الجنود الذين قتلوا في ذلك الوقت كانوا جميعهم "منشقين"، وقتلوا على يد الجيش (HRW 2011b). لكن جنازات تشييع الضباط الموالين للحكومة السورية، كما هو ظاهر على شبكة الإنترنت في ذلك الوقت، كانت واضحة. وحتى رامي عبد الرحمن (SOHR) المولع باتّهام الجيش بقتل المدنيين، قال: « لم أقبل هذه اللعبة التي تقوم على القول: إنَّ الجيش يقتل المنشقين، بسبب انشقاقهم» (Narwani 2014). ومهما يكن من شيء، فإنَّ التقارير التي تشير إلى الاتهام ملتبسة.

انتشر العنف في الشمال، بمساعدة مقاتلين إسلامويين من لبنان، حيث وصل إلى بانياس والمناطق المحيطة بحمص. ففي العاشر من نيسان/ أبريل قُتل تسعة جنود في كمين تعرّضت له حافلة في بانياس. ثم امتدّ الأمر إلى حمص، وفي السابع عشر من نيسان/ أبريل، قُتل العميد عبدو خضر التلاوي مع ابنيه وابن أخيه، كما قتل الضابط السوري إياد كامل حرفوش بالرصاص بالقرب من منزله. وبعد يومين، قتل العقيد محمد عبدو خضور في سيارته وقد كان في إجازة خارج عمله (Narwani 2014). كما ذكر المعلق السياسي الأمريكي جوشوا لانديس (Landis Joshua) (2011a) خبر وفاة قريب زوجته(*)، وهو أحد الجنود في بانياس. ويُلاحظ أنَّ هذه لم تكن حوادث القتل الوحيدة، غير أني آثرتُ ذكرها كشواهد، بسبب إبقاء معظم وسائل الإعلام الغربية على القَصَصِ المختلقة، وحتى يومنا هذا، لا نجد ذكراً لأيِّ تمرّد إسلامويّ أو كلاماً ينفي أنَّ "المتظاهرين السلميين" لم يحملوا الأسلحة حتى أيلول/سبتمبر 2011.

عتّمت قناة الجزيرة، وهي القناة الإعلامية الرئيسة في الشّرق الأوسط التي تدعم الإخوان المسلمين، على هذه الهجمات، وكذلك على التعزيزات التي قُدمت من قبل المسلحين الأجانب. وكان مراسل قناة الجزيرة السابق علي هاشم واحداً من الكثيرين الذين استقالوا من المحطة التي تملكها قطر (RT 2012)، حيث اشتكى من التحيّز الكبير إزاء طريقة عرضهم لأعمال العنف في سورية. كان لدى هاشم لقطات للمسلحين القادمين من لبنان، ولكن تلك اللقطات خضعت لرقابة مُديريه القطريين. وقد أخبر بالآتي: «قلتُ في رسالة الاستقالة لمديري التنفيذي ... كانت تغطية القناة في البداية، وكأنه لم يكن هناك من شيء يحدث في سورية».

ويعتقد هاشم أنَّ "الثورة الليبية" نقطة تحول بالنسبة لقناة الجزيرة، وقد أدت طريقة تغطيتها إلى ضرب مكانتها كمجموعة إعلامية تتمتع بالصدقيّة (Hashem 2012).

(*) جوشوا لانديس (Joshua Landis) متزوج من سورية، والضابط الذي يشير إليه المؤلف في هذا السياق هو المقدّم ياسر قشعور، (المترجمة).

استمرت عمليات التحريض، فقد اعترفَ جهادي تونسي يدعى "أبا قصي" في وقت لاحق أنه كان في سورية يقوم بدور "متمرد سوري" بارز «اتُّهِم بتدمير وتدنيس المساجد الإسلاميّة السنيّة» بما في ذلك القيام بكتابة جُمَلٍ على الجدران من قبيل «لا إله إلا بشار»(*)، وهو كفرٌ يهدف إلى ترويع المسلمين. ثم كانوا يلقون باللوم على الجيش السوري، ذلك بهدف الدفع إلى حدوث انشقاقات من قبل الجنود المسلمين "السنة" في الجيش. أجرى المقابلة تلك مع " أبي قصي" مجموعة من الصحفيين الأجانب الذين لم يلاحظوا من لهجته أنه لم يكن سورياً (Eretz Zen 2014).

كما هاجم الصحفي الأمريكي نير روزن (Nir Rosen)، والذي ينتقد في تقاريره بشكل عام الحكومة السورية، الإجماع الغربي على رواية العنف الذي قيل إنه وقع في البداية:

«إن قضية المنشقين هي للتشتيت. فقد بدأت المقاومة المسلّحة قبل فترة طويلة من بَدْءِ الانشقاقات ... كل يوم تقدّم المعارضة أعداداً للقتلى، وعادة من دون أي شرح ... لكن كثيراً من أولئك الذين ذكرت أنهم قتلوا هم في الواقع من مقاتلي المعارضة ولكن ... وصفوا في تقارير إخبارية بأنهم مدنيون أبرياء قُتلوا على أيدي قوات الأمن ... وكلّ يوم يُقتل أفرادٌ من الجيش السوري والأجهزة الأمنية أيضاً على أيدي المقاتلين من الجماعات المناهضة للنظام» (Rosen 2012).

لقد كان هناك تلاعب بالألفاظ واختلاقُ أرقام لنزع الشرعيّة عن الحكومة السورية، حيث كان يشار إليها بـ ("النظام")، وللجيش السوري بـ("موالي الأسد")، وكانت تلك اللغة توحي أن الحكومة والجيش كانا مسؤولين عن جميع أعمال العنف. وكما كانت قوات الناتو تقصف ليبيا بهدف الإطاحة بالحكومة الليبية، راح المسؤولون الأمريكيون يطالبون الرئيس بشار الأسد بالتنحّي. حيث ادّعى معهد بروكينغز (Brookings) (Shaikh 2011) أنَّ الرئيس «فقد شرعيته للبقاء في السلطة في سورية». وقال عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي هم

(*) مرة أخرى كان الهدف لصق كل شيء بمقام الرئاسة، (المترجمة).

جـون مـاكين (John McCain)، وليندســي غراهــام (Lindsay Graham) وجو ليبرمان (Joe Lieberman): إنَّ الوقت قد حـان «كيمـا نتحـالف بـشكل لا لـبس فيـه مـع الـشعب الـسوري في مطالبـه الـسلميّة بحكومـة ديمقراطيـة» (FOX News 2011). وهكذا كانت هناك حملة "تغيير نظام" أخرى مُعلنة.

وفي حزيران/ يونيو، رفضت وزيرة الخارجية الأمريكيـة هـيلاري كلينتـون (Hilary Clinton) فكرة أنه كان هناك "محرضين أجانب"، قائلة: إن «الغالبية العظمى من الضحايا هم من المدنيين العُزَّل» (Clinton 2011). في الواقع، وكما تعلم كلينتون بشكل جيد جداً، كان حلفاؤها السعوديون قد سـلَّحوا المتطـرفيّن من البداية. كما أن تأكيدها بخصوص الضحايا مغلوطٌ أيضاً. كما قـدّرت الأمـم المتحدة (التي تراجعت فيما بعد عن عدد الضحايا المُعلن من قِبَلِهـا) مـن عـدّة مصادر أنه بحلول أوائل عام 2012، كان هناك أكثر مـن خمـسة آلاف ضـحية، وأنَّ عدد حوادث الوفاة في السنة الأولى من الصراع بلغ أربعمئة وثمانية وسبعين مـن رجـال الـشَّرطة، وألفـين وواحـداً وتـسعين مـن رجـال الجـيش والأمـن (OHCHR 2012: 2; Narwani 2014). وهذا يعني، أن أكثر من نصف الضحايا الذين قضوا في السنة الأولى كانوا من القوات الحكوميّة السورية.

لم ينعكس ذلك الإحـصاء المـستقل، عـن أعـداد الـضحايا، في روايـات وتقارير وسائل الإعلام الغربيّة. فحتى بعد هزيمة لـواء الفـاروق الطـائفي التـابع لـ(لجيش السوري الحرّ) في حمـص في بدايـة عـام 2012، وكـذلك بعـد عـام 2012، واصلت المجموعات الغربية مثل هيومن رايتس ووتش، جنباً إلى جنـب مع كُتّاب الأعمدة في الولايات المتحدة (على سبيل المثال Allaf 2012) الادِّعاء بـأن قـوات الأمــن الـسورية ارتكبـت المجـازر بحـق «المتظـاهرين العـزّل»، وأن الــشعب الــسوري لــيس لديــه خيــار «ســوى حمــل الــسلاح»، وأنّ هذه «الحركة الاحتجاجية كانت سلميّة بشكل كبير حـتى أيلـول/سـبتمبر2011» (HRW 2011a, HRW 2012). لكنّ الأدلة المذكورة أعلاه تُظهر أن هذه الرواية كانت رواية مزيّفة تماماً.

وفي الواقع، استطاع مسلّحو السلفيّة الإسلامويون استبعاد مؤيدي حركة الإصلاح السياسيّ من الشارع، على مدى شهري آذار/ مارس ونيسان/ أبريل. لقد كان هناك، ولسنوات، استياء من قبل جماعات المعارضة ضد الفساد واحتكار حزب البعث للسلطة. ولكن غالبية هذه الجماعات المعارضة لم تكن تريد تدمير ما كانت تَعُدُّهُ دولةً شاملةً اجتماعيّاً، رغم كونها ـ وفق زعمهم ـ دولة (استبدادية)، وكان معظم أفراد هذه الجماعات المعارضة نفسها ضد العنف الطائفي وتدخّل القوى الأجنبية. وكانوا يؤيدون حماية سورية للأقليات، والمكانة العالية نسبياً التي تتمتع بها النساء، والتعليم والرعاية الصحية المجانيين في البلاد، في حين كانوا يعارضون شبكات الفساد، والمخابرات (Wikstrom 2011; Otrakji 2012).

لاحظت المراسلة هالة جابر في حزيران/ يونيو (2011) أن نحو خمسة آلاف شخص شاركوا في مظاهرة في معرّة النعمان، وهي بلدة صغيرة في شمال غرب سورية، تقع بين حلب وحماة. وتقول: إنّه تم إطلاق النار على عدة "متظاهرين" قبل أسبوع، بينما كانوا يحاولون قطع الطريق بين دمشق وحلب. ثم بعد المفاوضات التي أدّت إلى تخفيض عدد قوات الأمن في المدينة إلى عدد محدود، بدأ «رجالٌ ذوو لحى كثة يقودون سيارات وشاحنات صغيرة لا تحمل لوحات تسجيل» بحوزتهم «بنادق وقذائف صاروخية» بإطلاق النار على العدد المحدود من قوات الأمن(*). تم إرسال مروحية عسكرية لدعم قوات الأمن هناك. وإثر هذا الصدام «قتل أربعة من رجال الشرطة، وسقط اثنا عشر رجلاً من المسلحين بين قتيل وجريح». كما «أصيبَ عشرون شُرطيّاً آخرون». أما الضباط الذين نجوا من القتال، فقد تم إخفاؤهم (حمايتهم) من قبل بعض شيوخ العشائر الذين كانوا شاركوا في المظاهرة الأولى. وعندما «حدثت المظاهرة التالية، من أجل الديمقراطيّة»، في الجمعة التالية، «شارك فيها ثلاثمئة وخمسون شخصاً فقط»، معظمهم من الشباب وبعض المتشددين الملتحين (Jaber 2011). وهكذا انخفض العدد من خمسة آلاف متظاهر إلى ثلاثمئة وخمسين متظاهراً، بعد الهجمات الواضحة التي شنّها المسلحون المتشددون من قبل.

(*) (الذي تم الاتفاق عليه سابقاً في المفاوضات مع الحكومة)، المترجمة.

بعد مرور أشهر من تلاعب وسائل الإعلام، وتمويه تمـرُّد الإسـلامويين، بات سوريون، مثل: سامر الأخرس، وهو شاب من عائلة مُـسلمة سـنية، ممـن اعتادوا مشاهدة قناة الجزيرة، لأنه كان يفضلها على التلفزيون الحكومي، أقول: باتوا مقتنعين بدعم الحكومة السورية. إذ رأى بأم العين تلفيق الأخبار علـى قنـاة الجزيرة، ولذا كتب في أواخر حزيران/ يونيو2011:

«إنني مواطن سوري، وإنسان. ها أنتم بعد أربعة أشهر من حريتكم الوهمية ... تقولون مظاهرة سلمية وتطلقون النار على مواطنينا. لكـن مـن اليـوم ... أنـا [الآن] رقيبٌ في الجيش الاحتياطي. وإذا حدث أن أمسكت بأي شخص ... مـن أي منظّمة إرهابية تعمل على الأرض في سورية، سأطلق النار عليكم كمـا كنـتم تطلقون النار علينا. هذه أرضـنا وليـست أرضـكم، يـا عبيـد الحريـة الأمريكيـة الوهمية» (Al Akhras 2011).

المراجع:

- Abouzeid, Rania (2011) 'Syria's Revolt, how graffiti stirred an uprising', Time, 22 March

- Al Akhras, Samer (2011) 'Syrian Citizen', Facebook, 25 June, online: https://www.facebook.com/notes/sam-al-akhras/syrian-citizen/241770845834062?pnref=story

- Al Jazeera (2011a) 'Nine killed at Syria funeral processions', 23 April, online: http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2011/04/20114231169587270.html

- Al Jazeera (2011b) 'Deraa: A city under a dark siege', 28 April, online: http://www.aljazeera.com/indepth/features/2011/04/2011427215943692865.html

- Al-Shaqfa, Muhammad Riyad (2011) 'Muslim Brotherhood Statement about the so-called 'Syrian Revolution'', General supervisor for the Syrian Muslim Brotherhood, statement of 28 March, online at: http://truthsyria.wordpress.com/2012/02/12/muslim-brotherhood-statement-about-the-so-called-syrian-revolution/

- Allaf, Rime (2012) 'This Time, Assad Has Overreached', NYT, 5 Dec, online: http://www.nytimes.com/roomfordebate/2012/02/06/is-assads-time-running-out/this-time-assad-has-overreached

- Blanford, Nicholas (2011) 'Assad regime may be gaining upper hand in Syria', Christian Science Monitor, 13 may, online: http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2011/0513/Assad-regime-may-be-gaining-upper-hand-in-Syria

- Chossudovsky, Michel (2011) 'Syria: who is behind the protest movement? Fabricating a pretext for US-NATO 'Humanitarian Intervention'', Global Research, 3 May, online: http://www.globalresearch.ca/syria-who-is-behind-the-protest-movement-fabricating-a-pretext-for-a-us-nato-humanitarian-intervention/24591

- Clinton, Hilary (2011) 'There is No Going Back in Syria', US Department of State, 17 June, online: http://www.state.gov/secretary/20092013clinton/rm/2011/06/166495.htm

- Maktabi, Rima (2011) ‘Reports of funeral, police shootings raise tensions in Syria’, CNN, 5 April, online: http://edition.cnn.com/2011/WORLD/meast/04/05/syria.unrest/

- Crimi, Frank (2012) ‘Ethnic Cleansing of Syrian Christians’, Frontpagemag, 29 March, online: http://www.frontpagemag.com/2012/frank-crimi/ethnic-cleansing-of-syrian-christians/

- Daily Mail (2011) ‘Nine protesters killed after security forces open fire by Syrian mosque’, 24 March

- DIA (1982) ‘Syria: Muslim Brotherhood Pressure Intensifies’, Defence Intelligence Agency (USA), May, online: https://syria360.files.wordpress.com/2013/11/dia-syria-muslimbrotherhoodpressureintensifies-2.pdf

- DIA (2012) ‘Department of Defence Information Report, Not Finally Evaluated Intelligence, Country: Iraq’, Defence Intelligence Agency, August, 14-L-0552/DIA/297-293, Levant report, online at: http://levantreport.com/2015/05/19/2012-defense-intelligence-agency-document-west-will-facilitate-rise-of-islamic-state-in-order-to-isolate-the-syrian-regime/

- Draitser, Eric (2012) ‘Unmasking the Muslim Brotherhood: Syria, Egypt and beyond’, Global Research, 12 December, online: http://www.globalresearch.ca/unmasking-the-muslim-brotherhood-syria-egypt-and-beyond/5315406

- Eretz Zen (2014) ‘Tunisian Jihadist Admits: We Destroyed & Desecrated Mosques in Syria to Cause Defections in Army’, Youtube Interview, 16 March, online: https://www.youtube.com/watch?v=fQ8awN8GLAk

- FOX News (2011) ‘Obama Under Pressure to Call for Syrian Leader’s Ouster’, 29 April, online: http://www.foxnews.com/politics/2011/04/29/obama-pressure-syrian-leaders-ouster/

- Ghadry, Farid N. (2005) ‘Syrian Reform: What Lies Beneath’, Middle East Quarterly, Vol 12 No 1, Winter, online: http://www.meforum.org/683/syrian-reform-what-lies-beneath

- Haidar, Ali (2013) interview with this writer, Damascus 28 December. [Ali Haidar was President of the Syrian Social National Party (SSNP), a secular rival to the Ba'ath Party. In 2012 President Bashar al Assad incorporated him into the Syrian government as Minister for Reconciliation.]

- Hashem, Ali (2012) 'Al Jazeera Journalist Explains Resignation over Syria and Bahrain Coverage', The Real News, 20 March, online: http://therealnews.com/t2/index.php?option=com_content&task=view&id=31&Itemid=74&jumival=8106

- HRW (2011a) 'We've never seen such horror: crimes against humanity by Syrian Security Forces', Human Rights Watch, June, online: http://www.hrw.org/reports/2011/06/01/we-ve-never-seen-such-horror-0

- HRW (2011b) Syria: Defectors Describe Orders to Shoot Unarmed Protesters', Human Rights watch, Washington, 9 July, online: http://www.hrw.org/news/2011/07/09/syria-defectors-describe-orders-shoot-unarmed-protesters

- HRW (2012) 'Open Letter to the Leaders of the Syrian Opposition, Human Rights Watch, Washington, 20 March, online: http://www.hrw.org/news/2012/03/20/open-letter-leaders-syrian-opposition

- Jaber, Hala (2011) 'Syria caught in crossfire of extremists', Sunday Times, 26 June, online: http://www.thesundaytimes.co.uk/sto/news/world_news/Middle_East/article657138.ece

- Khalidi, Suleiman (2011) 'Thousands chant 'freedom' despite Assad reform offer', Reuters, 24 March, online: http://www.reuters.com/article/2011/03/24/us-syria-idUSTRE72N2MC20110324

- Landis, Joshua (2011a) 'The Revolution Strikes Home: Yasir Qash`ur, my wife's cousin, killed in Banyas', Syria Comment, 11 April, online: http://www.joshualandis.com/blog/the-revolution-strikes-home-yasir-qashur-my-wifes-cousin-killed-in-banyas/

- Landis, Joshua (2011b) 'Syria's Opposition Faces an Uncertain Future', Syria Comment, 26 June, online: http://www.joshualandis.com/blog/syrias-opposition-faces-an-uncertain-future/

- MEMRITV (2011) ‘Syrian Sunni Cleric Threatens: "We Shall Mince [The Alawites] in Meat Grinders"‘, YouTube, 13 July, online: https://www.youtube.com/watch?v=Bwz8i3osHww

- Nassar, Jessy (2014) ‘Hama: A rebirth from the ashes?’ Middle East Monitor, 11 July, online: https://www.middleeastmonitor.com/articles/middle-east/12703-hama-a-rebirth-from-the-ashes

- Narwani, Sharmine (2012) ‘Questioning the Syrian “Casualty List”, 28 Feb, online: http://english.al-akhbar.com/content/questioning-syrian-%E2%80%9Ccasualty-list%E2%80%9D

- Narwani, Sharmine (2014) Syria: The hidden massacre, RT, 7 May, online: http://rt.com/op-edge/157412-syria-hidden-massacre-2011/

- OHCHR (2012) ‘Periodic Update’, Independent International Commission of Inquiry established pursuant to resolution A/HRC/S - 17/1 and extended through resolution A/HRC/Res/19/22, 24 may, online: http://www.ohchr.org/Documents/HRBodies/HRCouncil/CoISyria/PeriodicUpdate24May2012.pdf

- Otrakji, Camille (2012) ‘The Real Bashar al Assad’, Conflicts Forum, 2 April, online: http://www.conflictsforum.org/2012/the-real-bashar-al-assad/

- Queenan, Gavriel (2011) ‘Syria: Seven Police Killed, Buildings torched in protests’, Israel National News, Arutz Sheva, March 21

- Reuters (2011) ‘Syria says seizes weapons smuggled from Iraq’, 11 March, online: http://www.reuters.com/article/2011/03/11/us-syria-iraq-idUSTRE72A3MI20110311?hc_location=ufi

- Rosen, Nir (2012) ‘Q&A: Nir Rosen on Syria’s armed opposition’, Al Jazeera, 13 Feb, online: http://www.aljazeera.com/indepth/features/2012/02/201221315020166516.html

- RT (2012) ‘Al Jazeera exodus: Channel losing staff over ‘bias’’, 12 March, online: http://rt.com/news/al-jazeera-loses-staff-335/

- Salt, Jeremy (2011) Truth and Falsehood in Syria, The Palestine Chronicle, 5 October, online: http://palestinechronicle.com/view_article_details.php?id=17159

- Sayyid Rasas, Mohammed (2013) ‘From 2005 to 2013: The Syrian Opposition’s Many Faces’, Al Akhbar, 19 March, online: http://english.al-akhbar.com/node/15287

- Shaikh, Salman (2011) ‘In Syria, Assad Must Exit the Stage’, Brookings Institution, 27 April, online: http://www.brookings.edu/research/opinions/2011/04/27-syria-shaikh

- Sheikho, Youssef (2013) ‘The Syrian Opposition’s Muslim Brotherhood Problem’, Al Akhbar English, April 10, online: http://english.al-akhbar.com/node/15492

- Truth Syria (2012) ‘Syria – Daraa revolution was armed to the teeth from the very beginning’, BBC interview with Anwar Al-Eshki, YouTube interview, video originally uploaded 10 April, latest version 7 November, online: https://www.youtube.com/watch?v=FoGmrWWJ77w

- Seale, Patrick (1988) Asad: the struggle for the Middle East, University of California Press, Berkeley CA

- van der Lugt, Frans (2012) ‘Bij defaitisme is niemand gebaat’, from Homs, 13 January, online: https://mediawerkgroepsyrie.wordpress.com/2012/01/13/bij-defaitisme-is-niemand-gebaat/

- Wikstrom, Cajsa (2011) Syria: ‘A kingdom of silence’, Al Jazeera, 9 Feb, online: http://www.aljazeera.com/indepth/features/2011/02/201129103121562395.html

- YaLibnan (2011) ‘7 Syrian policemen killed in Sunday clashes’, 21 March, online: http://yalibnan.com/2011/03/21/7-syrian-policemen-killed-in-sunday-clashes-report/

بشار الأسد والإصلاح السياسي



صورة ملتقطة للرئيس بشار الأسد في معلولا، نيسان/ أبريل 2014، بعد استعادة الجيش السوري للمدينة الأثريّة من جماعات تنظيم القاعدة

مصدر الصورة: سانا

يُعَدُّ نافلاً تأكيدُ مسألةِ أنَّ العمليَّة السياسيَّة الداخليَّة في أيِّ دولة ذات سيادة هي قضية يقررها شعب تلك الدولة، وليس أحدٌ آخر. مع ذلك، ومن حيث إن واشنطن تُصرّ على حقِّ الامتياز في تحديد من الذي يستطيع، أو لا يستطيع، أن يقود بلداً آخرَ، فإن بعض المعلومات الأساسية عن الرئيس بشار الأسد وعملية الإصلاح السياسي في سورية قد تكون مفيدة. إذ إن هناك القليل من النقاش المنطقي، عن كلتا المسألتين، في الأوساط الغربية، بعد التمرد الذي قام به الإسلامويون عام 2011. إذ على النقيض من ذلك، انحدر النقاش عن الحرب إلى نقاشٍ كاريكاتوري ساخر، محكوم بالحماسة لـ"تغيير النظام"، والحديث عن

الحرب الدامية التي يشنهّا "ديكتاتورٌ" يقمع شعبه و"يذبحه" دون تفكير(*). لكن أياً من تلك القصص المُختلقة لا يساعد على الوصول إلى فهمٍ يقوم على المبادئ. فلحُسن الحظ، هناك مجموعة واسعة من المصادر السورية والمستقلة التي تتيح لنا أن نصل إلى صورةٍ أكثر واقعية.

ولو صدّقنا غالبية الأخبارِ الغربيّة عن سورية، لتوجَّبَ علينا الاعتقاد أنَّ الرئيس الأسد كان يشنُّ هجماتٍ عشوائيّةً متكررة على المدنيين، بما في ذلك استخدام الغازات ضد الأطفال. وربما اقتنعنا أيضاً أنه يترأس "نظاماً علويّاً"، حيث الأقلية التي تمثّل 12٪ تقمع الأغلبية المسلمة "السُّنية"، وأنه يسحق "ثورةً" شعبيّةً لم «يختطفها المتطرفون» إلا في السنوات الأخيرة . لكن ما يُقوِّض صحة هذه الرواية هي شعبية الرئيس الواسعة في الداخل. فالكلام على أنَّ هناك استياءً شعبيّاً من الفساد والمحسوبيّة، والخوف من المخابرات، والدولة الاستبداديّة التي تُبقي على نوع من تقديس الشخص، لا ينفي حقيقية شعبية الرجلِ. فحتى ألدّ أعدائه يعترفون بذلك، ولذا فعلينا أن ننظر في الأمور بشكل أعمق قليلاً.

لقد أوصل حزب البعث (الرئيس) بشار الأسد، وهو طبيب عيون دمث الخلق، تلقى جزءاً من تعليمه في بريطانيا، إلى منصب الرئاسة بعد وفاة والده حافظ في عام 2000. كان من المتوقع منه، من ناحية، أن يحافظ على إرث والده التعدّدي والقومي، ومن ناحية أخرى أن يطوّر عناصر مهمة للإصلاح السياسي والاقتصادي. فقد جلب الرئيس حافظ الأسد ثلاثة عقود من الاستقرار الداخلي لسورية، بعد الاضطرابات التي حدثت في ستينات القرن الماضي. وسمح هذا بحدوث إنجازات اجتماعية هامة، ما مهّد الطريق لتخفيف حدة الانقسامات الاجتماعية من خلال الدفع بقوة نحو تعريفها على أنها انقسامات على أساس المواطنة، بغض النظر عن الدين أو المجتمع. كما كانت هناك تحسينات كبيرة في مجال التعليم والصحة، بما في ذلك التلقيح الشامل وتحسين محو الأمية بين النساء. فبين عامي 1970 و2010 انخفض معدّل وفيات الرضّع من مئةٍ واثنتين

(*) إننا إذ نبقي على هذه المفردات فإنما من باب الأمانة للنص، وتعريف القارئ العربي بحجم الدعاية الإعلامية ومفرداتها التي استخدمت ضد الدولة السورية وجيشها ورئيسها، (المترجمة).

وثلاثين وفاة إلى أربع عشرة وفاةً (في الألف)، كما انخفض معدّل وفيات الأمهات من أربعمئة واثنتين وثمانين وفاةً إلى خمس وأربعين وفاةً (في كلِّ مئة ألف).

كانت هذه النتائج جيدة، خاصة بالنسبة لبلد فيه مستويات متواضعة جداً من الناتج المحلي الإجمالي للفرد (Sen, Al-Faisal and Al-Saleh 2012: 196). وازدادت التغذية الكهربائية إلى المناطق الريفية من 2٪ في عام 1963 إلى 95٪ في عام 1992 (Hinnebusch 2012: 2). ونقلت تقاليد التعددية الاجتماعية، والتقدم الذي تحقّقَ في مجال التعليم، التنمية البشرية في البلاد، إلى أبعد مما حققته العديد من الدول الأكثر ثراءً في المنطقة.

ومهما يكن من شيء، فإنَّ النظام الذي بناه حافظ الأسد كان شاملاً اجتماعياً، بمعنى: أنه بقي نظاماً حزبيّاً توتاليتاريّاً، توجِّهه الحرب مع إسرائيل والتمرد العنيف لجماعة الإخوان المسلمين الذي يحدث بشكل دوريّ. وقد لاحظت المخابرات الأمريكية أن إنهاء تمرّد جماعة الإخوان المسلمين في بداية الثمانينات لاقى ترحيب معظم السوريين (DIA 1982, vii). رغم أنه كان ينظر لاحقاً لانتقاد الحكومة بارتياب كبير. هذا، وقد تم حظر الجماعات ذات التوجُّهات الطائفية، وكذلك حُظر قبول تمويل أجنبي لأغراض سياسية. وقالت شخصيات معارضة في هذا المُناخ شعر السوريون بالعجز، و«لم يعرفوا كيفيّة أخذ زمام المبادرة أو مناقشة وتطوير أفكارهم» (Wikas 2007: 6).

لقد كانت « المخابرات» يقظة دائماً لجواسيس الصهيونية ومؤامرات الإخوان المسلمين الجديدة، لكن كان ذلك يعني أيضاً أنها تسببت بمضايقة مجموعة واسعة من منتقدي الحكومة (Seale 1988: 335). أما من جانب المعارضة العلمانية، فكان الحزب السوري القومي الاجتماعي غير راضٍ عن التسوية "غير الناجحة" التي تركها (الرئيس) حافظ الأسد، حيث كان الدستور يفرض أن يكون الرئيس مُسلماً (al Akhbar, 22 Feb 2012). علاوة على ذلك، كان هناك استياء من الفساد القائم على المحسوبية من خلال بعض الفاسدين في شبكات حزب البعث. لقد واجه (الرئيس) بشار كل ذلك عندما استلم منصبه.

وعليه، يستعرض هذا الفصل حركة الإصلاح السياسي، منذ أن تولى بشار الأسد الرئاسة حتى قيام التمرد الإسلاموي عام 2011. ثم يبحث عن الدليل الأفضل على مدى صحة الدعم المحلي للرئيس.

حركة الإصلاح

كان بشار الأسد الشخص المرشح للقيام بالإصلاح، مع بداية الألفية، لكن كان هناك أيضاً معارضة سياسية كبيرة إلى حدٍّ ما، مناهضة لحزب البعث، إلا أنها كانت منقسمة على نفسها. وقد رأى كثيرون فرصة للإصلاح في الرئيس الجديد الشاب، في حين أراد آخرون، خاصةً جماعة الإخوان المسلمين المحظورة، تفكيك الدولة العلمانية، وإقامة نوع من الحكم الديني. مع ذلك، فإنَّ مجرد حقيقة أن القيادة انتقلت لرجل شاب تلقى تعليمه في الغرب أدت إلى فكرة "ربيع دمشق" في عام 2000.

نُظر للرئيس بشار على نطاق واسع بوصفه محرّكاً للإصلاح، لكن صعوده كان سريعاً جداً، واعتمد إلى حدٍّ بعيد على شبكات حزب البعث الحاكم الذي أوصله للسلطة. لم تكن هناك إصلاحات سياسية دراماتيكية، رغم الشكاوى على نطاق واسع من الفساد (Otrakji 2012). لكن إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية تضمنت زخماً جديداً للتعليم العام والمواطنة، مع تحرُّرٍ اقتصاديٍّ مضبوط فتح الباب أمام أسواق جديدة، لكن دون القيام بعمليات الخصخصة التي اجتاحت أوروبا الشرقية. كما أطلق عدة آلاف من السجناء السياسيين عامةً، وخاصة الإسلامويين والمتعاطفين معهم (Landis and Pace 2007: 47).

ربما لم يكن لدى الرئيس بشار مجال كبير للإصلاح السياسي في السنوات الأولى من حكمه، حيث لم يكن حوله دائرة مُنظمة خارج حزب البعث. وربما كجزء من التعويض عن ذلك قام ببناء علاقات مع رجال الأعمال، وأطلق عدة منظمات غير حكومية برعاية الحكومة بين الشباب والطلاب وغيرها من قطاعات "المجتمع المدني" بما يكتنف حتى العمال في الأرياف. وتشمل هذه المجموعات من المنظمات غير الحكومية الأمانة السورية للتنمية وصندوق

التنميـة الريفيـة المتكاملـة لـسورية (فـردوس). حيـث لعبـت الـسيدة الأولى أسماء الأسد دوراً بارزاً في بعض هذه الجمعيات، لاسيما تلك المتعلقة بالشباب والأطفال. واجتذبت (تلك الجمعيات) بعض الشركاء الدوليين، بما في ذلك برنامج الأمم المتحدة الإنمائي(UNDP) واليونيسيف (UNICIF) (Kawakibi 2013).

يقول أحد المحللين الأمريكيين: إنَّ ربيع دمشق عام 2000 شهد «ازدهار حرية التعبير والتجمع والعمل السياسي غير المـسبوق منـذ الخمـسينات» (Wikas 2007: 4). وعلى الرغم من الإصلاحات في السوق، حافظت سورية علـى النظـامين الـصحي والتعليمي المجانيين عمليّاً. حيث ظلت الجامعات الحكومية أيـضاً مجانيـة تقريبـاً، حتى يومنا هذا، مع مئات الآلاف من الطلاب المسجلين فيهـا. إن هـذا النـوع مـن التعليم العام أمر بالغ الأهمية، وهو الأساس للتمكين الاجتماعي.
أُسست في هـذه المرحلـة مجموعـة مـن منتـديات النقـاش الـسياسيّ المنتقـدة للحكومة، بما في ذلك منتدى الكواكبي، ومنتـدى الأتاسـي، ومنتـدى الحـوار الوطني. بدأوا بإصدار بيانات عن مطالبهم مـن الحكومـة، حمـلَ أحـدها ألـف توقيع (Landis and Pace 2007: 47). ومع ذلك كانت مـا تـزال قـوانين "حالـة الطـوارئ" سـارية المفعـول، إذ رأت المخـابرات العـسكرية في بعـض هـذه الجماعات متآمرين، ما أدى إلى اعتقالات فيما وصفه البعض بـ"شـتاء دمـشق". حيـث أفـادت الأنبـاء عـن أنَّ بعـض الـسجناء تعرّضـوا لأخطـار جـسيمة (Ghadry 2005; Ulutas 2011: 89-90) . ومهما يكن من شـيء، يقـول بعـض المحللين الأمريكيين المطلعين نسبياً: إن «"ربيع دمشق" تـرك بعـض الإنجـازات المستمرة، وإن كانت متواضعة». ورغم أنه لم تكن هناك معارضة موحدة، ولكن للمرة الأولى منذ سنوات عديدة أمكن «للأفراد أن يفصحوا عـن الآراء المنتقـدة للنظام في الأماكن العامـة». واسـتمرت بعـض مجموعـات النقـاش هـذه لعـدة سنوات، بما في ذلك لجنة إحياء المجتمع المـدني، ومنتـدى الأتاسـي للحـوار الديمقراطي (Landis and Pace 2007: 48-49).

بيد أنه وبعد غزو العراق عام 2003، وقعـت سـورية بـين جيـشي احـتلال قويين، أعني: الجيشين الإسرائيلي والأمريكي المعاديين للدولـة الـسورية. أدّى

هذا إلى عبور أكثر من مليون لاجئ عراقي إلى سورية، هرباً من المذابح. لكن كرم سورية في استقبال العراقيين قوبل باتهام أمريكيٍّ لها بأنها تدعم المقاومة العراقية، وفُرضت عقوبات عليها. ومع ذلك كان الانسحاب السوري المفاجئ من لبنان في عام 2005، بعد ثلاثين عاماً من الاحتلال(*)، و"ثورة الأرز" التي حدثت لاحقاً في لبنان، من الأمور التي ساعدت على تحفيز مرحلة أخرى من نشاط المعارضة. ولئن كان يُنظر إلى هذه "الثورة" اللبنانية بارتياب كبير (Narwani 2015)، إلا أنها ساعدت بالفعل في إظهار وحدة غير عاديةٍ بين جماعات المعارضة السورية. ومازال إعلان الميثاق منذ ذلك الوقت مؤشراً جيداً عن المبادئ التي أمكن لتلك المجموعات المختلفة الاتفاق عليها.

يُقال: إنَّ تجمع تشرين الأول/ أكتوبر 2005 الذي أنشأ "إعلان دمشق"، وضغطَ على الحكومة من أجل الإصلاح الديمقراطي، كان «أكبر تجمع للمعارضة في تاريخ حكم حزب البعث» منذ عام 1963. وشمل الإسلامويين والليبراليين والماركسيين وكذلك القوميين العرب والأكراد (Rasas 2013). وذكر مبادئ التعددية واللاعنف، ووحدة المعارضة والتغيير الديمقراطي» (Ulutas 2011: 90).

بدأ البيان بالتأكيد على أن حكم البعث أضعف الناس، مدّعياً أن احتكار السلطات للسيطرة على كلّ شيء أكثر من ثلاثين عاماً، أدى لقيام نظام استبدادي شمولي ومنغلق وأدى إلى غياب [الاهتمام] بالسياسة في المجتمع، مع فقدان الناس الاهتمام في الشؤون العامة. ودعا الإعلان إلى « إقامة نظام وطني ديمقراطي ... على نحوٍ سلميٍّ وبشكل متدرج، مبنيٍّ على التوافق، وقائمٍ على الحوار والاعتراف بالآخر». ونبذَ العنفَ والإقصاءَ، وقدَّمَ دعماً مشروطاً للإسلام بأنه "العنصر الثقافي الأبرز في حياة الأمة" ورفضَ فكرة وجود دولة الحزب الواحد. وطالبَ بأن يُلغى قانون الطوارئ والأحكام العرفية والمحاكم الخاصة، مع تعزيز الجيش الوطني «والإبقاء عليه خارج إطار الصراع السياسي واللعبة الديمقراطية».

(*) دخل الجيش السوري إلى لبنان بطلب رسمي من الحكومة اللبنانية آنذاك تحت اسم قوات الردع العربية، (المترجمة).

وأن تتحرر المنظمات الشعبية والنقابات والهيئات الأخرى «من وصاية الدولة ومن حزب [البعث] والهيمنة الأمنية». وكان البيانُ في غالبيّةٍ بنوده علمانيّاً. كما نبَّهَ إلى أنه يجب على النظام الجديد «التأكيد على انتماء سورية إلى المنظومة العربية» للتطلع للوحدة العربية. وكان هناك «رفض للتغيير الذي يأتي من الخارج» ودعوة لـ«حل ديمقراطي عادل "للقضية الكردية في سورية". وانتهت الوثيقة بالدعوة إلى "مؤتمر وطني" من شأنه أن يؤدي إلى انتخاب جمعية تأسيسية "ووضع دستور جديد على أساس الأغلبية السياسية (Damascus Declaration 2005).

لكن هذا المستوى من وحدة المعارضة انهارَ سريعاً إلى حدٍّ ما، على أسس ربما كانت متوقعة. وكما يقول كل من لانديس وبيس (46 :2007) «كافح قادة اليسار الماركسي واليمين الإسلامويّ من أجل إيجاد أرضية مشتركة»، حيث شارك الليبراليون، والمنفيون، والأكراد، والآشوريون (Uutas 2011: 90).

أسست جماعة الإخوان المسلمين باديء ذي بدء جنباً إلى جنب مع عبد الحليم خدام المنشق عن البعث جبهة "الخلاص" الإسلامية، في عام 2006. ثم في اجتماع المجلس الوطني لإعلان دمشق في كانون الأول /ديسمبر 2007 رفضت أحزاب الاتحاد الاشتراكي والعمل الشيوعي "سعي" الأحزاب الليبرالية الكردية إلى الاستعانة بـ"العامل الخارجي" للمساعدة في إحداث التغيير. بدأت الأحزاب الاشتراكية والشيوعية، جنباً إلى جنب مع حزب اليسار الكردي (وفيما بعد مع حزب كردي ثانٍ بقيادة نصر الدين إبراهيم)، في البحث عن "طريق ثالث" بين إعلان دمشق والحكومة البعثية.

غادر الإخوان المسلمون نهائيّاً في وقت مبكر عام 2009، بينما شكّلت الجماعات الكردية (ما عدا حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD) في أواخر عام 2009 المجلس السياسي الكردي (Rasas 2013). كما تحركت الحكومة ضد بعض الموقعين. وكان منتدى الأتاسي قد أُغلق (Ulutas 2011: 91). ثم في آذار/مارس 2005 سُحبت التراخيص من قناتين تمولهما الولايات المتحدة (قناة الحرة وراديو سوا) (Landis and Pace 2007: 57). لقد دمّر هذا التشرذم أي إمكانية حقيقية لمعارضة موحدة.

كان دائماً أساس التعاون الإسلامويّ ضعيفاً جداً من حيث الارتباط مع كلٍّ من الأحزاب التعددية والعلمانية القومية واليسار، ويقوم أساساً على انتقاد حكومة البعث. غير أنَّ الإسلامويين تبنّوا جزءاً من خطاب الأحزاب الأخرى وقتاً ما. فكما يشير الكواكبي (2007:3) إلى أن جماعة الإخوان المسلمين «في كثير من الأحيان تستشهد بحقوق الإنسان كأنّها ضحية نظام قمعي»، لكنها تكون انتقائية جداً فيما يخص «الجوانب التي تساعد في دعم قضيتها»، والحقيقة كان سجل الإخوان المسلمين في مجال حقوق الإنسان مروِّعاً. فلئن كانوا في مجلس الشعب السوري منذ الخمسينات، إلا أنّه منذ ذلك الحين كان هناك جانب من الحزم السوري في إنهاء تمردهم الطائفي، بجميع الوسائل المتاحة.

رأى تقريرٌ أمريكي بعد إعلان دمشق أنَّ "المعارضةَ العلمانيّةَ" واحدةٌ، إلا أنها عاجزة، في حين أرخى قمع الإسلامويين الطائفيين بظلاله «على شكل تكتيكات الحكومة الحالية وسياستها» (Wikas 2007: 12, 22). ومع ذلك، ظلت القومية العربية والتضامن الإقليمي قويين وظل الرئيس الشاب يتمتع بشعبية في المنطقة، وكذلك في سورية. وأظهر استطلاع للرأي في عام 2009 جرى في ستة دول أن إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية هما الخطر الأكبر الذي يتهدد المنطقة (88٪ و 77٪ على التوالي) وجاء الرئيس بشار الأسد بوصفه الزعيم العربي الأكثر شعبية في الشرق الأوسط (MESI 2009). كان على هذا الرأي في الإقليم أن يتغير، بعد اندلاع العنف عام 2011، حيث أصبح مختلفاً عن الرأي داخل سورية.

ثم مع مسيرات شباط/ فبراير وآذار/مارس 2011 كان هناك المزيد من النشاط السياسي، وخاصة في البلدات المناطقية، حيث لم يكن ذلك واقع الحال في دمشق وحلب (Ulutas 2011: 99-100). ولكن هذه المرة، كانت الأمور مُغايرة. فغالبية مجموعات المعارضة الداخلية، وكما أعلنت في إعلان دمشق2005، لم تدعم أيَّ هجمات مسلحة على الدولة أو أيَّ تدخل من القوى الأجنبية. ولا يزال معظم أفرادها في سورية. وهناك بعض مجموعات المعارضة الداخلية، مثل الحزب السوري القومي الاجتماعي، يدعم الحكومة.

أما المجموعات الأخرى، وإن لم تدعم الحكومة، إلا أنها دعمت الدولة والجيش، حيث إنّ سورية شهدت أعمال عنف من قِبَلِ الإسلامويين الطائفيين في السابق.

إنَّ الذين أصبحوا يُعرفون في الأوساط الغربيّة بـ"المعارضة" كانوا في الغالب من الشخصيات التي تعيش في المنفى، ومن الإسلامويين الذين كانوا قد بدأوا في أعمال العنف. وبدأت اجتماعات الخارج في باريس وتركيا وبروكسل. وحضر عدد من الجماعات والأفراد هذه الاجتماعات التمهيدية، ولكنها كانت اجتماعات سيئة في تنسيقها، وسرعان ما جاءت تحت الوصاية الخارجية، ولعب الإخوان المسلمون بسرعة «دورا قياديّاً» فيها (Ulutas 2011: 91-94). كانت التقارير الغربية في كثير من الأحيان سخية في الحديث عن الدور القيادي للإسلامويين، وكانت جماعة الإخوان المسلمين أكثر تنظيماً، وبالتالي كانت الشريك الأكثر احتمالاً في أي عملية "تغييرٍ للنظام" تقوم بها القوى الكبرى.

أشار حسن منيمنة لـ"منتدى بروكسل"، الذي مقرّه واشنطن، إلى المخاوف الحقيقية في المنطقة من" شتاء إسلاميّ "، لأنَّ الربيع العربي قد سلّم الإسلامويين «نصراً غير متوقع ولا يستحقونه». ولكنه يبالغ في الحديث عن الدعم الذي تحظى به جماعة الإخوان المسلمون والمجموعات السلفية الأخرى مدعيًا أن للسلفيين قاعدة انتخابية كبيرة بينما الإخوان المسلمون لهم«جمهور كبير أو حتى أغلبية ما» (Mneimneh 2012: 1-4). لكن الحقيقة أنَّ هذا الكلام لا يتسق مع التاريخ التعدديّ القويّ في سورية ولا تدعمه استطلاعات الرأي التي جرت في الدول الإقليمية. فعلى سبيل المثال، أظهر استطلاع 1984 بين الفلسطينيين أنه على الرغم من أن نصف عدد السكان تقريباً كان من المتدينين جداً (يصلون خمس مرات في اليوم)، أي أكثر تديناً بكثير في هذا المعنى من السوريين، حصلت السياسة القومية العلمانية لمنظمة التحرير الفلسطينية على دعم 90٪. وهذا ينعكس سلبيّاً على استراتيجية جماعة الإخوان المسلمين، حيث هاجمت الفلسطينيين من القوميين العلمانيين قبل أن تهاجم سلطة الاحتلال.

رأت إسرائيل، من ناحية أخرى، أن «أي نجاح للإخوان سيكون على حساب القوميين»، لذلك كانت «جماعة الإخوان المسلمين تُعامل معاملة أقل قسوة [من قِبَلِ الإسرائيليين] من القوميين» (Shadid 1988: 663, 674-675, 679).

هذا إلى أنه، يجب عدم الخلط بين دعم الإسلام ودعم الإسلامويين الطائفيين. لقد قال لي مسؤول كبير في دمشق، في أواخر عام 2013، إنَّ جماعة الإخوان المسلمين كانت دائماً أكبر وأفضل تنظيم معارض في بلاده، لكن، في أحسن الأحوال، وعندما لم يكن هناك عنف، قد تحظى بدعم 15٪ كحدٍّ أقصى. وهذا الدعم ينهار عندما تشارك جماعة الإخوان المسلمين في العنفِ الطائفيِّ.

في مناخ الأحداث التي جرت في مصر وتونس، وقبل شهرين من اندلاع العنف في سورية، قال الرئيس الأسد: إنه سيدفع لمزيد من الإصلاحات. وقال: «إذا كنت لا ترى حاجة للإصلاح قبل ما حدث في مصر وتونس»، فقد «فات الأوان للقيام بأي إصلاح». وقد حظي كلّ من الانتخابات البلدية وإعطاء دور أكبر للمنظمات غير الحكومية ووضع قانون جديد للإعلام باهتمام خاص في أجندته. ونجد في هذا الاتجاه أنَّ حكومته زادت بالفعل دعم المازوت (Solomon and Spindle 2011). وجاء مشروع قانون الانتخابات العامة بعد مدّة وجيزة، رغم أنَّ المنفيين المنتقدين ردوا بازدراء (Hatem 2011). ولاحظ آخرون أن سورية كانت مختلفة تماماً عن مصر، حيث إن الحكومة عزَّزت التحسينات الاجتماعية والتعليمية، ولم يكن عليها ديون خارجية، وحقوق الأقليات فيها مصونة، وتحافظ على سياسة خارجية مستقلة عن الأجندة الأمريكية ـ الإسرائيلية. «عندما يقول بشار الأسد إنه يؤيد الإصلاح السياسي، يصدقه الكثير من السوريين... فقد تمتع السوريون في السنوات الأخيرة بحريات دينية أكبر، تضم الغالبية السنية» (Hetou 2011). إن سورية ليست مصر.

تشكلت مجموعات متعددة من "اللجان المحلية" في الحراك الذي حدث عام 2011، وصار الكثيرُ منها ذا طابع متحوِّل مع انتماء أكبر أو أقل إلى الأحزاب السياسية. وشملت لجان التنسيق المحلية (LCC)، واتحاد لجان تنسيقيات "الثورة السورية" (FCC) ولجنة العمل الوطني. وفي حين بدأ عدد من هذه

المجموعات بالتغلغل في الأحياء، أصبح كثيرٌ من أفرادها «أكثر انخراطاً في التنسيق الإعلامي من الانخراط في قيادة حركة الاحتجاج» (Asi Abu Najm 2011). هذا، وقد رفضت لجان التنسيق المحلية في منتصف عام 2011، والتي كانت تدعو إلى «الإطاحة بالنظام»، أقول: رفضت الدعوة «لحمل السلاح أو المطالبة بالتدخل العسكريّ»، قائلةً: إنَّ «عسكرة "الثورة "من شأنها أن تقلل الدعم الشعبي لها والمشاركة فيها» (LCC 2011). وعلى أيِّ حال، بحلول عام 2013، فإنَّ ما تبقى من لجان التنسيق بدا منخرطاً مع الجماعات الإسلاموية المسلحة، ويقدم التقارير بشكلٍ رئيس عن قتلاهم (LCC 2013).

ويُلاحظ بَدْء تصلُّب الخطوط الفاصلة بين جماعات المعارضة بالتوازي مع تمرُّد الإسلامويين، ولكن استمرت محاولات إيجاد أرضية مشتركة بينها. وقد قيل: إنَّ ورقة باريس ـ دمشق التي قُدمت إلى جماعات المعارضة، باستثناء جماعة الإخوان المسلمين، «ترددت بين الإصلاح والتغيير، لكنها لم تدعُ لإسقاط الحكومة». وكان هذا هو الأساس لإنشاء لجنة التنسيق الوطنية للتغيير الديمقراطي في سورية (NCC)، وهي مجموعة "الطريق الثالث" التي أُعلن عن تأسيسها في حزيران/يونيو 2011، وقد ضمت حزب الاتحاد الاشتراكي، وتجمع اليسار الماركسي، وأربعة من الأحزاب الكردية بما في ذلك حزب الاتحاد الديمقراطي وبعض المستقلين. وقيل إنها كانت تمثل «اليسار العربي، والماركسي والكردي» (Rasas 2013).

وفي الشهر التالي، في تموز/يوليو 2011، كانت هناك محاولة لإحداث المجلس الوطني السوري (SNC)، وربط لجنة التنسيق الوطنية مع ما تبقى من إعلان دمشق والإخوان المسلمين. ومع ذلك فشلت تلك الخطة، لأنَّ جماعتي الإخوان والإعلان اعترضتا على مطلب لجنة التنسيق الوطنية، أي على «رفض التدخل العسكري الخارجي» و «حل عادل للقضية الكردية». وكان من نتيجة ذلك أن شكَّلَ كلّ من جماعة الإخوان المسلمين وما تبقى من مجموعة الإعلان غالبية المجلس الوطني السوري المدعوم من الخارج، والذي تم إنشاؤه في اسطنبول في تشرين الأول/أكتوبر عام 2011 (Rasas 2013).

غير أنَّ هناك ثمناً للتمويل الأجنبيّ، ففي أواخر عام 2011 أُعلن عن المجلس الوطني السوري في المنفى من قبل الحكومات الغربية ودول الخليج باسم "الممثل الشرعي" للشعب السوري. ومن ثَمَّ لاحقاً، وبعد أقل من سنة تم التخلص منه بشكل غير رسمي لصالح تشكيلٍ جديد في المنفى، دُعي بالائتلاف الوطني لقوى "الثورة السورية" والمعارضة أو ببساطة الائتلاف الوطني السوري(Al Arabiya 2012). وقد اتُخذ ذلك القرار في واشنطن.

بقي الحزبُ السوريُّ القوميُّ الاجتماعيُّ (SSNP)، ثاني أكبر حزبٍ علمانيٍّ بعد حزبِ البعثِ العربيِّ الاشتراكيِّ (في سورية)، مع القوات التابعة له والتي لها فروع في لبنان، أقول: بقي ملتزماً بـ «استقرار الدولة». وقد دخل من جديد في البرلمان السوري عام 2005 ويَعُدُّ نفسه في مركز حركة الإصلاح (Haidar, Ali 2013). وقد اقترح المعلقون في هذا الاتجاه أنه قد يكون هناك انقسام حول دعم الحكومة على مستوى الفروع، ولكن نائب رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي لشؤون سورية، صفوان سلمان، قال:

«نحن في وقت واحد مع استقرار الدولة السورية وتماسك المجتمع السوري، ومع إصلاحات عميقة وواسعة النطاق. ونحن نعتقد أن استقرار المجتمع السوري ضروري لنجاح الإصلاحات» (Francis 2011).

عندما بدأت حركة التعديلات الدستورية والانتخابات البرلمانية التي جرت في أوائل عام 2012، بقي الحزب السوري القومي الاجتماعي منتقداً للأولى (قائلاً: إن هناك حاجة إلى جمعية وطنية لإعادة كتابة الدستور) واشتكى من كيفيّة تنفيذ الثانية. لكنه لم يقاطع أياً منهما (al Akhbar 22 Feb 2012; al Akhbar 15 May 2012)؛ ولم تفعل ذلك المجموعة الشيوعية التي يقودها قدري جميل. بعد تلك الانتخابات دخل العديد من غير البعثيين، في الحكومة، وقبل رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي علي حيدر تعيين الرئيس الأسد له وزيراً للمصالحة، حيث أبقى على الحوار مع كلٍّ من المعارضة المدنية والجماعات المسلحة.

(الرئيس) بشار، شيطنةٌ في الخارج ودعمٌ شعبي داخل سورية

تقوض شعبية الرئيس السوري، على الأقل في سورية، أية محاولاتٍ لوصفه بصفات تنزع عنه الإنسانية. ونجد في هذا الاتجاه أنَّ إمارة قطر النفطية عدوٌّ معلنٌ لسورية، حيث وضعت بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى المليارات من الدولارات في خدمة الجماعات الإسلاموية المسلحة (Khalaf and Smith 2013). ومع ذلك اعترفت قناتهم واستطلاعات الرأي الخاصة بهم بشعبية بشار الأسد. واستنتجت وسيلة الإعلام الرئيسة في قطر، الجزيرة، في كانون الثاني/ يناير 2011 أن "الثورة" في سورية كان من "غير المرجح" حدوثها نظراً إلى شعبيّة الأسد. ولئن كان هناك حكم استبداديٌّ، إلا أنَّ «عواملَ، مثل: وجود رئيس محبوب نسبياً، والتنوع الديني، تجعل فكرة التمرد في البلاد غير مرجحة» (Wikstrom 2011). وكما قال المحلل الأمريكي جوشوا لانديس، كان بشار يحظى بشعبية بين الشباب «قد لا يحبون النظام، كما أنهم لا يحبون الفساد ... لكنهم يميلون إلى لوم الناس من حوله، الحرس القديم». فالناس يريدون التغيير، بسبب الفقر والفساد . لكن السوريين يحبون دعم الأسد بسبب التعددية والإصلاحات التي تجلب التحديث» (Wikstrom 2011).

وقد توضّحت شعبية الرئيس في الأيام الأولى، من خلال المسيرات الضخمة المؤيدة للحكومة التي خرجت ردّاً على مسيرات المعارضة. وقد قدم روبرت فيسك (Robert Fisk) -وهو أحد الصحفيين الغربيين الأقلاء من ذوي الاطلاع الكبير على التاريخ العربي والعناية بأدق التفاصيل، وإن كان يتصفُ بنزعة ساخرة في كثير من الأحيان- أقول: قدّم فيسك هذه الملاحظات فيما يتعلق بالحكومة السورية:

«بدأت مسيرة أخرى مؤيدة للأسد... لقد بلغت مئتي ألف بحلول منتصف النهار... لم تكن هناك طريقة قسريّة لنقل الناس بالشاحنات إلى ساحة الأمويين [دمشق] ... لم يكن ثمة جنودٌ سوى أولئك الذين كانوا يقفون مع أسرهم. كيف يمكن للمرء أن ينقل عرضاً مؤيداً للحكومة خلال الصحوة العربية؟ كانت هناك النساء المحجبات، وكبار السن من الرجال، والآلاف من الأطفال ... هل أتوا قسرا؟ أنا لا أعتقد ذلك» (Fisk 2011).

وقد لاحظ النّقاد المطلعون أن الصراع العنيف في سورية، كانَ دائماً بين دولةٍ تعدديّةٍ والإسلامويين الطائفيين المدعومين من القُوى الكبرى. يقول المحلل العراقي البريطاني سامي رمضاني، وهو منتقد للحكومة السورية: إنَّ سورية يديرها نظام «فاسد لا يرحم» و «أجهزة أمنية» مرهوبة. ومع ذلك يقول أيضاً، وبسبب أن «القوى الرجعية» المدعومة من المملكة العربية السعودية وقطر ابتعدت عن «المقاومة الديمقراطية»، تحول الدعم الشعبي إلى الحكومة (Ramadani 2012). كما يقول: إن فكرة أن سورية هي النظام العلوي الطائفي، كانت فكرةً «مبالغاً فيها للغاية». حيث كان لدى الحكومة «دوائر أوسع بكثير من الدعم»، بما في ذلك الفئات السُّنية المؤثرة و«الملايين من النساء» اللاتي يخفن السلفيين. بالإضافة إلى أن الكثير من «الفقراء والعاطلين عن العمل والطلاب» الذين دعموا في البداية الحركة الاحتجاجية، تم صدهم من قبل جماعاتٍ، مثل: المجلس الوطني السوري في المنفى و'الجيش السوري الحر'، الذي كان «يهيمن عليه الإخوان» (Ramadani 2012).

يشير المحلل السوري كميل طرقجي إلى أن الرئيس الأسد: «خسر الكثير من مؤيديه في السنة الأولى من العنف لأنه كان ينظر إليه على أنه زعيم لم يقدرْ على فرض إرادته على جهازه الأمني. ورأى آخرون أنه [لم يكن] كفؤاً فعَّالاً في التواصل مع الجماهير ... [بينما] عَدّهُ البعضُ مسؤولاً شخصياً عن ازدياد عدد الضحايا » (Otrakji 2012).

وعلى أيِّ حال، كان من الواضح أن السوريين في غالبيتهم غير راضين عن التمرّد العنيف الذي حدث. لقد أظهر استطلاع للرأي في تركيا في أواخر عام 2011 أنَّ السوريين هم «الأقل في النظرة الإيجابية في المنطقة» فيما يتعلّق بأحداث "الربيع العربي" التي وقعت في ذلك العام، حيث إن 22% فقط من السوريين يعتقدون أن تلك الأحداث كان لها تأثيرٌ إيجابي في بلادهم و91٪ يعارضون و(5%يدعمون) الاحتجاجات العنيفة (TESEV 2012). يوفق رمضاني بين هذين الاتجاهين باقتراح أنه بعد الحركة الأولية التي قامت لاستبعاد الحكومة في عام 2011، «تحول الدعم الشعبي» عندما رأى السوريون أن الطائفيين والعصابات السعودية-القطرية وراء العنف (Ramadani 2012).

وفي تقييمٍ آنيٍّ، كتب طرقجي أن الرئيس «يستحق تقديراً منخفضاً لفشله في محاربة الفساد وبسبب إعطائه أولوية أقل لإصلاح النظام السوري».

وكانت هناك علامات متنوعة للاقتصاد، الذي عاد بالفائدة على المدن، ولكن بالتراجع على المناطق الريفية، هذا من ناحية. غير أنّه من ناحية أخرى، يمكن أن تُنسب للرئيس بشار قدرته على إبقاء سورية "واحة استقرار" وسط منطقة ملتهبة بالنيران، حيث مكانة ومشاركة المرأة أعلى من معظم البلدان الأخرى في المنطقة، وهناك سياسة خارجية مستقلة تحظى بشعبية، وشخصية «متواضعة وودودة». وفي حين أنه لم يعش حياة تقشف، مثل والده، لكن الادعاءات التي كانت تصدر من الخارج حول ترفه كانت "غريبة" (Otrakji 2012).

أظهر استطلاع للرأي في أواخر عام 2011، موّله أعداء بشار الأسد في قطر، ما يعني أنّه كان بالتأكيدِ منحازاً، أنَّ الغالبية خارج سورية كانت تريد من الرئيس السوري أن يستقيل بسبب «المعاملة الوحشية للنظام مع المحتجين». لكن، الأهم من ذلك، أنه أظهر أيضاً أن 51٪ من السوريين يريدون بقاء الأسد (Doha Debates 2011). وعندما يأتي ذلك من استطلاع أجراه عدو، فيتوجّب الانتباه. هذا، وقد كان المقاتلون الإسلامويون في حلب أكثر جزماً. حيث قال ثلاثة من قادة 'الجيش السوري الحر' (وجميعهم تعاونوا مع جماعات تنظيم القاعدة): إن الرئيس السوري يحظى بدعم «70% على الأقل» في تلك المدينة ذات الغالبية السنية (Bayoumi 2013)، والسكان المحليون، «كلهم، موالون لبشار "..."(*)، ويبلّغون عنا» (Abouzeid 2012)؛ و«كلهم مخبرون ... إنهم يكرهوننا. إنهم يتهموننا بأننا السبب وراء الدمار الذي لحق بالمدينة»(Ghaith 2012). إن غياب الدعم الشعبي مسألة قاتلة بالنسبة لأي ثورة، أما بالنسبة للمتعصّب الديني فالأمر لا أهمية له. وفي هذا الاتجاه قدرت دراسة داخلية أجراها الناتو في عام 2013 أيضاً أن 70٪ من السوريين يؤيدون الرئيس، و20٪ محايدون و10٪ منهم

(*) حُذفت كلمة مسيئة إذ إن الطرف المعارض وبسبب موقفه الطائفي أو الأيديولوجي أو السياسي، يستخدم مفردات غير لائقة عند الإشارة إلى مقام الرئاسة، (المترجمة).

يـدعمون "المتمـردين" (World Tribune 2013; BIN 2013). ولم تكـن هـذه التقديرات بعيدة عن نتائج الانتخابات الرئاسية عام 2014.

أما خارج سورية فكانت الافتراءات الموجَّهة ضدّ الرئيس بشار قوية. حيـث كان يقال: إن الرئيس السوري قد وجَّهَ بارتكاب سلـسلة مـن الأعمـال المروعـة بحق المدنيين. على سبيل المثال، تم استغلال المذبحة التي وقعت بحق أكثر من مئة قروي معظمهم من الموالين للحكومة في الحولة (بالقرب مـن حمـص) مـن أجل طرد الدبلوماسيين السوريين، وفرض عقوبات صارمة على البلاد. وكانـت هذه المذبحة على الأرجح حادثة "مدبرة" (انظرْ: الفصل السابع).

وعلى الرغم من تحيزها المناهض لسورية، كشفت بعض المـصادر الغربيـة عن مجازر "مدبرة" أخرى. على سبيل المثال، إن مجـزرة آب/ أغـسطس 2012 التي راح ضحيتها مئتان وخمسة وأربعون شخصاً في داريا، والتي أشير إليهـا في البداية بأنها مجزرة ارتكبها "جيش الأسد" (Oweis 2012) كشف روبرت فيسك عن أنها مذبحة ارتكبها 'الجيش السوري الحر' بحق الرهائن من المدنيين وجنـود اختطفوا خارج أوقات العمل، بعد فشل تبادل للأسرى (Fisk 2012). وبالمثل، فإن مجزرة 10 كانون الأول/ ديسمبر 2012 التي راح ضحيتها أكثر من مئة قروي في عقرب اتُهمت في البداية الحكومة السورية بهـا (Stack and Mourtada 2012). لكن الصحفي البريطاني أليكس تومبسون (Alex Thompson) (2012) ذكـر في وقت لاحق أن 'الجيش السوري الحر' اعتقل خمسمئة قروي علوي لمـدة تـسعة أيام، وقتل العديد منهم عندما اقترب الجيش وهربت العصابة. كما ألقي باللائمة في حادثة آب/ أغسطس 2013 المتعلّقة باستخدام الأسلحة الكيماوية في الغوطة الشرقية علـى نطـاق واسـع، علـى حكومـة الـرئيس الأسـد. لكـن كـل الأدلـة الموضوعية تكشف أنها حادثة أخرى "مدبرة". لقد وثّقت الدعاية المحيطة بهـذه الفظائع في الفصلين السابع والثامن.

انتقد عدد لا بأس به من السوريين الرئيس الأسد أمامي، ولكن لـيس علـى طريقة وسائل الإعلام الغربية. يقولون إنهم يريدونه أن يكون حازماً مثـل والـده.

كثيرون في سورية، على الأقل في وقت مبكر من الأزمة، عَدّوه متساهلاً جـداً، ما أدى إلى أن يوصف بأنه «صاحب قلبٍ رحيم». وفي أواخر عام 2013 قـال لي الجنود في دمشق: إنه كان هناك أمر في الجيش يقضي بالعمل على محاولة إلقـاء القبض على أي مسلح سوري حيّاً. وهذا أمر مثير للجدل، حيث كان الكـثيرون يَعدّون الإرهابيين السوريين خونة، وليسوا أقل ذنباً من الإرهابيين الأجانب. أمـا ماذا يحدث لهذا الأخير (المقاتل الأجنبي) فقصة أخرى. وفي حين لا يوجد أيـة أدلة موضوعية ذات صدقيّة عن الهجمات التي قـام بهـا الجـيش الـسوري ضـد المدنيين، لكن هناك بعض الأدلة مأخوذة من أشرطة فيديو وأدلة أخرى على أن الجيش عاقب بأحكام مختلفة الإرهابيين الذين ألقى القبض عليهم. هذا بالتأكيـد يُمكن أن يُثار دوليّاً، ولكنه ربما يحظى بشعبية كبيرة في سورية، حيث إن معظم السوريين لديهم أقرباء من عائلاتهم وقعوا ضحية لهجمات إرهابية.

في الواقع، إن المشكلة الأساسية في الافتـراءات علـى الـرئيس بـشار مـن خلال الروايات عن "هجمات على المدنيين" هـي أن هـذه الافتـراءات تـنعكس أيضاً على الجيش العربي السوري، وهذا الجيش يتمتع بشعبية كبيرة جـداً، بمـا في ذلك في أوساط المعارضـة المدنيـة. حيـث إن أقـوى التقاليـد العلمانيـة في سورية، يُعدّ الجيش جزءاً لا يتجزأ منها. فمع وجود ما يقرب من نـصف مليـون مقاتل في الجيش السوري، سواء من المتطوعين أم المجندين، فإنَّ هـذا يجعـل ذلك الجيش يتكون من جميع الطوائف والفئات في البلاد، أعـني مـن: (الـسنة والعلـويين، والـشيعة والمـسيحيين والـدروز والأكـراد والأرمـن والآشـوريين وغيرهم)، وجميعهم يتحدون كـ "سوريين". ولنتذكر أن إعلان دمشق عام 2005 أعرب عن تأييده القوي لـ"الجيش الوطني"، والرغبـة في إزالـة احتكـار البعـث ولكن أيضاً «المحافظة على الروح المهنية [للجيش] وذلك لحماية استقلال البلاد والحفاظ على النظام الدستوري والدفاع عن الوطن والـشعب». وهـذا يعـني أن حركة الإصلاح بمجملها والتي كانت مناهضة للبعث عـام 2005 أعلنـت نفـسها معارضة للهجمات على الجيش.

إنَّ أول من عارض هذا الموقف كان، بطبيعة الحال، جماعة الإخوان المسلمين. لأنهم عادوا إلى الهدف التقليدي المتمثل في السعي إلى الإطاحة بالدولة العلمانية (Al-Shaqfa 2011). كان الهدف الرئيس لتمرّد الإخوان تقسيم الجيش على أسس طائفية. في الواقع، انشق عدد من ضباط الجيش، بما في ذلك العديد من الذين لهم صلات عائلية بجماعة الإخوان. ولا شك أن فظائع الإسلامويين التكفيريين ضد العلويين والمسيحيين أثارت التوتر في المجتمع. ومع ذلك، وفي نهاية عام 2011، اعترف رامي عبد الرحمن، المنحاز للجيش السوري الحر، والذي يتحدث من بريطانيا أن أقل من ألف جندي قد انشقوا (Atassi 2011). لكن الجيش السوري، الذي غالباً ما كانت وسائل الإعلام الغربية تصدع بأنه من "الموالين للأسد"، ظلَّ متحداً جداً، كمؤسسة وطنية. وعلى النقيض من ذلك، اعتمد الإخوان المسلمون والجماعات السلفية الأخرى على الطائفية. فهم وحلفاؤهم المرتبطون بتنظيم القاعدة، المصدر الرئيس للفكرة التي اعتمدها الغرب عن أن حكومة الرئيس الأسد هي "نظام علوي"، وتحركوا نحو قتل العلويين والشيعة من المدنيين، في محاولات للتحريض على صراع أوسع نطاقاً.

يُعَدُّ الجيش في سورية كبيراً جداً لدرجة أن معظم المكونات الطائفية السورية لها صلات عائلية، بما في ذلك الذين استشهدوا في الحرب. ويُلاحظ أنه في أثناء الصراع كانت هناك مسيرات منتظمة واحتفالات تدعمها الحكومة لأسر هؤلاء الشهداء، وكان الآلاف يعرضون بفخر صور أحبائهم (IIT 2012; SANA 2015). يضاف إلى ذلك أن، ملايين السوريين، الذي هُجِّروا بسبب الصراع، لم يغادروا البلاد، بل انتقلوا إلى مناطق أخرى تحت حماية الجيش. وهذا ليس مُتاحاً حقّاً فيما لو كان الجيش في الواقع يقوم بشن الهجمات "العشوائية" على المدنيين. فالجيش القمعي يثير الخوف والبغض عند السكان، لكن في دمشق يستطيع المرء أن يرى الناس وكيف يشعرون عندما يمرّون على العديد من حواجز الجيش على الطرقات، التي وُضعت لحمايتهم من السيارات المفخخة التي يرسلها "المتمردون".

إنَّ قَصَص "بشار (...)"(*) لها جاذبية قليلة داخل سورية، إلا كشعارات للناس المتشددين المناهضين للحكومة، لأن تلك القَصَص تنعكس على الجيش، والناس لديهم التجربة الشخصية الخاصة بهم مع الجيش بشكل يومي. حيث تبدو هذه القصص مُصمَّمة للجمهور الخارجي. فالسوريون يعرفون أن جيشهم يمثل تَعَدُدِيّةَ سوريّة، وأنه يقاتل الإرهاب الطائفي المدعوم من الخارج. لم يتفكك هذا الجيش على أسس طائفية، كما كانت العصابات الطائفية تأمل، كانت هناك انشقاقات صغيرة، وبالتأكيد أقل من 2٪. يرى مستشار الاتحاد الأوروبي كمال علام الأمر على هذا النحو، «كيما يستطيع الجيش العربي السوري العمل كما كان في السابق، اعتمد على شعبه... فلا يمكن أن يكون هناك بديل لدعم شعبك» (Alam 2015).

لكن ما الذي تخبرنا به استطلاعات الرأي عن الدعم الذي يتمتع به بشار الأسد في سورية؟ هذا، بطبيعة الحال، هو القضية الأساسية الجوهرية، فعند مناقشة الشرعية الديمقراطية، لدينا العديد من استطلاعات الرأي، وتقديرات المحللين السوريين والأجانب والانتخابات الرئاسية في حزيران/ يونيو 2014. نحتاج أن نولي استطلاعات الرأي عناية كبيرة في سياق الحرب، حيث أصبحت الشرعية ساحة معركة رئيسة. كما أوضحتُ في الفصل الثاني، فقد تم تجاهل المفاهيم الأخلاقية التقليدية لتجنب تضارب المصالح، والبحث عن أدلة موضوعية وإعلان عدم أهلية الادعاءات التي تكون لخدمة مصالح ذاتية من الأطراف المعتدية في الكثير من النقاش الدولي حول سورية. وفي الوقت نفسه، علينا أن ننظر في مجموعة واسعة من المصادر.

يجب أن يُستبعد بعض استطلاعات الرأي بشكل واضح، كتلك الصادرة عن المعهد الجمهوري الدولي، التي تعمل بالاشتراك مع استطلاعات مؤسسة بيكتر، والتي تُمول من قبل الكونغرس الأمريكي (IRI 2012). حيث ركّز هذا الاستطلاع على التدخل الأجنبي. وخلُص إلى أن «أعضاء من المعارضة السورية يدعمون التدخل العسكري الدولي في بلادهم، بما في ذلك إقامة منطقة "حظر

(*) حذفنا عبارة غير مناسبة لوصف مقام الرئاسة، (المترجمة).

طيران" وممرات إنسانية وتدريب مقاتلي 'الجيش السوري الحر'، ولكنهم لا يدعمون وجود قوات دولية على الأرض» (Dougherty 2012). هذا الاستطلاع لا قيمة له من الناحية القانونية فيما يتعلق بآراء المعارضة السورية، لأنه يرفض فكرة استطلاع رأي عشوائي لصالح طريقة "كرة الثلج" في إجراء استطلاع الرأي. فالمعهد الجمهوري الدولي/ مؤسسة بيكتر يتبنى الطريقة المنحازة بشكل واضح إلى حدٍ ما.

استُخدم "الأفراد المؤثرون" (أو القنوات) لبَدْء سلسلة الإحالة، لنصل في النهاية لعينة مؤلفة من ألف ومئة وثمانية وستين من أعضاء المعارضة، فيهم ما يقرب من ثلاثمئة وخمسة عشر عضواً داخل سورية. لكن هامش الخطأ لا ينطبق على هذا المسح، بسبب عدم اختيار عينة عشوائية من المتفاعلين مع عملية المسح هذه» (IRI 2012).

وبعبارة أخرى، فإن الشركاء السياسيين من المعهد الجمهوري الدولي سألوا أصدقاءهم، الذين بدورهم سألوا أصدقاءً لهم، وكان إجماليٌّ 73% من العينة ممن يعيشون خارج سورية. ليست لدينا فكرة عن أي جزء من "المعارضة السورية" قد يكون ممثلاً هذا المسح. لكن الأهم من ذلك، أنه لم يقل لنا تحديداً أي شيء عن الرأي العام السوري الأوسع.

كانت العمليات الانتخابية السورية في خلال الأزمة، والمشاركة العامة فيها، هامّةً. وعندما وقّع الرئيس الأسد المرسوم التشريعي رقم 101 في آب/أغسطس 2011، مُعدِّلاً بذلك القانون الانتخابي، كان يعالج بعض مطالب الإصلاح الرئيسة. ثم أعدت حكومته التعديلات الدستورية التي من شأنها إزالة الطابع المتغلغل في الدولة لحزب البعث الاشتراكي، والسماح بانتخابات رئاسية على أساس التنافس بين المُرشحين. أُقرّ ذلك في استفتاء في أواخر شباط/ فبراير عام 2012. وعارضت جماعات المعارضة المدنية، مثل: الحزب السوري القومي الاجتماعي والشيوعيين كلتا العمليتين (رغبةً بجمعيّة تأسيسية منتخبة لاقتراح التغييرات) وبعض عناصر التغيير، ولكن لم يقاطعوا الانتخابات

(al Akhbar 22 Feb 2012; al Akhbar 15 May 2012). أما الجماعات الإسلاموية المسلّحة فقد قاطعت الاستفتاء وانتخابات مجلس الشعب في أوائل عام 2012، مهددةً بمهاجمة الذين شاركوا.

وأدى إصلاح النظام الانتخابي هذا إلى تسجيل ستة أحزاب جديدة، بالإضافة إلى الأحزاب الثمانية الموجودة سابقاً، في حين أزيل رسمياً الوضع المتميز لحزب البعث (As Safir 2012). وكان إقبال الناخبين في الانتخابات البرلمانية في سورية أيار/ مايو 2012 منخفضاً حيث بلغ 51.26٪، أي كان منخفضاً عن 56٪ في عام 2007 (International IDEA 2015). كان هذا في جزء منه نتيجة لتهديدات من الجماعات المسلحة. حيث كان "لواء الفاروق"- الذي طُرد في ذلك الوقت من مدينة حمص على يد الجيش السوري- المجموعة الرئيسة التي تطلق تلك التهديدات. وعَدَّ العديد من شهود العيان في وقت لاحق أن "لواء الفاروق" هو المسؤول عن قتل المدنيين في بلدة الحولة، بعد ثمانية عشر يوماً من الانتخابات. حيث كان البعض في الحولة قد شارك في تلك الانتخابات (انظرْ: الفصل السابع). أما العامل الآخر لانخفاض نسبة الإقبال هو الأهمية المتدنية نسبياً للانتخابات البرلمانية في النظم الرئاسية.

كانت نتائج انتخابات مجلس الشعب في عام 2012، تدل على أن حزب البعث حصل على مئةٍ وخمسين مقعداً، وحصل المستقلون(*) على تسعين مقعداً في البرلمان المكوَّن من مئتين وخمسين مقعداً. ومن أبرز النواب غير البعثيين كان أحمد كوسا عن الحزب الديمقراطي السوري، وقدري جميل وعلي حيدر من جبهة التغيير والتحرير، وعمر أوسي من مبادرة الأكراد السوريين (Landis 2012). وكان تشكيل البرلمان مهماً أيضاً، بسبب وجود حالة دستورية جديدة بالنسبة للانتخابات الرئاسية، وهي أن كلَّ مرشح يجب أن يؤمن الدعم ممّا لا يقل عن خمسة وثلاثين نائباً، وكل نائب يستطيع أن يدعم فقط مرشحاً رئاسيّاً واحداً. كذلك يجب على المرشحين للرئاسة أن يكونوا قد عاشوا في سورية مدة العشر سنوات السابقة على ترشحهم، ما يعني استبعاد المرشحين في المنفى (AsSafir 2012).

(*) يقصد المؤلف جميع الأحزاب والفئات من غير البعث، (المترجمة).

قدمت الانتخابات الرئاسية عام 2014، للمرة الأولى منذ عقود، مرشح حزب البعث في انتخابات تنافسية. حيث كانت الانتخابات قبل ذلك استفتاءات على المرشح الرسمي. بطبيعة الحال، أكثر من أربعة عقود من حكم حزب البعث إلى جانب ظروف الحرب، كانت تعني فعلاً أن بشار كان له ميزة قوية جداً. وكان معروفاً على نحو أفضل بكثير، ووقف مع الدولة ويتمتع بشعبية حقيقية. وفي المدّة التي سبقت الانتخابات الرئاسية توافق ما قاله المحلل السوري الدكتور طالب إبراهيم مع مستشار سابق للناتو في تقدير أن هذا الدعم لبشار الأسد سيكون بحدود 70٪ (Ibrahim 2014).

إنَّ حقيقة إعلان العديد من الدول الغربيّة أنَّ انتخابات سورية "معروفة النتيجة مسبقاً"، قبل أن يتم إجراؤها، بالكاد تحمل الكثير من الصدقيّة. وكانت هذه الحكومات نفسها تحاول الإطاحة بالحكومة السورية (Herring 2014). ادّعت صوت أمريكا التي تبث من واشنطن زوراً أن سورية لن تسمح بدخول المراقبين الدوليين (VOA 2014). لكن في الواقع، جاء أكثر من مئة مراقب للانتخابات من الهند والبرازيل وروسيا والصين وجنوب أفريقيا وإيران وأمريكا اللاتينية، جنباً إلى جنب مع مراقبين غير رسميين من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا (KNN 2014; Bartlett 2014).

وفي حين ترشّح سبعة مرشحين، ثلاثة فقط منهم بقوا في نهاية المطاف، فعلى ما يبدو لا يمكن للجميع الحصول على دعم خمسة وثلاثين نائباً. وقف في تلك الانتخابات ضد الرئيس بشار رجل الأعمال حسّان النوري (وزير سابق في حكومة الأسد)، والنائب عن مدينة حلب الشيوعي ماهر حجار (al Saadi 2014; Harbi 2014). واتفقوا مع من كان يشغل المنصب (الرئيس بشار) على الوحدة الوطنية، ودعم الجيش ومكافحة الإرهاب، مع اختلافٍ أساسٍ على السياسات الاقتصادية (Harbi 2014; Baker 2014). ودَعمَ ثاني أكبر حزب علماني في سورية، الحزب السوري القومي الاجتماعي، الرئيس بشار.

اعترفت وسائل الإعلام الدولية بالإقبال الهائل، سواء في سورية أم من اللاجئين في لبنان، مع بعض المصادر التي اعترفت على مضض أن «القدرة على

جعل الناس يُقبلون بأعداد كبيرة، وخاصة خارج سورية، هو انتصار كبير في حد ذاته» (Dark 2014). وأفادت الأسوشيتد برس عن وجود حشود من عشرات الآلاف، في «جو كرنفالي» في دمشق واللاذقية، مع «طوابير طويلة» من الناخبين في حمص (FNA 2014a). وأشارت الأسوشيتد برس إلى أن الآلاف من الناخبين خارج سورية «أغلقوا مداخل العاصمة اللبنانية»، مع هيمنة الناخبين المؤيدين للأسد في السويد. وخلصوا إلى أن الرئيس الأسد كان «يحظى بدعم كبير بين قطاعات واسعة من السكان» (FNA 2014b). وبالفعل، بلغت نسبة المشاركة 73,4% في الانتخابات الرئاسية في سورية 2014 وهي أعلى بكثير من أي انتخابات رئاسية في الولايات المتحدة في العقود الأخيرة، حيث تتراوح معدلات المشاركة بين 52٪ و60٪ (Idea International 2015a, 2015b).

فاز بشار الأسد في هذه الانتخابات بشكل مقنع، بنسبة 88,7% من الأصوات (AP 2014). وحصل حسان النوري وماهر حجار على 4.3٪ و 3.2٪ على التوالي (Aji 2014). وبلغت نسبة المشاركة 73.4٪ أو: أحد عشر مليوناً وستمئة ألف ناخبٍ من أصل خمسة عشر مليوناً وثمنمئة ألف ناخبٍ)، وهذا يعني أنه حصل على عشرة ملايين وثلاثمئة ألف صوت أو 64% من مجموع الناخبين المتمتعين بحق الانتخاب. وحتى لو كان كل شخص من الذين لم يتمكنوا من التصويت ضد الرئيس، كانت النسبة التي حصل عليها تفويضاً مقنعاً. اشتكت واشنطن من إجراء هذه الانتخابات في ظروف الحرب، ولكنها كانت سعيدة بتأييد الانتخابات في أفغانستان وأوكرانيا، اللتين على حد سواء تعانيان من الحروب والفساد. وخلصت الأسوشيتد برس بشكل منطقي إلى أن دعم الأسد لم يكن فقط من الأقليات، ولكنه كان بسبب إرثه في الانفتاح الاقتصادي، ودعمه للمرأة، والمكاسب الحقيقية في التعليم والصحة والكهرباء، وأخيراً وليس آخراً، قدرة الرئيس على التحرك بشكل حاسم ضد الجماعات المسلحة الطائفية (AP 2014).

كانت الانتخابات الرئاسية في حزيران/ يونيو 2014 المؤشر الأقوى على دعم بشار الأسد. رغم أن الميزة المؤسسية الكبيرة لشاغل الوظيفة جعلت تلك الانتخابات أقرب إلى مزيج من الاستفتاء والانتخابات، ودعمه في أول انتخابات

رئاسية تنافسية تحصل في عقود، واضحٌ وثابتٌ إلى حدٍّ ما مع تقديرات أخرى. أوضِّحُ ذلك في الجدول أدناه. ولقد ضمَّنتُ الجدول التالي التقديرات التي مصدرها أعداء بشار الأسد في قطر والناتو.

الجدول 1: استطلاعات الرأي ذات الصلة بالحكومة السورية، 2011 ـ 2014

سؤال التصويت	التاريخ	%	الجهة التي أجرت الاستطلاع
الثورة في سورية "من المستبعد حدوثها بسبب شعبية الأسد"	شباط/فبراير 2011	لا يوجد	ويكستروم (Wikstrom) شباط/فبراير 2011 في قناة الجزيرة (قطر)
91٪ يعارضون الاحتجاجات العنيفة ضد الحكومة (5٪ أيدوا ذلك)	أواخر عام 2011	91 %	استطلاع تيسيف (TESEV) (2012) استطلاع (في تركيا) عن السوريين
هل يجب أن يبقى الأسد؟	كانون 1/ديسمبر 2011	51%	استطلاع مناظرات الدوحة (قطر)
استطلاع(*) التغيير الدستوري	شباط/فبراير 2012	تم تمريره	الحكومة السورية
الانتخابات البرلمانية (نتيجة حزب البعث) بنسبة إقبال 51٪	أيار/مايو 2012	60%	الحكومة السورية
دعم (الرئيس) بشار في حلب؟	منتصف 2012	70%	ثلاثة من قادة 'الجيش السوري الحر' في حلب
الدعم الوطني للرئيس بشار؟	2013	70%	مستشار للناتو
الدعم الوطني للرئيس بشار؟	2014	70%	الدكتور طالب إبراهيم من سورية
الانتخابات الرئاسية (التصويت للرئيس بشار) إقبال بنسبة 73.4٪ (من كل المتمتعين بحق الانتخاب)	حزيران/ يونيو 2014	88٪ (64٪)	الحكومة السورية

(*) هنا الإشارة للاستفتاء الذي تم على الدستور، (المترجمة).

نحن نرى تطابقاً مهماً بين نتائج الوكالات التابعة للمصادر المنحازة أو مصادر العدو، تلك المرتبطة بالجماعات المسلحة المناهضة للحكومة، والعمليات الانتخابية السورية. حيث كانت نتائج الانتخابات متطابقة نسبياً مع الرأي المستنير خلال الأزمة.

يتمتع الرئيس السوري بدعم أكثر من ثلثي الشعب في البلاد. وهذه حقيقة لا تتأثر بميزة بشار الأسد المؤسسية (أي أن شعبيته لا علاقة لها بمنصبه). ربما الدعم للجيش السوري أعلى من الدعم للرئيس، في حين أن الدعم لحزب البعث هو أقل من ذلك. وتؤكد البيانات التي تم جمعها فكرة أنَّ مجموعة من الأحزاب، والقوى الاجتماعية، من غير البعث، دعمت الرئيس خلال الأزمة.

يمكننا أن نرى من البيانات السابقة عن الإصلاح (ولاسيما "إعلان دمشق" 2005) الأسباب التي جعلت غالبية المعارضة الداخلية لا تشارك في الهجمات المسلحة على الدولة. فمعظمها يدعم الدولة، ضد الإرهاب الطائفي المدعوم من الخارج. وكان الاستثناء الرئيس لهذا جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من الجماعات السلفية الصغيرة. حيث لم يكونوا مهتمين بأي نوع من الديمقراطية، ويبحثون بدلاً من ذلك عن نسختهم الخاصة من دولة دينية. لذلك، مرة أخرى، احتاجوا وطلبوا المساعدة العسكرية الأجنبية.

المراجع:

- Abouzeid, Rania (2012) ‘Aleppo’s Deadly Stalemate: A Visit to Syria’s Divided Metropolis’, Time, 14 November, online: http://world.time.com/2012/11/14/aleppos-deadly-stalemate-a-visit-to-syrias-divided-metropolis/

- Aji, Albert (2014) ‘Bashar Al-Assad wins landslide victory in Syria election despite three-year fight to oust him’, National Post, 4 June, online: http://news.nationalpost.com/news/bashar-al-assad-wins-landslide-victory-in-syria-election-despite-three-year-fight-to-oust-him

- Alam, Kamal (2015) ‘Endless Predictions of the Syrian Regime’s Collapse, but Why Hasn’t it Happened?’ Levant Report, 6 July, online: http://levantreport.com/2015/07/06/endless-predictions-of-the-syrian-regimes-collapse-but-why-hasnt-it-happened-an-interview-with-kamal-alam-of-the-uk-based-institute-for-statecraft/

- Akhbar al (22 Feb 2012) ‘Disputes grow over new Syria constitution ahead of vote’, online: http://english.al-akhbar.com/node/4440

- al Akhbar (15 May 2012) ‘Opposition Disputes Syria Election results’, online: http://english.al-akhbar.com/node/7372

- Al Akhbar (2014) ‘Four new candidates enter Syrian presidential race’, 27 April, online: http://english.al-akhbar.com/node/19565

- Al Arabiya (2012) ‘Arab League recognizes Syria’s new opposition bloc’, 12 November, online: http://english.alarabiya.net/articles/2012/11/12/249215.html

- al Saadi, Yazan (2014) ‘Syrian Presidential elections: three candidates, one face’, Al Akhbar, 2 June, online: http://english.al-akhbar.com/node/20000

- Al-Shaqfa, Muhammad Riyad (2011) ‘Muslim Brotherhood Statement about the so-called ‘Syrian Revolution’’, General supervisor for the Syrian Muslim Brotherhood, statement of 28 March, online at: http://truthsyria.wordpress.com/2012/02/12/muslim-brotherhood-statement-about-the-so-called-syrian-revolution/

- AP (2014) ‘Syrian election shows depth of popular support for Assad, even among Sunni majority’, Fox News, 4 June, online: http://www.foxnews.com/world/2014/06/04/syrian-election-shows-depth-popular-support-for-assad-even-among-sunni-majority/

- Asi Abu Najm (2011) ‘Syria’s Coordination Committees: a Brief History’, Al Akhbar, 1 October, online: http://english.al-akhbar.com/node/764

- As Safir (2012) ‘Contents of Proposed Amendments to the Syrian Constitution Revealed’, Al Monitor, 17 February, online: http://www.al-monitor.com/pulse/politics/2012/02/washington-mocks-while-moscow-we.html

- Atassi, Basma (2011) ‘Free Syrian Army grows in influence’, Al Jazeera, 16 November, online: http://www.aljazeera.com/indepth/features/2011/11/20111116154829885782.html

- Baker, Aryn (2014) ‘Meet The Two Candidates Taking on Assad For Syria’s Presidency’, Time, 9 May, online: http://time.com/93656/assads-rivals-for-the-presidency/

- Barnard, Anne (2014a) ‘Syrians in Lebanon flood polling place, choosing Assad out of Fervor or Fear’, New York Times, 28 May, online: http://www.nytimes.com/2014/05/29/world/middleeast/syrian-exiles-in-lebanon-vote-in-advance-of-national-ballot.html?_r=0

- Barnard, Anne (2014b) ‘Assad’s win is assured, but limits are exposed’, New York Times, 3 June, online: http://www.nytimes.com/2014/06/04/world/middleeast/amid-fear-and-pressure-syrians-vote-for-president.html

- Bartlett, Eva (2014) ‘International Observers Endorse Syrian elections’, Oriental Review, 3 June, online: http://orientalreview.org/2014/06/03/international-observers-endorse-syrian-elections/

- Bayoumy, Yara (2013) ‘Insight: Aleppo misery eats at Syrian rebel support’, Reuters, 9 January, online: http://www.reuters.com/article/2013/01/09/us-syria-crisis-rebels-idUSBRE9070VV20130109

- BIN (2013) ‘Poll: 70% of Syrians Support Assad, says NATO’, Before its News, 13 June, online: http://beforeitsnews.com/middle-east/2013/06/poll-70-of-syrians-support-assad-says-nato-2452134.html

- Damascus Declaration (2005) ‘The Damascus Declaration for Democratic National Change’, English version in Joshua Landis blog ‘Syria Comment’, 1 November, online: http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-1/syriablog/2005/11/damascus-declaration-in-english.htm

- Dark, Edward (2014) ‘Rebels shell Aleppo as Syria votes’, Al Monitor, 3 June, online: http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/06/syria-aleppo-elections-rebels-strike-shell-assad.html

- DIA (1982) ‘Syria: Muslim Brotherhood Pressure Intensifies’, Defence Intelligence Agency (USA), May, online: https://syria360.files.wordpress.com/2013/11/dia-syria-muslimbrotherhoodpressureintensifies-2.pdf

- Doha Debates (2011) ‘This House believes President Assad must resign’, 27 November, online: http://www.thedohadebates.com/debates/item/index46d6.html?d=112&s=8&mode=opinions

- Dougherty, Jill (2012) ‘Survey: Syrian opposition want ‘no-fly’ zone’, CNN Security Clearance, 17 August, online: http://security.blogs.cnn.com/2012/08/17/survey-syrian-opposition-want-no-fly-zone/

- Fisk, Robert (2011) ‘Syria is slipping uncontrollably towards a bitter sectarian war’, The Independent, 27 October, online: http://www.independent.ie/opinion/analysis/robert-fisk-syria-is-slipping-uncontrollably-towards-a-bitter-sectarian-war-26786116.html

- FNA (2014a) ‘World Media acknowledge massive turnout in Syria’s Presidential election’, Fars News Agency, 4 June, online: http://english.farsnews.com/newstext.aspx?nn=13930314000436

- FNA (2014b) ‘World Media admits massive turnout in Syrian Presidential elections abroad’, Fars News Agency, 29 May, online: http://english.farsnews.com/newstext.aspx?nn=13930308000580

- Francis, Ghadi (2011) 'The Syrian Social Nationalists: in the hurricane of the revolt', Al Akhbar, 26 August, online: http://english.al-akhbar.com/node/136

- Ghadry, Farid (2005) 'Syria reform: what lies beneath', The Middle East Quarterly, Winter, 61-70, online: http://www.meforum.org/683/syrian-reform-what-lies-beneath

- Ghaith, Abdul-Ahad (2012) 'The people of Aleppo needed someone to drag them into the revolution', The Guardian, 28 December, online: http://www.theguardian.com/world/2012/dec/28/aleppo-revolution-abu-ali-sulaibi

- Haidar, Ali (2013) Interview with this writer, Damascus, 29 December

- Haidar, Ziad (2012) 'Contents of Proposed Amendments to the Syrian Constitution Revealed', Al Monitor, 17 February, online: http://www.al-monitor.com/pulse/politics/2012/02/washington-mocks-while-moscow-we.html#

- Haidar, Ziad (2014) 'The other candidates in Syria's election', Al Monitor, 14 May, online: http://www.al-monitor.com/pulse/politics/2014/05/syria-presidential-elections-assad-candidates.html#

- Harbi, Rana (2014) 'Syrians vote in presidential election', Al Akhbar, 3 June, online: http://english.al-akhbar.com/node/20010

- Hatem al, Fadwa (2011) 'Syrians are Tired of Assad's 'reforms'', UK Guardian, 1 June, online: http://www.theguardian.com/commentisfree/2011/may/31/syrians-assad-bill-fair-elections

- Herring, Jessica Michele (2014) 'Syria Holds Presidential Election, President al-Assad's Likely Election Considered Unfair by Western Nations', Latin Post, 3 June, online: http://www.latinpost.com/articles/14097/20140603/syria-holds-presidential-election-president-al-assads-likely-election-considered-unfair-by-western-nations.htm

- Hetou, Ghaidaa (2011) 'Syria: the art of 'branding' political reform', The New Middle East, 31 March, online: http://new-middle-east.blogspot.com.au/2011/03/syria-art-of-branding-political-reform.html

- Hinnebusch, Raymond (2009) ‘Syria under the Ba’th: the political economy of populist authoritarianism’ in Raymond Hinnebusch and Søren Schmidt (2009) The State and the Political Economy of Reform in Syria, University of St Andrews Centre for Syrian Studies, Fife Scotland

- Hinnebusch, Raymond (2012) ‘Syria: from authoritarian upgrading to revolution?’ International Affairs 88, 95-113

- Ibrahim, Taleb (2014) ‘Over 70% of Syrians support Assad ahead of elections’, Live Leak, 7 May, online: http://www.liveleak.com/view?i=a3a_1399500866

- Idea International (2015a) ‘Voter turnout data for Syrian Arab Republic’, online: http://www.idea.int/vt/countryview.cfm?id=210#pres

- Idea International (2015b) ‘Voter turnout data for United States’, online: http://www.idea.int/vt/countryview.cfm?id=231#pres

- IIT (2012) ‘Syria’s Mufti Meets Scholars ... Honors Families of Syrian Army Martyrs in Lattakia’ Islamic Invitation Turkey, 22 November, online: http://www.islamicinvitationturkey.com/2012/11/22/syrias-mufti-meets-scholars-honors-families-of-syrian-army-martyrs-in-lattakia/

- IRI (2012) ‘Survey of Syrian Opposition Reveals Desire for International Intervention’, International Republican Institute, 17 August, online: http://www.iri.org/resource/survey-syrian-opposition-reveals-desire-international-intervention

- Kawakibi, Salam (2007) ‘Political Islam in Syria’, CEPS Working Document No. 270/June, Centre for European Policy Studies, Brussels, online: http://aei.pitt.edu/11726/

- Kawakibi, Salam (2013) ‘What Might have Been: a decade of civil activism in Syria’, Open Democracy, London, 11 March, online: https://www.opendemocracy.net/salam-kawakibi/what-might-have-been-decade-of-civil-activism-in-syria

- Khalaf, Roula and Abigail Fielding Smith (2013) ‘Qatar bankrolls Syrian revolt with cash and arms’, Financial Times, 16 May, online: http://www.ft.com/cms/s/0/86e3f28e-be3a-11e2-bb35-00144feab7de.html#axzz3oW3SeESu

- KNN (2014) ‘Indian delegation to monitor Syria election on June 3’, Kohram, 2 June, online: http://www.kohraam.com/international/indian-delegation-to-monitor-syria-election-on-june-3/

- Landis, Joshua (2012) ‘Election Results of the May 7, 2012 Syrian Elections’, Syria Comment, 20 May, online: http://www.joshualandis.com/blog/election-results-of-the-may-7-2012-syrian-elections/

- Landis, Joshua and Joe Pace (2007) ‘The Syrian Opposition’, The Washington Quarterly, Vol 30 No 1, Winter 2006-2007, 45-68

- LCC (2011) ‘Syrian Local Coordination Committees on Taking up Arms and Foreign Intervention’, Local Coordination Committees of Syria in Jadaliyya reports, 29 August, online: http://www.jadaliyya.com/pages/index/2539/syrian-local-coordinating-committees-on-taking-up-

- LCC (2013) ‘Dignity Strike ... We make our revolution by our own hands’, Local Coordination Committees of Syria, December, online: http://www.lccsyria.org/3528

- MESI (2009) ‘Assad is most popular Arab leader, according to poll’, Middle East Strategic Information [citing the University of Maryland and Al-Zughbi International Foundation for Polls], 22 May, online: http://mesi.org.uk/ViewNews.aspx?ArticleId=2461

- Mneimneh, Hassan (2012) ‘The Arab Spring: a Victory for Islamism?’ Brussels Forum Paper Series, Washington, March, online: http://www.gmfus.org/publications/arab-spring-victory-islamism

- Mroue, Bassem and John Heilprin (2012) ‘Syria Elections: Opposition Boycotts, US Says Vote ‘Borders On Ludicrous’’, The Huffington Post, 8 May, online: http://www.huffingtonpost.com/2012/05/08/syria-elections-ballots-tallied-parliament_n_1499094.html?ir=Australia

- Mufti, Malik (1996) Sovereign Creation: pan-Arabism and Political Order in Syria and Iraq, Cornell University Press, London

- Narwani, Sharmine (2015) ‘Ten years on, Lebanon’s ‘Cedar Revolution’’, RT, 13 March, online: http://rt.com/op-edge/240365-lebanon-revolution-anniversary-cedar-2005/

- Otrakji, Camille (2011) ‘No Revolution in Syria: an interview with Camille Otrakji by Elias Muhanna’, MRZine, Monthly Review, 3 May, online: http://mrzine.monthlyreview.org/2011/otrakji030511.html

- Otrakji, Camille (2012) ‘The real Bashar al Assad’, Conflicts Forum, 2 April, online: http://www.conflictsforum.org/2012/the-real-bashar-al-assad/

- Pechter Polls (c2013) ‘Survey: Syrian opposition want ‘no-fly’ zone’, online: http://www.pechterpolls.com/survey-syrian-opposition-want-no-fly-zone/

- Perthes, Volker (2004) Syria Under Bashar al Assad: Modernisation and the limits of Change, Adelphi Papers, Oxford University Press, London

- Pew Research Centre (2013) ‘The World’s Muslims: religion, politics and society’, Pew Forum on Religion and Public Life, April 30, online: http://www.pewforum.org/Muslim/the-worlds-muslims-religion-politics-society.aspx

- Ramadani, Sami (2012) ‘Between Imperialism and Repression’, Information Clearing House, 13 June, online: http://www.informationclearinghouse.info/article31570.htm

- Rasas, Mohammed Sayyed (2013) ‘From 2005 to 2013: The Syrian Opposition’s Many faces’, Al Akhbar, 19 March, online: http://english.al-akhbar.com/node/15287

- Reuters (2014) ‘Islamic State appeals to only four percent of Syrians: Poll’, 8 July, online: http://www.reuters.com/article/2014/07/09/us-syria-crisis-poll-idUSKBN0FE00720140709

- Rosen, Nir (2012) ‘Q&A: Nir Rosen on Syria’s armed opposition’, Al Jazeera, 13 Feb, online: http://www.aljazeera.com/indepth/features/2012/02/201221315020166516.html

- SANA (2015) ‘500 Families of Working Class Martyrs Honoured in Damascus’, 10 July, online: http://sana.sy/en/?p=47888

- Seale, Patrick (1988) Asad: the struggle for the Middle East, University of California Press, Berkeley CA

- Sen, Kasturi; Waleed Al-Faisal and Yaser Al-Saleh (2012) ‘Syria: effects of conflict and sanctions on public health’, Journal of Public Health, Vol. 35, No. 2, pp. 195–199

- Shadid, Mohammed K. (1988) ‘The Muslim Brotherhood Movement in the West Bank and Gaza’, Third World Quarterly, Vol 10 No 2, April pp.658-682

- Solomon, Jay and Bill Spindle (2011) ‘Syria Strongman: Time for Reform’, Wall Street Journal, 31 January, online: http://www.wsj.com/articles/SB10001424052748704832704576114340735033236

- TESEV (2012) ‘The perception of Turkey in the Middle East 2011’, Türkiye Ekonomik ve Sosyal Etüdler Vakfi, Istanbul, February, online: http://www.tesev.org.tr/the-perception-of-turkey-in-the-middle-east-2011/Content/236.html

- Ulutas, Ufuk (2011) ‘The Syrian Opposition in the making: capabilities and limits’, Insight Turkey, Vol 13 No 3, 87-106, online: http://insightturkey.com/insight-turkey-volume-13-no-3/issues/29

- Veldkamp, Joel (2014) ‘Resurgence of the SSNP in Syria: an ideological opponent of the regime gets a boost from the conflict’, Syria Comment, 19 December, online: http://www.joshualandis.com/blog/resurgence-of-the-ssnp-in-syria-an-ideological-opponent-of-the-regime-gets-a-boost-from-the-conflict/

- VOA (2014) ‘Assad: No Syrian Elections with Foreign Observers’, Voice of America, online: http://www.voanews.com/content/assad-rules-out-syrian-elections-with-foreign-observers/2932940.html

- Wikas, Seth (2007) ‘Battling the Lion of Damascus’, Washington Institute for Near East Policy, Policy Focus #69, May, online: http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/battling-the-lion-of-damascus-syrias-domestic-opposition-and-the-asad-regim

- Wikstrom, Cajsa (2011) ‘Syria: A Kingdom of Silence’, Al Jazeera, 9 February, online: http://www.aljazeera.com/indepth/features/2011/02/201129103121562395.html

- World Tribune (2013) ‘NATO data: Assad winning the war for Syrian’s hearts and minds’, 31 May, online http://www.worldtribune.com/2013/05/31/nato-data-assad-winning-the-war-for-syrians-hearts-and-minds/

جهاديو الإمبراطورية



يشترك الإسلامويون الطائفيون في الأيديولوجيّة ويعملون معاً، في معظم الأوقات.

الصورة: جبهة النصرة

قد يسأل مراقبٌ ذكيٌّ: من هم هؤلاء المتعصبون الطائفيون الأشرار الذين يقطعون الرؤوس، والذين يبدون وكأنهم إلى حدٍّ ما في الصفِّ الإسلاميِّ، وإن كانوا غالباً يَظهرون في صفِّ القُوى الكبرى (الإمبريالية)؟(*) لا يكمن الجواب عن هذا السؤال في الدينِ الإسلاميِّ، وإنَّما في ظاهرتين تاريخيتين محددتين: أعني: الوهابية في السعودية، والإخوان المسلمين: الجماعة الأكثر انتشاراً وتنظيماً. دعونا ننظر في ذلك التاريخ.

(*)يشير هنا المؤلف إلى التناقض السلوكي لهذه الجماعات، (المترجمة).

تستند الوهابيةُ إلى شبكةٍ من إقطاعٍ تابعٍ لـ (ملكيات وإمـارات ومـشيخات) الخليج، بقيادة المملكة العربية السعودية، بينما لدى جماعة الإخوان المسلمين، التي بدأت في مصر، تاريخها الخاص من المنافسة الحقودة مع القومية العلمانية. فهؤلاء "الإخوان" طـوروا آراءً سـلفيّةً طائفيّـةً، مماثلـة لآراء دول ذات نزعـاتٍ وهابيّة، بسبب تمويلها لهم، ولا شك في أنَّ تلك الآراء تحـدُّ مـنً شـعبيتهم في العالمين العربي والإسلامي المتسامحين عموماً.

إنَّ ما يفاقم ضـعفهما هـذا (ضـعف شـعبيتهم)، هـو أنَّ للوهابيّـة وكـذلك للإخوان تاريخـاً طـويلاً مـن التعـاون مـع القُـوى الكـبرى (الإمبرياليـة)، ضـد خصومهم المحليين. إنهم الأشخاص الذين شوَّهوا فكرة "الجهاد"، وهو مفهـوم له تقديره العالي في الإسلام فهو يعني الكفاح النزيه والروحي، وحولوه إلى رؤية "الجهاديين"' البغيضين الذين يرتكبون الجرائم الوحشية. هـؤلاء الـذين يرتكبـون الفظائع لا يمثلون المسلمين الـسُّنَّة، إلا إذا كـان القتلـة العنـصريون في أمريكـا الشماليّة الذين ينتمون إلى الكلو كلوكس كـلان(*) (Klu Klux Klan)، يمثلـون المسيحية.

إنَّ تاريخَ الوهابيين والإخوان المسلمين، القائم على التعـصب والطائفيـة، يقوِّضُ أيَّ فكرة تخطر في البال عن أنَّ هذا الشكلَ من الإسلامِ السياسيِّ، يمكن أن يُسهم يوماً ما في ترسيخ الديمقراطية الوطنيَّةِ والاسـتقرارِ الإقليمـيِّ والتعـاونِ بين الجوارِ أو التنمية البشرية.

ويتعاون التياران مع بعضهما بعضاً، ولكن هناك أيضاً عناصرَ مهمَّـةً في مجـال المنافسة بينهما. فعلى سبيل المثال، في بداية التمـرد في سـورية بـدأت إمـارة قطـر النفطية الصغيرة كمموّل للإسـلامويين المـرتبطين بجماعـة الإخـوان المـسلمين في 'الجيشِ السوريِّ الحرِّ'. إلا أن العائلة المالكة السعودية لم تكـن أبـداً لتثـق بجماعـة

(*) كلو كلوكس كلان تسمية تُطلق على عدد من المنظمات الأخوية في الولايـات المتحـدة، تـؤمن بالتفوق العرقي للبيض ويمارس أتباع هذه المنظمات العنـف ضـد الأفارقـة وشـعارهم الـصليب المحروق، (المترجمة).

الإخوان (المسلمين)، حيث إن تنظيمهم الواسع يمثل منافسة محتملة لتطلعاتها، وبالتالي تهديداً لقوة أكبر الملكيات الخليجية (Zambelis 2013; Yigit 2014). لذلك فضّل السعوديون أن يستمروا في دعم مجموعة من الجماعات السلفيَّة المختلفة المُدوَّلة (internationalized)، وغير المستقلة (أي تلك التي ليس لديها قاعدةُ دعمٍ اجتماعيٍّ محليٍّ حقيقيٍّ كبيرةٍ)، وتقف على مسافة من جماعة الإخوان المسلمين، مثل جماعات تنظيم القاعدة والنُّصرة، و ("داعش") و"الجبهة الإسلامية". وكان على قطر بوصفها شريكاً صغيراً أن تفعل الشيء نفسه في نهاية المطاف (Pandey 2014). قام السعوديون وحكومة رجب طيب أردوغان في تركيا في عام 2015 بإعادة إطلاق بعض هذه الجماعات، التي تقودها النُّصرة، تحت تسمياتٍ جديدة، في "جيش الفتح" (Mezzofiore 2015; MEC 2015). حيث ظهرت مجموعات صغيرة نتيجة البحث عن المال والسلاح من الممولين الخارجيين.

يقدّم هذا الفصل وصفاً للتاريخِ الطائفيِّ للوهابيّين والإخوان المسلمين في الشرق الأوسط، وكيف ولماذا حدث أن تعاونوا بشكل وثيق مع القوى الكبرى (الإمبريالية). ومن ثم يقدم لمحة وجيزة عن تمردهم في سورية.

الإمبريالية، الوهابيون والإخوان

إنَّ للإسلام توجُّهاً مُجتمعيّاً قويّاً وشاملاً، على المستوى السيسيولوجي، ويعترف بالتعددية ويحثّ على التسامح. ويشدد القرآن الكريم على الرحمة، وينبذ الإساءة للجماعات الأخرى (Quran 49:11)، ويحث على التعاون فيما بين الجماعات المختلفة من المؤمنين (Quran 5:69, 5:48). كما أنّه لا توجد سلطة مركزية فيه، إذ انبثقت على مرِّ القرون صورٌ لكيانات طائفيّة صغيرة ولكنها مؤثرة. وعلى الرغم من هذا، فإن التسامح و"العلمانية"، بمعنى الحكم السياسي غير المرتبط بعقيدة دينية معينة، كان منتشراً على نطاق واسع في منطقة الشرق الأوسط. وفي هذا السياق يستشهد بختياري ونورتون (2005) بالكتّاب المصريين والسوريين والإيرانيين المعاصرين المؤثرين والذين يعززون التسامح والتنوع

بطرق مختلفة، ودون التخلي عن الهُويَّة الإسلامية. إلا أن الكاتب السوري محمد شحرور يساوي "خلافة" الإمبراطورية العثمانية بـ"الاستبداد"، هذه الإمبراطورية التي نجح مصطفى كمال أتاتورك في الإطاحةِ بها (Baktiari and Norton 2005: 39). وكانت هذه الإمبراطورية ظاهرة سياسية، وليست مشروعاً دينياً.

إنَّ الاستبداد والطائفية هما بدعتان سياسيتان على نحوٍ كبير، أكثر من كونهما تعبيراً عن القيم الدينية. وقد أشار كارول (Carroll) إلى أنه وفي حين أن الإسلام هو «واحد من أهم المصادر القوية للهُويات السياسية العربية»، فإن تأثيره في تشكيل المجتمع السياسي يعتمد على «ظروف جيوسياسية» محددة (Carrol 1986:186). وبالمثلِ، كتب محمد أيوب عن التيار الإسلاموي بوصفه «أيديولوجية سياسية وليس بناءً لاهوتيّاً. وهو يختلف من منطقة إلى أخرى، وهذا يتوقف على البيئة الاجتماعية والقوى الخارجية» (Carroll 1986: 186).

ولئن كان تاريخ وسوسيولوجيا التيارات الإسلامويّة يختلفان اختلافاً كبيراً، إلا أنَّ الشرق الأوسط فيه ما يجعل هذه التيارات نفسها تتقارب بوساطة الاستناد إلى بعض"القوى الخارجية" المشتركة بينها . أولاً، إنَّ من بين تلك القُوى المشتركة هناك دور قوى الهيمنة، بما في ذلك القوى الاستعمارية السابقة. وقد شهد القرن الماضي انخراطاً مستمراً من قبل هذه القوى، في تضافر للجهود للسيطرة على المنطقة الغنية بالنفط والغاز. ثانيّاً، يُعَدُّ دعمُ القُوى الكبرى (الإمبريالية) لدولةِ إسرائيل عامل تكييفٍ في هذا الاتجاه. ويُوضِّحُ أيوب ذلك بقوله: إنَّه: «ما لم يتم الإقرار بإسهام هذه العوامل الخارجية الخطيرة في نموّ الجاذبية الشعبية للتيار الإسلامويّ، فلن يكون من الممكن تماماً فهم هذه الظاهرة» (Ayoob 2005: 960-961).

كما أنَّه باستثناء البديل الإيراني، فإن "الإسلام السياسي" كما تطور في الشرق الأوسط يدور حول اثنين من التيارات المؤثرة، أعني: الوهابية والإخوان المسلمين. والحقيقة أنَّ التوجُّهَ الإسلاميَّ الذي تطور في إيران المعاصرة فيه اثنين من الاختلافات التاريخية الهامة. في المقام الأول، سُحقت القومية العلمانية في

إيران على نحو فعَّال عن طريق انقلاب مدعوم من الولايات المتحدة في الخمسينات، وتفاقم الأمر نتيجة لقمع استمر لربع قرن لاحق في ظل حكم الشاه، الذي كان مَلكاً دكتاتوريّاً. هذه الديكتاتورية المدعومة من الولايات المتحدة، التي امتزجت مع عناصر من الثقافة الغربية، كانت التجربة التي عاناها جيل كامل. وقد تم تنظيم المقاومة في الغالب من خلال المساجد (رغم إسهامات الشيوعيين) وكانت صياغة المفاهيم الإسلامية ذات دور محوريٍّ في طرد الشاه والتخلص من نفوذ الولايات المتحدة. وهكذا تطورت جمهورية إيران الإسلامية لتكون قوّةً شعبية معادية للإمبريالية (Ayoob 1979: 543)، على عكس الإخوان المسلمين الذين اعتمدوا على المساعدات الخارجية في محاولاتهم لعزل القومية العلمانية المحلية.

لقد بُنيت في كلٍّ من مصر وسورية الأنظمة القومية العلمانية، مع تقاليد قوية من معاداة الإمبريالية، حُوفِظَ عليها حتى يومنا هذا. لكن هذا المحور ضعف عندما بدأ التعاون بين الحكومة المصرية والولايات المتحدة وإسرائيل في أواخر السبعينات، بيد أنَّ سورية صانت استقلال سياستها الخارجية. كما أنَّ التحالفَ الحاليَّ بين إيران وسورية مستند بشكلٍ أساسٍ إلى الاشتراك في معاداة الإمبريالية. وبالكاد يكون من قبيل المصادفة أنَّ هذين البلدين هما الدولتان الوحيدتان في المنطقة اللتان لا تستضيفان قواعد عسكرية أمريكية، وبالتالي فهما على حدٍّ سواء عُرضة لضغوط كبيرة لـ"تغيير النظام". وهناك اختلافٌ آخر فيما يخص إيران يتعلّق بكون الغالبية العظمى فيها (حوالي 90٪) هم من المسلمين الشيعة. وفي حين أن قضية الردّة مسألة مثيرة للجدل في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، يجب أن ينظر إلى تلك الجمهورية في سياق ثقافة أُحادية الدِّين تقريباً في داخل إيران، مع وجود حساسية تجاه وضع الأقليات الشيعية في دول المنطقة، مثل: باكستان وأفغانستان ولبنان وسورية ومصر. وباستثناء البهائيين(*)،

(*) البهائية ديانة وضعية انتشرت في إيران، مؤسسها هو علي محمد المولود بشيراز سنة 1819، وكان أبو محمد رضا الشيرازي يزعم أنه ينتسب إلى بيت النبوة، وتتسم البهائيّة بنزعة نحو ديانة عالميّة. وقد انتشرت المحافل البهائية في كثير من البلدان. وقد كان هناك محفل بهائي في القاهرة، (المترجمة).

الذين يُعَدّون الطابور الخامس لإسرائيل، فقد عُوملت الأقليات بشكل جيد في إيران. الأهم من ذلك، لا يبدو أنَّ هناك مقابلاً إيرانيّاً شيعيّاً للمذهب الوهابيّ السلفيّ من حيث النزعة نحو التكفير، بمعنى: أنَّ الإيرانيين الشيعة متسامحون مقارنةً بالوهابيين الذين ينزعون نحو تكفير الناس والاعتداء عليهم لمجرد أنهم من عقيدة مختلفة.

ولذلك، وللأسباب المذكورة أعلاه، أقترح، أن تطبق مجموعة مختلفة من الاعتبارات عند النظر في الإسلام السياسيِّ في إيران، هذا من ناحية. من ناحية أخرى، توجد شبكة سلفية مشتركة في مصر وفلسطين والأردن ولبنان وسورية والعديد من دول الخليج، عملت على تنسيقها لمدّة قرن تقريباً مجموعة معظمها سريّة تُعرف باسم جماعة الإخوان المسلمين. وبما أنَّ هذه الشبكة تمثل فعلاً تياراً سلفيّاً متعصباً داخل الإسلام السُّني، ارتبطت مع التيار السعوديِّ الوهابيِّ، وانخرطت في تعاون مع القُوى الكبرى في معظم مراحل وجودها. وحيث إن العلاقة بين الهيمنة الغربية والطائفة الأكثر تعصباً بين الطوائف المسلمة ربما لا يبدو واضحاً من الوهلة الأولى، لذلك هناك حاجة للإضاءة على المزيد من هذا التاريخ.

كان البريطانيون ذوو تجربة بطريقة جعلتهم خبراء العصر في الحكم الإمبراطوري، لكنهم تعلموا الدروس من الرومان إذ أدخلوا قُوى فعَّالة في أسلوب عملهم مهمتها التفرقة، وفعلوا ذلك بَدْءاً من الهند، وصولاً، إلى منطقة الشرق الأوسط.هذا تيمُّناً منهم بما « كان شعار الروماني القديم [فرق تسد](*)». كتبَ عطفاً على هذا الاتجاه اللورد وليام إلفينيستون (Lord William Elphinston) في عام 1859، في تلك المُساءَلَةِ، التي وضعت للتحقيق في تمرد مسلح وقع في منتصف القرن التاسع عشر، «ينبغي أن يكون هذا شعارنا أيضاً» (ورد في Desai 1948: 354). بعد ذلك التمرد أعاد السير جون لورانس (Sir John Lawrence) تنظيم جيش البنغال بمجموعة متنوعة من أفواج مختلفة عرقياً (Mehta and Patwardhan 1942: 57). وبالمثل، كتب وزير الدولة البريطاني تشارلز وود (Charles Wood) في خطاب

(*) أورد الكاتب العبارة اللاتينية "Divide et empera" (Divide and rule)، (المترجمة).

1862 إلى الحاكم العام للهند، اللورد إلجين (Lord Elgin) موجهاً: «لقد حافظنا على قوتنا في الهند من خلال ضرب طرف بآخر، ويجب أن نستمر في القيام بذلك. افعلْ كلَّ ما بوسعك لمنع وجود مشاعر مشتركة توحِّدُ الجميع هناك» (Wood 1862; Pande 1987).

إنَّ حملة "فرِّقْ تَسُد" هذه، ستتناول التأكيد على الانقسامات العرقية في المناهج الدراسية. حيث كتب وزير الخارجية فيسكونت كروس (Viscount Cross) إلى الوالي الاستعماري دوفرين (Dufferin) في عام 1887: «إن هذا الانقسام في الشعور الديني في صالحنا إلى حدٍّ كبير، وأنا أتطلع لبعض النتائج الجيدة من لجنتكم عن التحقيق في التعليم الهندي والمادة التعليمية» (وردت في Pande 1987).

وكذلك الأمر، فإنّه بعد تشكيل جبهة موحَّدة ضد الاستعمار، وتأسيس المؤتمر الوطني الهندي، بحث الإداريون البريطانيون عن سبل لبثّ التفرقة. ولذلك كتب وزير الخارجية، جورج فرانسيس هاميلتون (George Francis Hamilton)، إلى الحاكم العام اللورد كيرزون (Lord Curzon) ما يلي:

«إذا استطعنا تفرقة الحزب الهندوسي المتعلم [حزب المؤتمر العام] إلى جماعتين تحملان وجهات نظر متباعدة على نطاقٍ واسع، ينبغي لنا، من خلال هذه التفرقة، تعزيز موقفنا ضد الهجوم المُحكم والمستمر، حيث إنتشار التعليم يجب أن يعمل لديمومة نظام حكومتنا» (Hamilton in Curzon 1899: Sept 20). إذ كان يعلم أن الإمبراطورية البريطانية غير قادرة على مواجهة شعب موحد.

وبحلول أوائل القرن العشرين أشار ك. ب. كريشنا (K.B. Krishna) (1939) إلى أن مبدأ "فرق تسد" كان يُمارس على نطاق واسع في جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية: بما في ذلك في سيلان، وأيرلندا، وفلسطين وكينيا. ووصف إثارة "الطائفية" باعتبارها عنصراً أساسياً في السياسة الإدارية البريطانية على نحو ما جرى في الهند. إلا أنه أكد أن النضال من أجل الاستقلال الوطني يتطلب معارضة كاملة لهذه "الطائفية" (Desai 1948).

هذا، كما أنَّ بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية، بحث المسؤولون البريطانيون عن متعاونين محتملين، يؤمنون بفكرِ التفرقة في العالم العربي. وكان آل سعود قابلين لتأدية هذا الدور، بعقيدتهم الوهابية الموغلة في التوجه الطائفي. أرعب السعوديون البريطانيين وجذبوهم على حد سواء. كتب ونستون تشرشل (Winston Churchill) أنَّ وهابيي الملك ابن سعود:

«يلتزمون ـ كواجبٍ وكجزءٍ من الإيمان ـ بقتلِ كلِّ من لا يتفقون معهم، ويسبون نساءهم وأطفالهم. وقد قُتلت النساء في القرى الوهابية ببساطة لمجرد ظهورِهن في الشارع» (Churchill 1921).

ومع ذلك، يكتب تشرشل في وقت لاحق: «كان إعجابي بـ[ابن سعود] عميقاً، بسبب ولائه الراسخ لنا» (Churchill 1953). وأشارت مذكرة حكومية بريطانية من منتصف الأربعينات إلى أنَّ «نفوذ ابن سعود في الشرق الأوسط كبير جداً، وأن هذا النفوذ استخدم باستمرار لعدة سنوات لدعم سياستنا» (Wikeley 1945 انظر أيضاً Sheikh 2007: 47,). وعندما ظهر الرئيس المصري جمال عبد الناصر في الخمسينات بوصفه بطل القومية العربية - بعد تأميم قناة السويس وانتصاره على الغزو البريطاني والفرنسي المخطط له – بدأت واشنطن تنظر براغماتيّاً إلى العائلة المالكة السعودية.

وقد قيل إن الرئيس الأمريكي أيزنهاور (Eisenhower) كان يبحث عن: خطة مكيافيلية من الدرجة العالية لتقسيم العرب وهزيمة أهداف "أعدائنا" [الاتحاد السوفيتي] من خلال دعم الملك سعود وجعله ثقلاً موازياً لعبد الناصر. وقال أيزنهاور: «يمكن أن يُدعم الملك ليصبح الزعيم الروحي. وعندما يتحقق هذا، عندها نبدأ في الحثّ على حقه في القيادة السياسية» (وردت في Curtis 2012, 62, 68). إن العلاقة الوثيقة بين الولايات المتحدة والسعودية، حتى يومنا هذا، ليست مجرد علاقة قوة عالمية أو علاقة مع بارون نفط، بل إنها علاقة قوة عظمى مع متعاونٍ سياسيٍّ وكيل صاحبِ دور رئيس في المنطقة، متعاونٍ ذي سجل حافل بالتحريض على الانقسام.

كان الشريك الإقليمي الآخر، أعني: جماعة الإخوانَ المسلمين، أقل موثوقية ولكن كان لدى هذه الجماعة شبكة شعبية أوسع. تشكلت جماعة الإخوان المسلمين على يد حسن البنا في مصر في العشرينات من القرن المنصرم. عارضت الجماعة في البداية النفوذ البريطاني، حيث كانت تريد الاستقلال، لكن وجهات النظر والأفكار السلفية الضيقة (التي تبنتها) جعلتها في منافسة مع القومية العربية، التي كانت أكثر شمولاً وأكثر شعبية. وسرعان ما اتضح من هذه المنافسة أن أتباع البنا، «بدلاً من أن يحشدوا قواهم ضد القوى الاستعمارية أو الإمبريالية غير المسلمة والغربية، بدأوا « بمواجهة الحكام المسلمين» (Butterworth 1992: 35).

حاول البريطانيون في البداية قمع الإخوان المسلمين، في أثناء الحرب العالمية الثانية. لكن الملك فارورق، الموالي لبريطانيا، بدأ بتمويل جماعة الإخوان المسلمين في عام 1940. ويُقال: إن فاروق قد رأى إلى الإخوان بوصفهم « قوةً مفيدة مضادة ... لحزب الوفد القومي العلماني» (Curtis 2012: 24). وقد عدّت المخابرات البريطانية جماعة الإخوان المسلمين في عام 1941 «الخطر الأكثر تهديداً للأمن العام» في مصر (في Lia 1998: 181)؛ ومع حلول عام 1942 «كانت بريطانيا قد بدأت بالتأكيد تمويل الإخوان» (Curtis 2012: 24). وإن سعوا إلى مزيد من تفرقةِ جماعةِ الإخوان. فقد وافق البريطانيون على أنه «يجب أن تكون هناك محاولات لخلق تفرقة في هذه الجماعة من خلال استغلال أي خلافات قد تحدث بين حسن البنّا وأحمد السكري» (British Embassy Cairo, 1942).

وقيل: إنَّ وكالة المخابرات المركزية، كانت تدعم الإخوان المسلمين، في حين كانت السعودية تمولهم بحلول نهاية الخمسينات. أحبّ السعوديون «السياسة المحافظة المُغالية للإخوان وكراهيتهم الشديدة للشيوعيين العرب» (Draitser 2012). وهكذا كان التياران مختلفين، ولكنهما وجدا الكثير من نقاط الالتقاء. ففي حين بدأت الوهابية بطريقة طائفية علناً، بدأت جماعة الإخوان المسلمين كرد فعل على الهيمنة الأوروبية والغزو الثقافي (Commins 2009: 140-141).

غير أنهما كانتا تهدفان إلى خلق مجتمع مـن المـؤمنين. ومـن خـلال العلاقـات السرية بين القوى الخارجية، حدَّدَ الوهابيون والإخوان شروطاً للتعاون في جميع أنحاء المنطقة.

إنَّ للإخـوان المـسلمين في مـصر تاريخـاً مـن المفاوضـات الـسياسية إلى الاغتيالات والهجمات الطائفية. حُظرت الجماعة وسجن الكثيرون مـن أفرادهـا في ظل الأنظمة كلها تقريباً. في أواخر السبعينات عندما اغتال مسلحون مرتبطون بالإخوان المسلمين الرئيس المصري أنور السادات، كان هناك مزيد مـن القمـع للجماعة، وأعقب ذلك مناقشة عامة عن شرعية الهجمات على "المرتدين". وقد كُتِبَ تبريرٌ للاغتيال على يد عبد السلام فرج، حيث حاجج بـأن المـسلمين قـد أهملوا حتمية الصراع المقدس (الجهاد)، والمعركة ضد الردة. وجـادل بأنـه في التقاليد السلفية التكفيرية، فإن الإطاحة العنيفة بالأنظمـة المرتـدة كـان «الـسبيل الوحيد لضمان إقامة دولة إسلامية حقيقية» (Akhavi 1992: 95). بعدها صدرت فتوى ضد هذا المسلك، فقد أقرّ رجل الدين المصري الرائد المفتي علـي جـاد الحق، بالمراجع القرآنية التي اعتمد عليها فرج ولكنه لفت الانتبـاه إلى 124 آيـة أخرى «تشير إلى الصبر أو نبذ الصراع المسلح مع غير المسلمين في روح الإقناع السلمي» (Akhavi 1992: 95-97). لكن يبدو ألا شيء من هذا قد أثَّـرَ كـثيراً في تكتيكات الإخوان، ناهيك عن القوى الأجنبية.

هذا، وبحلول منتـصف الثمانينـات، وفي إطـار جهودهمـا لطـرد القـوات السوفيتية من أفغانستان، كانت واشنطن ولندن تمـوّلان الإسـلامويين الطـائفيين الأكثر شراسة، بما في ذلك العديد ممن هم معروفون جيداً، بسبب الفظائع التي ارتكبوها ضـد المـدنيين. جـاء الطـائفيون الأفغـان والباكـستانيون مـن الطائفـة الديوبندية(*)، وهم يشبهون في العقيدة والتعصب السلفيين في الخليج. فالحـاج

(*) الديوبندية نسبة إلى بلدة ديوبند و هي في مديرية سهارنفور من مـدن شمـال الهنـد الغربيـة، و توجـد فيها مدرسة دار العلوم الديوبندية، و قد تخـرج منـها الكـثير مـن الهنـود و الباكـستانيين و الأفغـان، و«هي إحدى طائفتي الحنفية في شبه القارة الهندية» للمزيد انظر: سيد طالب الـرحمن، **الديوبنديـة: تعريفها وعقائدها** (الرياض: دار الصميعي للنشر والتوزيع، 1998)، ص 9. (المترجمة).

عبد الحق، الذي اعترف بتفجير طائرة مدنية في عام 1984، قد تم استقباله" عـام 1986 من قبل مارغريت تاتشر (Margaret Thatcher) وروناـلـد ريغـان (Ronald Regan) (Curtis 2012: 145)، على أنه "مقاتل من أجل الحرية". وذهبـت الملايـين مـن المساعدات الأمريكية إلى قلب الـدين حكمتيـار، الـذي اشـتهر بإلقـاء الأسـيد (الأحماض المعدنية)(*) على وجوه النساء، وسلخ جلد خصومه وهم على قيـد الحيـاة، وذبـح الجماعـات المنافـسة. عمـل حكمتيـار بـشكل وثيـق مـع أسـامة بـن لادن، وزار مـسؤولين بريطـانيين في لنـدن في عـام 1986 و 1988 (Keddie 2006: 118; Curtis 2012: 146). وظل مرتبطاً بالنظام الأفغاني المدعوم من الولايات المتحدة. وتمتع السعودي أسامة بن لادن بدعم الولايات المتحـدة في الثمانينات، ولكنه اختلف مع واشنطن حول القواعد العسكرية الأمريكيـة في المملكة العربية السعودية. حيث قام بتنظيم العديد من الهجمـات علـى أهـداف أمريكية في المنطقة، وكان يُشتبه به (ولكن لم يُتـهم أبـداً) بـالتخطيط لهجمـات أيلول/ سبتمبر الإرهابية في 2001 على نيويورك، التي أسفرت عن مقتـل ثلاثـة آلاف شخص. تشير نعوة ابن لادن عام 2011 في صحيفة النيويـورك تـايمز إلى: «أسامة بن لادن "المقاتل من أجل الحرية" في عـام 1989 ... الـذي بـنى شـبكته الإرهابية بمساعدة أمريكية» (Zernike and Kaufman 2011).

كان لدى الإخوان المسلمين قاعدة اجتماعية واسعة، ولكن على المـستوى العملي، بقي برنامجهم الاقتصادي والسياسي بعيـداً عـن الأفكـار الديمقراطيـة والاشتراكية التي تبناها معظم القوميين العرب. وقد سيطر التجار وملاك الأراضي من المستوى المتوسط على الإخوان، وكانت العلاقات الخيرية المجتمعية تصلٍ إلى جميع الفئات. عمل الإخوان «كمجتمعٍ موازٍ: حيث يقدم الأعضاء الأكثر ثراءً لأولئك الأكثر فقـراً الغـذاء والـدواء والملابـس مـن خـلال التبرعـات الماليـة» (Hansen 2012). كما عـززت الجماعـة في مـصر وكـذلك في سـورية الملكيـة الخاصة وعلاقات المؤسسات الخاصة، بما يتفق مع الأجندة الاقتصادية للرعـاة الغربيين العرضيين لها. تقول ماجـدة قنـديل مـن المركـز المـصري للدراسـات

(*) يُقذف على وجه المرأة لتشويهه بحجة أن إظهاره مخالف للشرع، (المترجمة).

الاقتصادية عن جماعة الإخوان المسلمين المصرية: «إنه من السهل جداً الخلط بين برنامجهم الاقتصادي و[برنامج] النظام السابق (العسكري): حيث النمو الذي يقوده القطاع الخاص، واقتصاد السوق الحر، وتقليص دور الحكومة، وتمكين القطاع الخاص»، كما تقول: إنَّ «المفارقة الكبرى هي:عن أي قطاع خاص تتكلمون؟» (Hansen 2012).

تدّعي جماعة الإخوان المسلمين أنها تمثّل جميع المسلمين السُّنة، ولكنها بالتأكيد ليست كذلك. ففي الثمانينات، في فلسطين ذات الأغلبية السُّنيّة، على سبيل المثال، كانت الاستراتيجية السياسية لجماعة الإخوان المسلمين (كما في مصر) تتكون من مرحلة تأسيسية تتجه نحو تحويل الفلسطينيين إلى مجتمع إسلامي، والمرحلة الثانية شن الجهاد ضد إسرائيل. وهذا يعني أن استهداف الوطنيين الفلسطينيين كان له الأولوية على استهداف سلطة الاحتلال. لكن وفي حين أن المجتمع الفلسطيني متدين تماماً، أظهرت استطلاعات الرأي أن 90٪ من السكان الفلسطينيين فضّلوا جدول الأعمال الوطني والموحّد لمنظمة التحرير الفلسطينية (Shadid 1988: 677-680). وحتى جماعات إسلامية سنية أخرى، مثل: الجهاد الإسلامي، بقيت داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وحافظت على علاقات قوية مع كل من السنة والشيعة، بما في ذلك حزب الله وإيران (Shadid 1988: 677). وكانت إسرائيل، من جانبها، تدرك جيداً استراتيجية الإخوان المسلمين، وتعدُّ هذا الانقسام الداخلي شيئاً مفيداً جداً لها. ورأت أن «أي نجاح للإخوان سيكون على حساب القوميين [منظمة التحرير الفلسطينية]. بالتالي فإن هذه الأخيرة سوف تضعف». ومن نتائج ذلك أن «جماعة الإخوان المسلمين عوملت معاملة أقل قسوة [من قبل الإسرائيليين] مما كان عليه الحال مع القوميين» (Shadid 1988: 674-675).

يمكن أن يشير الإسلاميون إلى استطلاعات الرأي التي تُظهر دعماً قوياً للشريعة الإسلامية في المنطقة. فالأغلبية القوية في كثير من البلدان (على سبيل المثال 74٪ في مصر و 89٪ في الأراضي الفلسطينية) يدعمون أن تكون الشريعة (الإسلامية) «القانون الرسمي للبلاد»؛ لكن هذه الاستطلاعات نفسها، تُظهر أن

الأغلبيات القوية تدعم بالمثل الحرية الدينية لأتباع الديانات الأخرى. وهذا يختلف تماماً عن الفكرة الشريرة والطائفية "التكفيرية" للسلفيين. ويقال: إن المعاداة للسلفيّة، تعود جزئياً إلى فكرة أن الشريعة لا تنطبق إلا على المسلمين، ويرجع ذلك في جزء منه إلى الآراء المختلفة على نطاق واسع عن حقيقة المقصود بالشريعة، كما يرجع في جزء آخر منه إلى الخلافات حول الدور الذي يجب أن تلعبه القيادات الدينية في السياسة (Pew Research Centre 2013: 9).

ويضاف إلى ذلك أنَّ أغلبيةً قويّةً من المسلمين في معظم البلدان (على سبيل المثال 67٪ في مصر، 67٪ في تونس و 68٪ في العراق) تشعرُ بالقلق من الجماعات المتطرفة عامةً، وخاصةً فيما يتصلُ بالمتطرفين الإسلامويين (Pew Research Centre 2013: 11). فقد أظهر استطلاع للرأي عام 2015 أنَّ فلسطينيين أقلاء تعاطفوا مع الحركات السلفية (بما في ذلك "داعش") التي ظهرت في غزة. وأظهر استطلاع مركز القدس أن 3.8٪ من الفلسطينيين كانوا «متعاطفين جداً»، و 17.8٪ كانوا «متعاطفين باعتدال» وكانت نسبة 64.9٪ من «غير المتعاطفين». لكن هناك نسبة (71.1٪ من غير المتعاطفين في غزة) مع هؤلاء الطائفيين المتطرفين (JMCC 2015). كل هذا يدل على أن الهجمات المنفذة بأسلوب السلفيين على (غير "المؤمنين" أو الكفّار) تحظى بالقليل من الدعم بين المسلمين.

ومع ذلك، فإنَّ طائفيَّةَ جماعةِ الإخوان أقلقت من البداية الأقليات -جميع المسلمين من غير السلفيين (غالبيتهم سنة، وكذلك نجد فيهم شيعة وعلويين) بالإضافةِ إلى المسيحيين والدروز وغيرهم- وقد شعرت الأقليات أنفسها أنها لوقتٍ طويل في وضع "صامدٍ" في مواجهة النهج التمييزي والخطير للإخوان المسلمين (Hourani 1947: 21-25).

هذا، وإدراكاً منها لتأثير الطائفية، قامت القوى الإمبريالية بتحالفات في بعض الأحيان مع جماعة الإخوان، حيث إن هذه الأخيرة هي «التنظيم الإسلامويّ الأكبر والأقدم والأكثر تأثيراً». وكان من الواضح لهذه القوى نفسها أنَّ جماعة الإخوان المسلمين لديها الكثير من الطائفية البشعة، لكن ما عدّته الولايات المتحدة مهماً في منظورها هو أنَّ «هناك تياراً داخل جماعة الإخوان المسلمين

على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة»، ربما لجعل العلاقة أكثر قبولاً، وثمة من يقول أو يتصور أنَّ «هذا التيار يقف وراء دفع الكثير من الإخوان نحو الاعتدال» (Leiken and Brooke 2007: 107). واتساقاً مع هذه الرؤية يظهر أنّه «على صنّاع القرار السياسي أن يدركوا تماماً أن الإخوان المسلمين يمثلون فرصة ملحوظة». هذا النهج يتحدث عن «فَرِّق وانخَرط»، واعتماد نهج «حالةٍ بحالةٍ» في مجال التعامل مع الإخوان المسلمين (Leiken and Brooke 2007: 121). يدل ذلك أيضاً على الاستحسان المستمر لاستراتيجية الهيمنة لدى الإخوان.

جهاديو الإمبراطورية في سورية

عندما اندلع "الربيع العربي" في تونس، ثم في مصر وليبيا، استفادَ كلٌّ من الجماعات السلفيّة والإخوان المسلمين من التغيير. وقد شهدت سورية تمرداً إسلاموياً مسلحاً آخر، تحت غطاء احتجاجات الإصلاح السياسي.

كان لفكرة الإخوان المسلمين «المعتدلين»، والذين يختلفون مع الجهاديين العنيفين، بعض الجاذبية في الكتابة الغربية (على سبيل المثال Leiken and Brooke 2007: 107)، ولكن القليل من التأسيس (لفكرة اعتدالهم) يمكن ذكره في التجربة السورية. في الواقع، كانت أفكار "التكفيريين" المتطرفة، التي تُتيحُ الاعتداء على أتباع الديانات وقتلهم (al-Amin 2012) جزءاً من عقيدة الإخوان في سورية على الأقل منذ أواخر السبعينات. وشجعت الجهات السعودية الوهابية الراعية للتمرد في سورية عام 2011 على هذه الأفكار، ويبدو أن هذه الأفكار أصبحت جزءاً لا يتجزأ من توجهات معظم الجماعات المسلحة. وعلى الرغم من بعض التغيرات، في غضون فترة زمنية قصيرة جداً، كانت زعامةُ كلٍّ من القيادة السياسية "للثورة" في الخارج والمجلس العسكري الأعلى لـ'الجيش السوري الحر' في القبضات المحكمة للجماعات السلفيّة، التي يسيطر عليها الإخوان (Barkan 2013: 5).

وإذا سألنا: ما الذي يميز جماعة الإخوان المسلمين في سورية؟ سوف يكون الجواب: أن لها تاريخها وخصائصها، على الرغم من أن مواقفها العلنية كافة،

كانت تتناغم مع جماعة الإخوان المصرية، بما في ذلك الحكومة التي كانت بقيادة جماعة الإخوان المسلمين في القاهرة واستمرت لوقت محدود (Draitser 2012). والحقيقة التاريخية تدل على أنَّ هذه الجماعة جاءت إلى سورية من مصر وطورت حركة برلمانية في أواخر الأربعينات، لكن بحلول الستينات، بدأت في مهاجمة القادة العلويين في حزب البعث بتهمة الكفر، وبحجة أنهم لم يتمكنوا من تمثيل المسلمين. ومن ذلك الوقت دخلت جماعة الإخوان في معارك مع الحكومة العلمانية (Teitelbaum 2004: 135, 154).

تقدم جماعة الإخوان ممثليها كناطقين طبيعيين باسم "الطائفة السُّنية"، وتحاول أن تضفي على صراعها مع الحكومة البعثية طابع أنه «صراع بين السُّنَّة والعلويين» (Batatu 1982: 13). ومع ذلك، وفقاً لبطاطو، لم تكن المعتقدات الدينية لأهل السُّنَّة هي المهدّدة من البعثيين، يكمن التهديد في أنَّ «المصالح الاجتماعية للعناصر العليا والوسطى لطبقاتهم الزراعية والتجارية والصناعية»، رأت ميزة في الإخوان(*) (Batatu 1982: 13). أكد برنامج جماعة الإخوان المسلمين، شأنه في ذلك شأن الحزب الأم في مصر، على الحريات الليبرالية ونقل مؤسسات الدولة إلى أيدي القطاع الخاص، بما يتفق مع «تطلعات ومصالح الطبقة التجارية والصناعية من السُّنة في المناطق الحضرية (Batatu 1982: 13-14) . فظل العلمانيون العرب والسوريون في القطاع الحكومي القوي.

في أوائل الستينيات تم تهميش جماعة الإخوان المسلمين، عندما تمت الوحدة لمدة محدودة بين مصر وسورية (الجمهورية العربية المتحدة)؛ إنها وحدة قامت على أساس ميثاق تضمن «مزيجاً مذهلاً من ... [الأفكار] بالإضافة إلى المشاعر القومية والدينية ـ الاشتراكية الماركسية(**)، جنباً إلى جنب مع

(*) هذا الرأي غير موضوعيّ، لأن المجتمع السوري لا ينقسم اقتصاديّاً إلى طبقات يُمكن أن ترد كل طبقة منها إلى طائفة معينة، (المترجمة)

(**) لم تكن الاشتراكية التي تبناها الرئيس جمال عبد الناصر ماركسية وفد تم توضيح الفروق، (المترجمة).

الثورية المصرية والقومية العربية مع الأممية، والسياسة العَلمانية مع المبادئ الإسلامية» (Najjar 1968: 184). إلا أن الإسلام لم يُعلن بوصفه دين الدولة في دستور الجمهورية العربية المتحدة (Parker 1962: 19)، ولم يدخل في الدستور السوري. وقد انهارت الجمهورية العربية المتحدة بعد وقت قصير.

أبقى حافظ الأسد، الذي جاء إلى سدة الرئاسة في سورية في عام 1971، على الإسلام بعيداً عن الدستور السوري؛ ولكن وافق على حل وسط مع قادة الإخوان، حيث كان يبغي أن يكون رئيس الدولة مسلماً. وفي عام 1972 أتى بأحد كبار رجال الدين الشيعة العراقيين(*) للاعتراف بالعلويين على أنهم فرع من الطائفة الشيعية على الرغم من هذا، استمرت جماعة الإخوان بالنظر للرئيس حافظ والعلويين على أنهم ليسوا مسلمين (Talhamy 2009: 566-7). أدخلت الحكومة البعثية في الدولة السورية نوعاً من التعددية التي يتم بموجبها الاعتراف بجميع الأديان، وهذا يعني، كل المذاهب من المسلمين والمسيحيين والدروز وغيرهم. وقد أشرف على هذا النظام مفتي الجمهورية، وعالم مسلم رائد ومحترم، ووزير الأوقاف.

أصبحت معارضة جماعة الإخوان المسلمين للحكومة البعثية وتعدديتها الدينية أكثر عنفاً في أواخر السبعينات (Batatu 1982: 19-20). وعلى الرغم من مذهبهم الضيق قيل إنهم استمدوا إلهامهم من "الثورة الإسلامية في إيران" عام 1979، على الرغم من أنها كانت حركة مسلمين شيعة، وسعوا وراء مساعدة إيران ضد سورية العلمانية. إلا أنهم لم يتلقوا رداً على الإطلاق من الزعيم الإيراني آية الله روح الله الخميني (Batatu 1982: 13). بعد فترة وجيزة من ذلك، شدد سعيد حوا، وهو قيادي في جماعة الإخوان السورية، «على أن أهل السنة هم المجتمع الإسلامي الحقيقي، وبالتالي أسهم في تعميق الفجوة بين

(*) رجل الدين هو الإمام موسى الصدر، وهو لبناني ليس عراقياً. لكن الإشارة إلى أن اعتراف الصدر بالعلويين كان بناء على طلب من الرئيس حافظ الأسد يبقى في إطار الأقاويل، (المترجمة).

الإخــوان المــسلمين وإيــران» (Talhamy 2009: 570; Batatu 1982:13). هذا الموقف المناهض للشيعة يرتبط بنظرية الوهابية عن "التهديد الشيعي" الـذي يمثله كلّ من إيران وسورية وحزب الله، محاولاً «إثارة المخاوف ... من سـيطرة شيعية ممكنة على سورية والدول السنيّة الأخرى» (yTalham 2009:597).

مع وجود نظام البعث الراسخ، حُظرت جماعة الإخـوان بـسبب هجماتهـا العنيفة، وبما أنَّ الرئيس حافظ الأسد، كان يظهر القليل من التنـازلات، بـدأت الشبكة الطائفية سلسلة من التحركـات المتمـردة الدمويـة. وقـد تجلـت النزعـة التكفيريـة للجماعـة في عـام 1979 عنـدما شـنّت سلـسلة مـن الهجمـات علـى العلويين، وكذلك علـى المـسؤولين الحكـوميين، بمـا في ذلـك مجـزرة بحـق عــشرات مــن الطــلاب العلــويين الــضباط في مدرســة عــسكرية في حلــب (Seale 1988:325). وأعدمت الحكومة العديـد مـن أعـضاء جماعـة الإخـوان المسلمين، متهمةً الحركة بأنها تابعة لإسرائيل والولايات المتحدة. وفي نيـسان/ أبريل 1980 خلفت الاشتباكات المسلحة في حلب أكثر من ألـف قتيـل (Seale 1988: 328; Talhamy 2009: 567).(للمزيد عن التمرد الأخير الـذي فـشل في حماة، انظرْ: الفصل الثالث).

إن صـعود "جـيش سـوريٍّ حـرٍّ" في2011 ـ وهـو لـيس بجـيشٍ ذي قيـادة مركزية، وإنما يتألف من عدد من المجموعات المنسقة بشكل غـير محكـم مـن خلال الممولين وموردي الأسلحة ـ كان قُدّم على نحـو مغلـوط في الكـثير مـن الروايات الغربية على أنه تطور عضوي عن مظـاهرات الاحتجـاج المَدنيـة، مـع حشد لجان دفاع ذاتي. لقد كان، في كثير مـن النـواحي، إعـادة إحيـاء للفـشل الكبير لجماعة الإخوان المسلمين في مدينة حماة، في وقـت سـابق قبـل تـسعة وعشرين عاماً.

وقد أكد أحد المحللين الأمريكيين الآتي: «بدأ الصراع السوري ثورةً علمانيـة ضد الاستبداد. ولكن كلما طال أمد الصراع ... [كان هناك] وجود صغير ولكنـه متزايد للجهاديين داخل سورية ... وقد استخدم [الرئيس] الأسد التهديـد الـذي شكله الجهاديّون داخل المعارضة لحشد الدعم لصالح النظام» (O'Bagy 2012).

وبالمثـل، يـدعي تقريـر أمريكـي آخـر في 2012 أنَّ: «مقـاتلي المعارضـة في غالبيتـهم العظمـى وطنيـون حقيقيـون، يقـاتلون مـن أجـل حريـة وطنـهم وإقامة دولة ديمقراطية ... ومعظم أفراد 'الجـيش الـسوري الحـر' مـن الـورعين أكثر من كونهم من الإسلامويين المتشددين، فهـم لا يعملـون بـدافع الطائفيـة» (Benotman and Naseraldin 2012: 1).

ومع ذلك، يذهب التقرير الأخير إلى تصنيف مجموعات 'الجـيش الـسوري الحر' باسم "الجهاديين"، على أساس أنَّ هدفهم هو إقامة دولة إسلامية: النصرة، ولواء الأمة، وصقور الشام، (والدولة الإسلامية)، وأحرار الـشام (Benotman and Naseraldin 2012: 2).

والسؤال من هـم هـؤلاء "الغالبيـة العظمـى" مـن القـوميين العلمـانيين؟ تـساءلت مجموعة الأزمات الدولية المنحازة للولايات المتحدة (ICG 2012)، بعد أن لاحظـت أنه «لا يمكن دحضُ وجودِ تيارٍ سلفيٍّ قويٍّ بين المتمردين في سورية»، وتحـدثت عـن «تقليد إسلامي معتدل»، واقترحت أن هناك جماعتين «يتعين عليهما تطوير أيديولوجيـة ثابتة» ربما تكونان علمانيتين، هما: "لـواء الفـاروق" و"لـواء خالـد بـن الوليـد"، ومقـرُّ كلتيهمـا في حمـص (ICG 2012: i, 6; also Abouzeid 2012). وقـد كانتـا، في الواقع، القوتين الرئيستين اللتين سيطرتا، على جزء من المدينة القديمة في حمص، في خلال عامي 2011–2012. تطور"لواء الفاروق" ليصبح أكـبر مجموعـة تمـرد تـصل إلى تلك النقطة في الصراع (2012). أطلقت صحيفة الوول ستريت جورنـال (Wall Street Journal) علـى "لـواء الفـاروق" اسـم "الـسُّنة الـورعين" بـدلاً مـن تـسميتهم بالإسلامويين (Malas 2013). ويمكن التدليل في هذا الاتجاه على أنهم في بياناتهم باللغة الإنكليزية في وسائل الإعلام، نأوا بأنفسهم عن الجماعات المرتبطة بتنظيم القاعدة، استجلاباً منهم للدعم الغـربيِّ. ولكـن في سـورية يَعـصبون رؤوسـهم بعُصابات سوداء على غرار تنظيم القاعدة وغالبـاً مـا تكـون لحـاهم علـى غـرار السلفيين (Channel4News 2012). دعت البي بي سـي "الفـاروق" "بالاسـلاميين المعتدلين "، مشيرةً إلى أنهم يبالغون في طـابعهم الإسـلامويّ «لجـذب الـدَّعم المالي من الخليج» (Marcus 2013).

وربما كانت هذه الصورة المعتدلة عنهم تفكيراً رَغْبِيّاً(*) (Wishful Thinking). يلاحظ مرتضى أن «غالبيةَ أعضاء كتيبة الفاروق سلفيون، تمولهم وتسلحهم المملكة العربية السعودية في حين أن «كتيبة خالد بن الوليد كتيبة موالية لجماعة الإخوان المسلمين ومدعومة من قِبَلِها» (Mortada 2012). اتهم لواء الفاروق في أوائل نيسان/ أبريل الماضي بجمع الجزية، أو ما يعرف بالضرائب المفروضة على غير المسلمين الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامويّ، في المناطق المسيحية في محافظة حمص (Al-Haqiqah 2012; Holliday 2012: 27). سمع سكان حمص أتباع "لواء الفاروق" يهتفون بالشعارِ الدمويِّ الآتي: «المسيحيون إلى بيروت، والعلويون إلى التابوت» (Blanford 2011). ثم اتهمت مصادر في الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية "لواء الفاروق" بالتطهير العرقيّ على نطاق واسع بحقِّ عشرات الآلاف من المسيحيين في حمص في أوائل عام 2012 (Agenzia Fides 2012). كان هناك من دافع عن "الفاروق" من المتعاطفين الأجانب معه، حيث قال البعض منهم: إنَّ المسيحيين الذين غادروا حمص فعلوا ذلك فقط بسبب القتال (Al Tamimi 2012).

كان يمكن لهذا القول أن يكون أكثر صدقيّةً، فيما لو كانت أعداد المسلمين الذين غادروا حمص تساوي أعداد المسيحيين المغادرين، لكن هذا لم يحدث بالنسبةِ للمسلمين. إن الفاروق متهم بشكل موثوق بتفجير المستشفى في القصير، بسبب هتافات الإسلامويين "الله أكبر" (0xnevvg3n22 2012)، وقد نشر أنصار الفاروق الشريط نفسه على الإنترنت، محملين "النظام" مسؤولية هذا التفجير» (SyrianDaysOfRage 2012). ومع ذلك، فإن الجيش السوري عموماً لا يمكن أن يطلق مثل هذه الهتافات الإسلامويّة. ولقد كان قائد "الفاروق" السابق، خالد الحمد هو الذي ظهر بشكل رديء السمعة في فيديو في محاولة لأكل قلب جندي سوري ميت (Greenfield 2013b). ويعتقد أن مجموعة خالد بن الوليد مسؤولة عن استخدام طفل لقطع رؤوس السجناء في حمص (HRI 2012). فهل يمكن أن يوصف هؤلاء بأنهم "متمردون معتدلون"؟!

(*) التفكير الرّغْبِيّ: تفكير مبني على الرغبة لا على الحقيقة والواقع، (المترجمة).

وكان هناك عدد من المجموعات الأخرى السلفية ـ الجهادية في الأشـهر الأولى ـ مثل: "عمر بـن الخطـاب"، و"علـي بـن أبي طالـب"، و" أبي بكـر الـصديق"، و"رجال الله"، وكذلك "لواء علـي بـن أبي طالـب"، و"شـهداء ريـف دمـشق"، و"الرديـف الثـوري" (Mortada 2012)، والعديـد مـن الـسلفيين والجماعـات الديوبندية الخارجية، بما في ذلك الجماعة الإسلامويّة الليبيـة المقاتلـة وحركـة طالبان الباكستانية. وجليٌّ أنَّ أيّاً من أنصار نظرية 'الجيش السوريّ الحـرّ العلمـانيّ'، لا يبدو قادراً في هذا الاتجاه على أن يذكر اسم أيـة مجموعـة معينـة ذات نزعـة علمانيّة. وقد اعترفت صحيفة النيويورك تـايمز في عـام 2013 أنـه «لا مكـان في سـورية الـتي يـسيطر عليهـا المتمـردون لأيّـةِ قـوة قتاليـة علمانيـة للحـديث عنها»(Hubbard 2013).

وثمة سمة مميزة للصراع السوري تتأتى مـن مـشاركة واسـعة النطـاق جـداً للجهاديين السلفيين الأجانب، لاسيما منذ عام 2012 فـصاعداً، مـن عـدد مـن البلدان بما في ذلـك المملكـة العربيـة الـسعودية، وليبيـا، وتـونس، والـيمن، والعراق، والشيشان وباكستان وأجزاء مختلفة مـن أوروبـا (Komireddi 2012, Gertz 2013, Kern 2013). وأكد هذا العامل حقيقة أن الصراع لم يكن صـراعاً داخلياً أو "حرباً أهليّةً". لقد استطاع الـسلفيون إطالـة مـدة اعتـداءاتهم، بـسبب مشاركة الآلاف من المقاتلين الأجانب، والذين غالباً ما كانـت تـدفع لهـم قطـر والمملكة العربية الـسعودية، ويتلقـون تدريبـهم في الأردن وتركيـا» (Draitser 2013). وفي الواقع إنَّ الإسلامويين السوريين كانوا قـد هُزمـوا بـشكل كـبير في أوائل عام 2012؛ ولكنهم كانوا قد تعززوا بعدة آلاف من الجهاديين الأجانـب، معظمهم يمر عبر تركيا.

لم تكن القُوى الأجنبية أطرافاً معتدية بشكل مباشر في هذه الحرب القذرة، لأَنَّها اقتصرت على تمويل وتدريب جيوش الإسلامويين وإمدادها بالسلاح، بما أنَّ هذه الجيوشُ نفسها، تعمل بالوكالة عنهم. قادت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا في البداية حملة دبلوماسية، في محاولة لعزل الحكومة السورية وفـرض مجموعات متعاقبة غير منتخبة في "المنفى" باسم "الممـثلين الـشرعيين" للـشعب

السوري (Barkan 2013). ذلـك، جنباً إلى جنـب مـع شـركائهم الإقليمـيين، ولاسيما دول، مثل: تركيا وقطر والمملكة العربية السعودية، إذ موّلت وسلّحت الجماعات المسلحة المختلفة. لقد قدمت تركيا أماكن للتدريب، ونقطة انطـلاق للهجمات على شمال سورية (Edmonds 2013). ومولت قطر الإخوان وقـدمت السلاح عبر تركيا، مجنِّدةً المقاتلين الأجانب، على سبيل المثال من اليمن، ليتم تدريبهم من قبل القوات الخاصة الأمريكيـة في قطـر قبـل إرسـالهم إلى سـورية (Al Alam 2013a). أما المملكة العربية الـسعودية، الـتي سـلحت التمـرد منـذ بدايته في آذار/ مارس 2011، دعمت مجموعات أجنبية مختلفـة بمـا في ذلـك حركة طالبان الباكستانية (Press TV 2013).

كان دور إسرائيل خفيّاً، على الأقل حتى عام 2013، عندما قامـت الدولـة الصهيونية بشن عدة هجمات صاروخية على سورية (Gordon 2013)، ثم بدأت بتقديم المساعدة والإمدادات الطبيّـة للمقـاتلين الإسـلامويين الموجـودين علـى حدود الجولان (Israel Today 2013). ومن الواضح أن إسرائيل تؤيد الإطاحـة بالرئيس بشار الأسد. ففي عام 2012 ركـز رئـيس القيـادة الـشمالية الإسـرائيلية الميجر جنرال يائير جولان (Yair Golan) على حليف سورية الكبير في جنـوب لبنـان، أعـني: حـزب الله، وقـال: «سـأكون سـعيداً جـداً إذا ذهـب [الأسـد]» (Hayom 2012). أصدرت الدولة الصهيونية، في بعض الأحيان، مـا يمكـن أن يُعد تصريحات مضللة أخفت حقيقتها، قائلةً: إنها تفـضل بـشار العّلمـاني علـى المتمردين الإسـلامويين (Times of Israel 2013). ولكـن هـذا لا ينـسجم مـع الخوف الكبير ممّا يسمونه "محور الشر" المؤلف من إيران، وسورية، وحزب الله (Hayom 2013).

لقد أوضـح مـسؤولون في وزارة الـدفاع الإسـرائيلية القـضية، قـائلين: إنَّ «سيطرة تنظيم القاعـدة علـى سـورية سـيكون أفـضل مـن انتـصار الأسـد علـى المتمردين» (Pontz 2013; BICOM 2013). وهناك تقارير تفيد بأن إسرائيل تبيع الأسلحة للـسعوديين، لتنتقـل مـن ثَـمَّ إلى مجموعـات وسـيطة كيمـا يقـدّموها للجماعات التي توظفها في سورية (Alalam 2013b) وهـذا يـدل علـى أنـه وإن

كانت إسرائيل تنظر إلى كلٍّ من المجموعات التي على نمط القاعدة، وكذلك إلى سورية العلمانيّة، نظرة عداء واحدة؛ إلا أنها تَعُدُّ الجماعات الطائفية المتطرفة التي تتقاتل فيما بينها أقلّ خطراً من محور منظم ومنضبط في لبنان وسورية وإيران. وإسرائيل مهووسة بكسر تلك العلاقة بين أطراف هذا المحور.

هذا، إلى أنَّه قد جرى في تشرين الثاني/نوفمبر 2012، وفقط بعد أقل من ستة أشهر من إعلان مجموعة "أصدقاء سورية" ـ التي تقودها الولايات المتحدة- أنَّ المجلس الوطني السوري الموجود في الخارج (SNC) هو"الممثل الشرعي" للشعب السوري، قول: جرى تقليص دور جماعة الإخوان المسلمين لتصبح فقط أحد مكونات "الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية" (Barkan 2013: 1, 4). كان أحد أهداف القوى الأجنبية من القيام بذلك الحدّ من هيمنة جماعة الإخوان المسلمين على المجموعة (أي المجلس الوطني السوري). ولكن على الرغم من ذلك، ما لبثت جماعة الإخوان المسلمين إلا وأن سيطرت سريعاً على كلٍّ من هذا التحالف الجديد و"المجلس العسكريّ الأعلى" لـ'الجيش السوري الحر' (SMC) (Draitser 2012). واستطاع "المجلس العسكريّ الأعلى" كسب النفوذ من خلال تَحوّله إلى قناة رئيسة للأسلحة. ومع ذلك قيل: إنَّ ثلثي أعضاء هذا المجلس العسكريّ البالغ ثلاثين عضواً هم في حالة ارتباط مع الإخوان، جنباً إلى جنب مع إسلامويين سلفيين مستقلين (Barkan 2013: 5). علاوة على ذلك، فإن هذا التجمع من المجلس العسكري الأعلى" و'الجيش السوري الحر' لا يشمل النصرة، وهي التنظيم السلفي الذي يُعَدُّ "صاحب الامتياز الرسمي" لتنظيم القاعدة في سورية. حيث من الواضح أن هناك تأييداً كبيراً بين جماعات 'الجيش السوري الحر' للنصرة.

عندما أعلنت الولايات المتحدة في عام 2012 النصرة "إرهابية"، اندفع مقاتلو 'الجيش السوري الحر' للدفاع عنها، حيث أعلنت تسع وعشرون مجموعة «كلنا النصرة» (Cockburn 2012). وبالتالي فإن هناك تحالفاً فضفاضاً وبَرِماً في بعض الأحيان بين المقاتلين السلفيين. على النقيض من ذلك، فبعد دخوله الحرب في القصير، أعلن حزب الله الشيعيّ اللبنانيّ أنَّ أغلب هؤلاء الإسلامويين

تقريباً ينتمون إلى جماعات تكفيرية، أو يمكن تصنيفهم قتلة طائفيين (Daily Star 2013).

عُيِّن سليم إدريس في عام 2013 رئيساً للمجلس العسكري الأعلى. لقد كان قائداً "للجيش السوري الحر"، ومن جملة عدد من الشخصيات التي يمكن أن تمنحها واشنطن بعض الثقة (Greenfield 2013a). قام إدريس بعددٍ من المحاولات الضعيفة لينأى بنفسه عن النصرة، لكنه اعترف بأن [على الأقل] 50% من المتمردين كانوا إسلامويين، وأنه يمكنه أن يعمل مع النصرة (Greenfield 2013a). وعلى الرغم من الآراء التي تقترح أن هناك معركة بين 'الجيش السوري الحر' و"المتطرفين المعتدلين"، فقد أشارت سلسلة من التقارير إلى أنه، أولاً، توجد هيمنة حقيقية للمقاتلين الإسلامويين، وثانياً، إن جماعة الإخوان المسلمين «برزت كقوة عقوبات غربية رائدة في المنطقة»، تسيطر على كل من المجلس الوطني السوري والقيادة العسكرية العليا (Draitser 2012; Barkan 2013).

إنَّ الانقسام بين النصرة وجناحها التوسعي من العراق، أعني: ("داعش")، يبدو أنه يشير إلى الانقسام بين 'الجيش السوري الحر' و"داعش". لكن هذا التطور قد يكون مفهوماً على نحو أفضل نتيجة للفشل في اندماج المجموعتين، وربما بسبب التنافس المحلي الذي يغذيه. ولكن هناك أيضاً رغبة السعودية في الحدّ من السلطة المستقلة لأية مجموعة لا على التحديد. إن استيلاء تنظيم "داعش" على أجزاء من شمال العراق، والتحول لدى واشنطن نحو "التدخل الوقائي"، لفتا الانتباه إلى هذه المجموعة" الجديدة "بوصفها نوعاً من "الجهاديين المتشددين"(*). في الواقع كان تنظيم "داعش" يرتكب الأعمال القذرة في العراق منذ عام 2006. ثم حلّ هذا التنظيم المتطرف مكان النصرة وبقايا 'الجيش السوري الحر' في مناطق معينة من سورية، لكن، رغم هذا الصراع على السلطة، ظلت هذه التنظيمات تعمل معاً، بشكلٍ وثيق، ضد الجيش (العربي) السوري. على سبيل

(*) استخدم المؤلف تعبير "Super Jihadis"، (المترجمة).

المثال، منذ منتصف عام 2013 وحتى أواخره، قاتلت مجموعة من 'الجيش السوري الحر'، يقودها العقيد عبد الجبار العكيدي، بمرافقة قوات من "داعش" بقيادة أبي جندل المصري، والجورجي أبي عمر الشيشاني الذي دربته أمريكا، أقول: قاتلت هذه وتلك معاً ضد الجيش العربي السوري لعدة أشهر قبل الاستيلاء على قاعدة منيغ الجوية في حلب (Eretz Zen 2014; Hoff 2015). ويبدو أن التنافس بين المجموعات هو صراع على السلطة المحلية أكثر من كونه صراعاً يقوم على أي انقسام أيديولوجي.

عندما شكلت واشنطن في منتصف عام 2014 (تحالفاً لمحاربة "داعش") (Drennan 2014)، مع موافقة من حكومة العراق، عملت على أن يكون لها «قوات برية عسكرية على البوابة» الشرقية لسورية، دون الحصول على موافقة من الحكومة السورية. لكن سرعان ما اتضح أن لديها إرادة محدودة للغاية في مهاجمة "داعش" في سورية أو العراق. استخدمت القوة الجوية للولايات المتحدة وشركائها ضد "داعش" في المناطق الكردية الشمالية من كلا البلدين، ولكن لم تستخدم هذه القوة على الإطلاق عندما ذهب تنظيم "داعش" نحو مناطق الجيش السوري، مثل: دير الزور وتدمر.

وكانت هذه العملية تهدف إلى دفع المتعصبين بعيداً، في بعض الأحيان، من المناطق التي كان لدى الولايات المتحدة فيها اتفاقيات للتعاون (ولاسيما مع عناصر من القيادة الكردية)، لكن مع ترك العنان لهم للاستيلاء على الأرض وإقامة قواعد في شرق سورية. ولاحظ محلل سوري ـ أمريكي أنه عندما يقوم تنظيم "داعش" بـ(مهاجمة أيٍّ من الجماعات المتمردة الأخرى أو القوات الكردية، لا بدّ أن يتعرض لهجمات صادّة من التحالف)، بينما كان يمُكن لأعضاء هذا التنظيم السفر بحرية إلى المناطق الخاضعة للجيش السوري «دون أن تقوم أي من طائرات التحالف التي تُحشد لمحاربة "داعش" بمهاجمة قوافلهم أو إخطار القوات الجوية السورية من تهديد "داعش" الذي يلوح في الأفق» (Fadel 2015b). بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن هناك تنسيقاً بين الهجمات المتزامنة التي شنها "داعش" في الشرق (في تدمر، شرق حمص ودير الزور)

وما قام به "جيش الفتح" الذي تقوده النصرة في الغـرب (Fadel 2015b). كانـت المجموعة الأخيرة، التي تأتي من تركيا، قد اسـتولت علـى إدلـب في موجـات متتالية حتى منتصف 2015. وقد نجحت تلك الجبهات المتعاشقة، بالإضافة إلى الأسلحة الأمريكيّة في تشتيت انتباه الجيش السوري.

هذا، كما سأعرض في الفصل الحـادي عـشر لاحقـاً، غالبيـة مجموعـات 'الجيش السوري الحر' انشقت وانضمت للنـصرة أو "داعـش"، وعلـى مـا يبـدو جرت تلك المجموعات وراء أفضل العروض المالية. مرة أخرى في أواخر عـام 2013 لاحظ صحفي بريطاني مناهض لسورية (أي للدولة الـسورية) أن 'الجـيش السوري الحر' قد أصبح «مشروعاً إجرامياً إلى حدٍ كـبير». حيـث كـان قـادةٌ فيـه يتقاضون أموالاً كبيرة حتى إنهم لا يريدون أن تنتهي الحرب (Sherlock 2013). وهذا يثير مسألة إلى أي مدى كان هؤلاء "الجهاديون" مجرد مرتزقـة، أكثـر مـن كونهم من المتعصبين دينيـاً؟ سـألت مـسؤولاً سـورياً رفيـع المـستوى في وزارة المصالحة السورية في أواخر عام 2013 عن الدافع وراء عملهم كمرتزقـة. وقـال لي: إنَّ بعضَ القيادات الجهادية دينيٌّ لـو لم يكـن بعـضها الآخـر كـذلك. ومـع ذلك، قال: إنه في حـين كـان دافـع المرتزقـة (mercenary motivation) قويّـاً «نحن لا نستبعد تأثير مئات القنوات [التلفزيونية والإذاعيـة] مـن الخلـيج، الـتي تبث تلك الأفكار [الجهادية المتطرفة]». يبـدو أن الأيديولوجيـة الدينيـة، مهمـا كانت بدائية (crude)، لا تزال مهمة أيضاً، للمساعدة في تحفيز العديد من جنود مشاة الإمبراطورية (أعني: جهاديي الإمبراطورية).

المراجع:

- Abouzeid, Rania (2012) ‘Syria’s Up-and-Coming Rebels: Who Are the Farouq Brigades?’ Time, 5 October, online: http://world.time.com/2012/10/05/syrias-up-and-coming-rebels-who-are-the-farouq-brigades-2/

- AFP (2014) ‘ISIS, Syria rebel group sign pact of ‘non-aggression’, Al Arabiya, 13 September, online: http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2014/09/13/ISIS-signs-non-aggression-pact-with-Syrian-group.html

- Agenzia Fides (2012) ‘Abuse of the opposition forces, "ethnic cleansing" of Christians in Homs, where Jesuits remains’, 21 March, online: http://www.fides.org/en/news/31228?idnews=31228&lan=eng#.Ufjy7qz4I64

- Akhavi, Shahrough (1992) ‘The Clergy’s Concept of Rule in Egypt and Iran’, Annals of the American Academy of Political and Social Science, Vol. 524, Political Islam, November, 92-102

- Al Alam (2013a) ‘Qatar intelligence chief dies of wounds in Somalia’, 7 May: http://en.alalam.ir/news/1472130

- Al Alam (2013b) ‘Israel, Saudi Arabia ink deal to arm Syria militants’, 25 July, online: http://en.alalam.ir/news/1498344

- al-Amin, Ibrahim (2012) ‘The Age of the New Takfiris’, Al Akhbar, 21 August, online: http://english.al-akhbar.com/node/11321

- Al Hamadee, Mousab and Roy Gutman (2014) ‘1,000 Syrian rebels defect to Islamic State in sign it’s still strengthening’, McClatchy DC, 8 July, online: http://www.mcclatchydc.com/news/nation-world/world/middle-east/article24770164.html

- Al-Haqiqah (2012) ‘Farouq Battalion imposes Islamic Tax on villages in “Nasserite Valley”; Muslims in Baba Amr take refuge with Christians’, Al-Haqiqah Website in Arabic, April 9, 2012. http://www.syriatruth.info

- Al-Shaqfa, Muhammad Riyad (2011) ‘Muslim Brotherhood Statement about the so-called ‘Syrian Revolution’’, General supervisor for the Syrian Muslim Brotherhood, statement of 28 March, online at: http://truthsyria.wordpress.com/2012/02/12/muslim-brotherhood-statement-about-the-so-called-syrian-revolution/

- Al Tamimi, Aymenn (2012) 'Christians in Syria: Separating Fact from Fiction', The Henry Jackson Society, Middle East Forum, November, online: http://www.meforum.org/3377/christians-in-syria

- Ayoob, Mohammed (1979) 'Two faces of Political Islam: Iran and Pakistan Compared', Asian Survey, Vol. 19, No. 6, June, 535-546

- Ayoob, Mohammed (2005) 'The future of political Islam: the importance of external variables', International Affairs (Royal Institute of International Affairs 1944-), Vol 81, No 5, October, 951-961

- Baktiari, Bahman and Augustus Richard Norton (2005) 'Voices within Islam: four perspectives on tolerance and diversity', Current History, January, 37-45

- Barkan, L. (2013) 'Syrian Opposition Forms Political Coalition, Joint Military Council Following Foreign Pressure', Middle East Media Research Institute (MEMRI), Inquiry & Analysis Series Report No. 919, January 14, online: http://www.memri.org/report/en/print6931.htm

- Batatu, Hanna (1982) 'Syria's Muslim Brethren', MERIP Reports, Middle East Research and Information project (MERIP), No 110, Syria's troubles, Nov-Dec, 12-20, 34, 36

- Benotman, Noman and Emad Naseraldin (2012) 'The Jihadist Network in the Syrian Revolution, A Strategic Briefing', Quilliam Institute, 20 September, online: http://www.quilliamfoundation.org/press-releases/quilliam-releases-concept-paper-the-jihadist-network-in-the-syrian-revolution/

- BICOM (2013) 'Amos Gilad: Al-Qaeda threat not as serious as Syria-Iran-Hezbollah axis', 2 April, online: http://www.bicom.org.uk/news-article/13169/

- Blanford, Nicholas (2011) 'Assad regime may be gaining upper hand in Syria', Christian Science Monitor, 13 may, online: http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2011/0513/Assad-regime-may-be-gaining-upper-hand-in-Syria

- British Embassy Cairo (1942) 'First Fortnightly Meeting with Amin Osman Pacha', 18 May, FO 141/838 (in Curtis 2012: 24)

- Bulos, Nabih (2015) 'US-trained Division 30 rebels 'betray US and hand weapons over to al-Qaeda's affiliate in Syria', Telegraph, 22

September, online:
http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/syria/11882195/US-trained-Division-30-rebels-betrayed-US-and-hand-weapons-over-to-al-Qaedas-affiliate-in-Syria.html

- Butterworth, Charles (1992) 'Political Islam: the origins', Annals of the American Academy of Political and Social Science, Vol 524, November, 26-37

- Carroll, Terrance G. (1986) 'Islam and Political Community in the Arab World', International Journal of Middle East Studies, Vol. 18, No. 2 (May), pp. 185-204

- Channel4News (2012) 'Inside Syria's Farouk Brigade', YouTube, 11 September, online: http://www.youtube.com/watch?v=2krSHc02MIY

- Churchill, W.S. (1921) Speeches: House of Commons: Speech notes, source material and Hansard, Reference code: CHAR 9/63, speech to the House of Commons, June 14, 1921

- Churchill, W.S. (1953) Triumph and Tragedy, Houghton Mifflin Harcourt, Boston

- Cockburn, Patrick (2012) 'Syria: The descent into Holy War', The Independent, 16 December, online: http://www.independent.co.uk/voices/comment/syria-the-descent-into-holy-war-8420309.html

- Commins, David (2006) The Wahhabi Mission and Saudi Arabia, I.B. Tauris, London

- Curtis, Mark (2012) Secret Affairs: Britain's collusion with radical Islam, Serpent's Tail, London

- Curzon, George Nathaniel (1899) Curzon, India and Empire: the Papers of Lord Curzon (1859-1925) from the Oriental and India Office Collections at the British Library, London

- Daily Star (2013) 'Takfiri groups predominate ranks of Syrian rebels: Hezbollah', May 25, online: http://www.dailystar.com.lb/News/Politics/2013/May-25/218353-takfiri-groups-predominate-ranks-of-syrian-rebels-hezbollah.ashx#axzz2aa6nupor

- Debka (2014) ‘Syrian rebel Yarmouk Brigades ditch US and Israel allies, defect to ISIS’, 17 December, online: http://www.debka.com/article/24301/Syrian-rebel-Yarmouk-Brigades-ditch-US-and-Israel-allies-defect-to-ISIS

- Desai, Akshayakumar Ramanlal (1948) Social Background of Indian Nationalism, Popular Book Depot, Bombay

- DIA (1982) ‘Syria: Muslim Brotherhood Pressure Intensifies’, Defence Intelligence Agency (USA), May, online: http://www.foreignpolicy.com/files/fp_uploaded_documents/DIA-Syria-MuslimBrotherhoodPressureIntensifies.pdf

- Draitser, Eric (2012) ‘Unmasking the Muslim Brotherhood: Syria, Egypt and beyond’, Global Research, 12 December, online: http://www.globalresearch.ca/unmasking-the-muslim-brotherhood-syria-egypt-and-beyond/5315406

- Draitser, Eric (2013) Saudi Arabia, Qatar and the Struggle for Influence in Syria’, Global research, 9 July, online: http://www.globalresearch.ca/saudi-arabia-qatar-and-the-struggle-for-influence-in-syria/5342223

- Drennan, Justine (2014) ‘Who Has Contributed What in the Coalition Against the Islamic State?’ Foreign Policy, 12 November, online: http://foreignpolicy.com/2014/11/12/who-has-contributed-what-in-the-coalition-against-the-islamic-state/

- Edmonds, Sibel (2013) ‘Uber-Neocons: The Main Architects of Post-Assad Syria at Work’, Boiling Frogs, 5 May, http://www.boilingfrogspost.com/2013/05/05/uber-neocons-the-main-architects-of-post-assad-syria-at-work/

- Eretz Zen (2014) ‘US Key Man in Syria Worked Closely with ISIL and Jabhat al-Nusra’, YouTube, 17 August, online: https://www.youtube.com/watch?v=piN_MNSis1E

- Fadel, Leith (2015a) ‘3,000 FSA Fighters Defect to ISIS in the Qalamoun Mountains’, Al Masdar, 9 January, online: http://www.almasdarnews.com/article/3000-fsa-fighters-defect-isis-qalamoun-mountains/

- Fadel, Leith (2015b) ‘Anti-ISIS coalition uses ISIS to Fight Assad in Favor of the Rebels’, Al Masdar, 2 October, online: http://www.almasdarnews.com/article/anti-isis-coalition-uses-isis-to-fight-assad-in-favor-of-the-rebels/

- Gertz, Bill (2013) ‘Syria is jihad central: 6,000 terrorists flood new al Qaeda training ground’, The Washington Times, 2 July, online: http://www.washingtontimes.com/news/2013/jul/2/syria-jihad-central-6000-terrorists-flood-new-al-q/?page=all

- Gordon, Michael (2013) ‘Israel Airstrike Targeted Advanced Missiles That Russia Sold to Syria, U.S. Says’, New York Times, 13 July, online: http://www.nytimes.com/2013/07/14/world/middleeast/israel-airstrike-targeted-advanced-missiles-that-russia-sold-to-syria-us-says.html

- Greenfield, Daniel (2013a) ‘Obama to Rely on Syrian Leader Who Claims Al Qaeda Aren’t Terrorists to Keep Weapons Out of Al Qaeda’s Hands’, Frontpage Mag, April 30, online: http://frontpagemag.com/2013/dgreenfield/obama-to-rely-on-syrian-leader-who-claims-al-qaeda-arent-terrorists-to-keep-our-weapons-out-of-al-qaedas-hands/

- Greenfield, Daniel (2013b) ‘Moderate Islamist Free Syrian Army Commander Who Ate Heart, Vows Genocide’, Front Page Mag, 14 may, online: http://frontpagemag.com/2013/dgreenfield/moderate-islamist-free-syrian-army-commander-who-ate-heart-vows-mass-genocide/

- Hansen, Suzy (2012) ‘The Economic Vision of Egypt’s Muslim Brotherhood Millionaires’, Bloomberg Businessweek, 19 April, online: http://www.businessweek.com/articles/2012-04-19/the-economic-vision-of-egypts-muslim-brotherhood-millionaires

- Hayom, Israel (2012) Iran, Hezbollah are ‘up to their necks’ in Syria, says Israeli general’, Israel Hayom Blog, April 6, online: http://www.israelhayom.com/site/newsletter_article.php?id=3857

- Hoff, Brad (2015) ‘ISIS Leader Omar al-Shishani Fought Under U.S. Umbrella as Late as 2013’, Levant report, 18 September, online: http://levantreport.com/tag/menagh-airbase/

- Holliday, Joseph (2012) ‘Syria’s Maturing Insurgency’, Middle East Security Report 5, Institute for the Study of War, June, Washington

- Hourani, A.H. (1947) Minorities in the Arab World, Oxford University Press, London

- HRI (2012) 'Syrian rebels use a child to behead a prisoner', Human Rights Investigations, 10 December, online: http://humanrightsinvestigations.org/2012/12/10/syrian-rebels-use-a-child-to-behead-a-prisoner/

- Hubbard, Ben (2013) 'Islamist Rebels Create Dilemma on Syria Policy', New York Times, April 27, online: http://www.nytimes.com/2013/04/28/world/middleeast/islamist-rebels-gains-in-syria-create-dilemma-for-us.html?pagewanted=all&_r=0

- ICG (2012) 'Tentative Jihad: Syria's Fundamentalist Opposition', International Crisis Group, 12 October, online: http://www.crisisgroup.org/~/media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/Iraq%20Syria%20Lebanon/Syria/131-tentative-jihad-syrias-fundamentalist-opposition

- Israel Today (2013) 'Israeli hospital treats Syrian rebel fighters', 17 February, online:

http://www.israeltoday.co.il/NewsItem/tabid/178/nid/23683/Default.aspx

- JMCC (2015) 'Poll No. 84 - August 2015 - No Presidential Successor, PNA Priorities', 1 September, online: http://www.jmcc.org/documentsandmaps.aspx?id=868

- Keddie, Nikki R. (2006) Women in the Middle East: Past and Present, Princeton University Press

- Kern, Soeren (2013) 'European Jihadists: The Latest Export', Gatestone Institute, 21 march, online: http://www.gatestoneinstitute.org/3634/european-jihadists

- Komireddi, Kapil (2012) 'Takfiri militants from Pakistan are fighting in Syria with an anti-Semitic cause', 21 September, online: http://lubpak.com/archives/228501

- Krishna, Katragadda Bala (1939) The Problem of Minorities or Communal Representation in India, George Allen And Unwin, London

- Leiken, Robert S. and Steven Brooke (2007) 'The Moderate Muslim Brotherhood', Foreign Affairs, Vol. 86, No. 2 (Mar. - Apr.), 107-121

- Lia, Brynjar (1998) The Society of Muslim Brothers in Egypt: the rise of an Islamic mass movement 1928-1942, Uthaca, p.181

- Malas, Nour (2013) ‘As Syrian Islamists Gain, It’s Rebel Against Rebel’, Wall Street Journal, 29 May, online: http://online.wsj.com/article/SB10001424127887323975004578499100684326558.html

- Marcus, Jonathan (2013) Gruesome Syria video pinpoints West’s dilemma, BBC, 14 May, online: http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-22521161

- MEC (2015) ‘These are the Syrian rebels the West is crying for’, Middle East Channel, YouTube, 10 October, online: https://www.youtube.com/watch?v=873cZakapxM

- Mehta, Ashok and A. Patwardhan (1942) The Communal Triangle, Kitabistan, Allahabad

- Mezzofiore, Gianluca (2015) ‘Syria: Saudi-Turkish alliance backs ‘Conquest Army’ rebels to defeat Bashar al-Assad’, 7 May, online: http://www.ibtimes.co.uk/syria-saudi-turkish-alliance-backs-conquest-army-rebels-defeat-bashar-al-assad-1500212

- Mortada, Radwan (2012) Syria Alternatives (II): no homegrown solutions, Al Akhbar, 13 June, online: http://english.al-akhbar.com/content/syria-alternatives-ii-no-homegrown-solutions

- Najjar, Fauzi M. (1968) ‘Islam and Socialism in the United Arab Republic’, Journal of Contemporary History, Vol. 3 No. 3, The Middle East, July, 183-199

- O’Bagy, Elizabeth (2012) ‘Jihad in Syria’, Middle East Security Report 6, Institute for the Study of War, Washington, online: http://www.understandingwar.org/report/jihad-syria

- xnevvg3n22 (2012) ‘Free Syrian Army Terrorist Savages Blow Up a Hospital filled with people in Homs/Syria’, YouTube, 5 September, online: http://www.youtube.com/watch?v=yycouE-I7V4

- Pande, B. N. (1987) ‘History in the Service of Imperialism’, (speech in the Indian Upper House of Parliament, the Rajya Sabha, made on 29 July 1977) online: http://www.cyberistan.org/islamic/pande.htm

- Pandey, Avaneesh (2014) ‘Qatar Buckles Under Pressure From Saudi Arabia, UAE; Expels Muslim Brotherhood Leaders’, IBTimes, 13 September, online: http://www.ibtimes.com/qatar-buckles-under-pressure-saudi-arabia-uae-expels-muslim-brotherhood-leaders-1687906

- Parker, J.S.F. (1962) ‘The United Arab Republic’, International Affairs (Royal Institute of International Affairs 1944-), Vol. 38 No. 1, January, 15-28

- Pew Research Centre (2013) ‘The World’s Muslims: religion, politics and society’, Pew Forum on Religion and Public Life, April 30, online: http://www.pewforum.org/Muslim/the-worlds-muslims-religion-politics-society.aspx

- Pontz, Zach (2013) ‘Israeli Officials: We’d Prefer Al-Qaeda-Run Syria to an Assad Victory’, The Algemeiner, June 4, online: http://www.algemeiner.com/2013/06/04/israeli-officials-wed-prefer-al-qaeda-run-syria-to-an-assad-victory/

- Press TV (2013) ‘Pakistani Taliban set up base in Syria: Report, 31 July, online: http://www.presstv.com/detail/2013/07/12/313534/taliban-set-up-base-in-syria-report/

- Roggio, Bill (2013) ‘Free Syrian Army Arming Al Qaeda, ISIL Commander Claims’, Transcend Media, 22 July, online: http://www.transcend.org/tms/2013/07/free-syrian-army-arming-al-qaeda-isil-commander-claims/

- Seale, Patrick (1988) Asad: the struggle for the Middle East, University of California Press, Berkeley CA

- Shadid, Mohammad K. (1988) ‘The Muslim Brotherhood movement in the West Bank and Gaza’, Third World Quarterly, Vol 10, No 2, April, 658-682

- Sheikh, Naveed Shahzad (2007) The New Politics of Islam: Pan-Islamic Foreign Policy in a World of States, Routledge, Oxford

- Sheikho, Youssef (2013) ‘The Syrian Opposition’s Muslim Brotherhood Problem’, Al Akhbar English, April 10, online: http://english.al-akhbar.com/node/15492

- Sherlock, Ruth (2013) ‘How the Free Syrian Army became a largely criminal enterprise’. Business Insider, 30 November, online: http://www.businessinsider.com.au/how-the-free-syrian-army-became-a-largely-criminal-enterprise-2013-11

- SyrianDaysOfRage (2012) (9-3-12) Qaseer | Homs | Regime Forces Bomb The Hospital’, YouTube, 3 September, online: http://www.youtube.com/watch?v=fUisEPJaq9k

- Talhamy, Yvette (2009) ‘The Syrian Muslim Brothers and the Syrian-Iranian Relationship, Middle East Journal, Vol. 63 No. 4, Autumn, 561-580

- Teitelbaum, Joshua (2004) ‘The Muslim Brotherhood and the ‘Struggle for Syria, 1947-1958. Between Accommodation and Ideology’, Middle Eastern Studies, Vol 40, No 3, May, 134-158

- Times of Israel (2013) ‘Israel prefers Bashar Assad to Islamist rebels’, May 18, online: http://www.timesofisrael.com/israel-prefers-assad-to-islamist-rebels/

- Wikeley (1945) ‘Memorandum: Anglo American Relations in Saudi Arabia’, Public record office, 28 Dec 1945, FO 371/45543/E10148

- Wood, Charles (1862) Wood Papers, India Office Library, MSS, Eur, F78, Charles Wood to Viceroy Lord Elgin (Governor General of India), March 3, 1862

- Yigit, Dilek (2014) ‘The Rivalry Between Saudi Arabia and Qatar And Its Reflections On The Middle East’, Institute of Strategic Thinking, Ankara, 23 May, online: http://www.sde.org.tr/en/newsdetail/the-rivalry-between-saudi-arabia-and-qatar-and-its-reflections-on-the-middle-east/3739

- Zambelis, Chris (2013) ‘Royal Rivalry in the Levant: Saudi Arabia and Qatar Duel over Syria’, The Jamestown Foundation, Washington, Terrorism Monitor Volume, 11 Issue: 16, online: http://www.jamestown.org/single/?tx_ttnews[tt_news]=41249&no_cache=1#.VhjFzyv9iF8

- Zernike, Kate and Michael T. Kaufman (2011) ‘Obituary: The Most Wanted Face of Terrorism’, New York Times, May 2, online: http://www.nytimes.com/2011/05/02/world/02osama-bin-laden-obituary.html?pagewanted=all&_r=0

وسائل الإعلام المرافقة، والمنظمات المرافقة(*)



صور تذكاريّة للصحفيين السوريين الذين قتلوا على أيدي الإرهابيين المدعومين من الغرب، عُلِّقت على جدار خارج مكاتب التلفزيون السوري، دمشق، تموز/يوليو 2015.

لعبت وسائلُ الإعلام ومنظمات حقوق الإنسان دوراً أساسيّاً في الحرب الدعائية ضد سورية. ففي الواقع، ليس بالإمكان، في القرن الحادي والعشرين، أن تديرَ حرباً بالوكالة أو أن تستمر فيها مستنداً إلى الدعم الشعبي، دون أن يساندك جيش حقيقي مؤلف من هكذا معاونين (وسائل الإعلام ومنظمات حقوق الإنسان). ولهذا السبب، حملت عقيدة البنتاغون، في السنوات الأخيرة، أهدافاً طموحة للغاية، مثل: "السيطرة شاملة الطيف" أي: السيطرة الإعلامية والاقتصادية والثقافية، وكذلك السيطرة العسكرية (JCS 2000; Engdahl 2011).

(*) "embedded watchdogs": يشير المصطلح هنا إلى منظمات حقوق الإنسان التي تعمل وكأنها مجندة مع القوات العسكرية لبلد ما من حيث إن تلك المنظمات تخدم مصالح وأجندة طرف ما ضد طرف آخر، (المترجمة).

وهكـذا أصـبحت محطـات البـث التابعـة للخـصوم أهـدافاً عـسكرية مـشروعة (Norton-Taylor 1999)، في حين أصبحت وسائل الإعلام المرافقة حلفاءً رئيسين.

لقد أصبح مفهوم "الصحفي المرافق" معروفاً بشكل جيد بعد غـزو العـراق عام 2003، حيث رافق الصحفيون الغربيـون قـوات الغـزو الأمريكيـة. لم يكـن هؤلاء الصحفيون مرافقين للقوات الأمريكية فقط فيزيائيـاً، بـل كـانوا يجمعـون المعلومات، ويحددون الأُطُر العامة عن خلفيّة موضوع ما، وتكنفهم حماية أمنية وأجهزة قيادة، وتضبطهم قواعد سلوك وكانوا علـى اتـصال مباشـر ويـومي مـع قوات الاحتلال. وقد ساعدتهم تلك التجربـة علـى أنـسنة (أي: إضـفاء الطـابع الإنساني) على مشاكل ومعاناة الغزاة (Wells 2003)، في حين لا يعدو الطـرف الآخر أن يكون جثثاً قابلةً للإحصاء أو صوراً كاريكاتورية، ويُمكن أن يُنظر إليـه ـ في أحسن الأحوال ـ بوصفه عدواً مخشي الجانب . ولن تتكشف الحقائق عـن فظائع الغزاة إلا في مستقبل الأيام (أعني: المجازر والاغتصاب والتعذيب).

وبدأت في هذا الاتجاه محطات تلفزة خاصة بإضفاء الطابع الواقعيّ وأنـسنة الحرب على نحو غـير مـسبوق، ولكـن بطريقـة متحاملـة جـداً. وفي دراسـات لاحقـة، وفي حـين اعتـرف الـصحفيون المعنيـون بـالأمر أنهـم أظهـروا فقـط «جانباً محدوداً من الصراع»، لكـن كانـت لـديهم "نظـرة إيجابيـة" عـن عملـهم (Fahmy and Johnston 2005).

تُظهر دراسات تُعنى بالتبايُنات في بثّ الأخبار بين صحفيين أمريكيين مـرافقين وغير مرافقين، أنّ هناك «فروقاً مُعتبرة بينهم في طريقـة الخطـاب تجـاه القـوات المسلحة، ومدى الثقة في أفرادها، بالإضـافة إلى الفـروق في كيفيّـة الـصياغة، ومستوى الموثوقيّة، فيما يتصل بالمواد التي كتبها صحفيون مرافقون وتلك الـتي كتبها صحفيون غير مرافقين» (Haigh et al 2006). لقد أصبح ذلك الـنمط مـن الانخراط ومرافقة القوات العسكرية بمثابة مؤسسة لحروب القرن الحادي والعشرين.

وماذا عن مسألة التنوع في نشر الأخبار؟ لقد فتح عصر الإنترنت الباب أمام قنوات إعلام جديدة ذات إمكانيات متنوعـة ومـستقلة. لكـن القـوى الامبرياليـة الكبرى كانت يقظة لذلك. حيث اكتـسبت الاحتكـارات الإعلاميـة الـسلطة مـن

خلال "تـداخلاتها الديناميكيـة" مـع مجموعـات الاسـتثمار الأخـرى مـن أجـل تـشكيل «ائـتلاف مـن القُـوى علـى صـعيد عـالمي» (Bagdikian 2004: 136). امتدت تأثير تلك القوة إلى العصر الرقمي من خلال "التـسويق الرقمـي الفعـال" (aggressive digital marketing)، و«الإعـلان التفـاعلي»، و«جمـع البيانـات الشخـصية» (Chester 2007) مـا خلـق «احتكـارات الإعـلام المتفـوق» مـن خلال الهيمنة على الفـضاء الرقمـي، ومحرّكـات البحـث والمحتـوى التفـاعلي (Chester 2007: 145, 167-170, 182-183).

وكان هناك في الوقت نفسه انتـشار كـبير للمنظمـات غـير الحكوميـة علـى الإنترنت (NGO)، ولاسيما تلك التي تعمل في المجالات الإنـسانية، وحقـوق الإنسان، وتولي اهتماماً كبيراً للمهمات التي تـستند إلى ذرائـع متعلّقـة بحقـوق الإنسان. إن بعض هذه المنظمات غير الحكومية مستقلٌ حقّاً ولكـن الكـثير منـها مموَّلٌ، ومُستقطَب، ويُعَدُّ جزءاً لا يتجزأ من أجندات القُوى الكبرى. لقـد كـان العمل على خلق أصوات "مجتمع مـدني"، مسيـسة بـشكل كـبير محـورَ تركيـزِ المبادرة الوطنية للديمقراطية الممولة مـن الحكومـة الأمريكيـة، والـتي أنـشئت خلال الثمانينات لتمويل جماعات ليست سياسية في ظاهرها، ذلـك في البلـدان المستهدفة، ولكن هذه المبادرة نُظر إليها على أنهـا "حـصان طـروادة" أمريكـي للتخريب السياسي (Blum 2000). قال الرئيس الأول لـلمبادرة، ألين فاينستاين (Alen Weinstein) في عام 1991، إن «الكثير مما نقوم بـه اليـوم تم سـراً قبـل خمسة وعشرين عاماً من قبل وكالة المخابرات المركزيـة (Lefebvre 2013). في الواقع، لقد تورطت المبـادرة في العديـد مـن الانقلابـات في أمريكـا اللاتينيـة ومنطقة البحر الكاريبي، وهي محظورة الآن في عدد من البلدان المُستهدفة، مثل إيران وكوبا وفنزويلا.

وتُعَدُّ وسائل الإعلام المرافقة ـ بدورها ـ قوةً هامةً، خصوصاً في الحـروب السرية. إذ لم يكن "التمردّ الإسلاموي" الأخـير في سـورية ليجـذب الكـثير مـن الدعم الخارجي لو كان طابعه الحقيقـي معروفـاً. ولـذلك كـان إخفـاء طابعـه، وشيطنة أعدائه المعمول بها، وإثارة الهلع منهم، هذا كلّـه كـان يؤلـف المهمـة

الرئيسة لأعداء سورية. بيدَ أنه بسبب الادعاءات التبشيرية للمشروع ـ في دعم الديمقراطية والثورة، وحماية الأطفال وهلم جرا ـ فقد كان في كثير من الحالات الجانب الليبرالي من السياسة الغربية هو الذي "يرفع الراية" إيذاناً بانطلاق حربٍ أوسع. وقد شمل ذلك وسائل الإعلام الليبرالية وعدداً من المنظمات غير الحكومية، والتي كانت الكثرة الكاثرة منها مرافقة (أعني: جزءاً لا يتجزأ) في مهمات "تغيير النظام"، التي تقوم بها القوى الكبرى الإمبريالية.

ويبدو أنَّ وسائل الإعلام "الليبرالية"، مثل: قناة الجزيرة وصحيفة الجارديان (The Guardian) البريطانية، اللتين انتقدتا غزو واشنطن للعراق عام 2003، أصبحتا الأشرس في التشجيع على الهجمات على سورية. كما دفعت مصادر مجهولة مرتبطة بشبكة من الجماعات التي مقرها بشكل رئيس في الولايات المتحدة مثل هيومن رايتس ووتش، و"آفاز" (Avaaz) و"بيربوس" (Purpose)، والهيئات التي ابتكروها على الإنترنت، مثل: "الخوذات البيضاء" (Helmets White) و"حملة سورية" (Syria Campain)، أقول: دفعت جميعها من أجل خيار "حظرٍ جويٍّ" في سورية (Sterling 2015a). وكان واضحاً جداً، بعد القصف الذي قام به الناتو في ليبيا في عام 2011، أن هذه الحملة تعني هجوماً عسكرياً مباشراً على سورية وارتكاب المذابح الجماعية، ذلك بهدف إسقاط الحكومة. حيث أصبح هذا هو الفساد الأخلاقي الذي يتأتى من التأييد الغربي لـ"حقوق الإنسان".

صيادو الحرب الليبرالية

لقد لعب بعض المنظمات غير الحكومية "الليبرالية" من تلك التي لها باعٌ طويل دوراً رئيساً في حملة التضليل ضد سورية. يشير يالا لو بارا (Yalla la Barra) (2015) إلى أن كينيث روث (Keneth Roth) مدير منظمة هيومن رايتس ووتش، والتي مقرها الولايات المتحدة، بدا مهووساً بالرئيس السوري بشار الأسد. وانسجاماً مع الممارسة التقليدية في الدعاية التي تقوم على التكرار المستمر، "غرّد" روث على موقع "تويتر" مئات المرات عن (الرئيس) الأسد، في محاولة مستمرة للربط بين الرئيس والفظائع المرتكبة ضد المدنيين، مستخدماً

زوراً صوراً من غزة وكوباني (عين العرب) (بعد القصف الإسرائيلي، والقصف من قبل أمريكا و"داعش") ليؤيد وجهة نظره (Syrian Free Press 2015). بل ذهب روث مذهباً إلى حدٍّ ساوى فيه بين ما يزعم أن الرئيس السوري قام به والهجوم النووي الأمريكي على اليابان في عام 1945: حيث كتب «كانت القضية، بالنسبة للذين خططوا لقنبلة هيروشيما (كما هو الحال مع الأسد اليوم) قتل المدنيين» (Roth 2015b).

كانت هذه كذبة فاضحة، فخلافاً لجريمة واشنطن في هيروشيما، تلك المدينة التي لم تضم أي منشأة عسكرية، لم يكن هناك دليل موثوق عن أن (الرئيس) الأسد كان يخطط لقتل المدنيين. بل إن الأكثر وضوحاً على نفاق روث هو أنه لم يشر في أي مناسبة لحقيقة أنه «في سورية تقوم الولايات المتحدة وحلفاؤها بتمويل وتدريب الفصائل الجهادية المتطرّفة بهدف الإطاحة بحكومة دولة ذات سيادة وعضو في الأمم المتحدة» (La Barra 2015) . وهذا خرق واضح لميثاق الأمم المتحدة، وكذلك للمادة الأولى من ميثاقي القانون الدولي لحقوق الإنسان. لكن على ما يبدو هذا أمر لا يهم هيومن رايتس ووتش. بل في الواقع، أصبح روث واحداً من أكثر المؤيدين المتحمسين داخل النخبة السياسية في الولايات المتحدة للقصف الأمريكي لسورية.

وقد تساءل في أواخر عام 2013 عما إذا كانت فكرة إدارة أوباما لتفجير سورية "رمزياً" ستكون كافية. ودعا مدير مركز الدراسات الدولية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) جون تيرمان (John Tirman) كلام روث هذا بأنه «ربما يكون البيان الأكثر جهلاً واللامسؤول على الإطلاق من قبل مدافعٍ رئيس عن حقوق الإنسان» (Bhatt 2014).

هذا، كما انضمت منظمة العفو الدولية لمهمة واشنطن في تغيير "النظام". اشتُهرت هذه المنظمة، وهي هيئة أخرى غير حكومية، أُنشئت في عام 1961 في لندن، بكتابة الرسائل لدعم سجناء الرأي. وفي الآونة الأخيرة استمالتها سياسة القُوى الكبرى. إذ عملت منظمة العفو الدولية، بالاستناد إلى مصادر منحازة

مرتبطة بالجماعات الإسلاموية المسلحة، على إعادة نشر رواية غير موضوعية حول الحرب في سورية. على سبيل المثال، فقد كررت ادعاءات الجماعات المسلحة عن أن قصف الجيش السوري للمناطق الخاضعة لسيطرة الإرهابيين قد أدى لمستوى كارثي من "الأضرار الجانبية" (Collateral Damage)، بما يقرب من مئة ضحية من المدنيين مقابل كل مقاتل تم قتله (AI 2015). ولكن فيما لو كان ذلك صحيحاً، فإنه سيكون بمثابة اتهام كبير ضد للجيش السوري.

لكن لا صحة لهذا الكلام. فـ"الدليل" تشوبه شُبهة الاعتماد على المصادر المنحازة، ويتناقض مع غيره من المعلومات. إذ تصل منظمة العفو الدولية لـ"شهودها" من خلال جماعات مرتبطة بقوة بالجماعات الإسلاموية المسّلحة ـ بما في ذلك مركز توثيق الانتهاكات في سورية، والشبكة السورية لحقوق الإنسان ـ وجليٌّ أنَّ التمويل يأتي هنا من تركيا والولايات المتحدة والسعودية وقطر، ولا شك في أنَّ هذه الدول جميعها تسعى للإطاحة بالحكومة السورية (Sterling 2015b). لقد قامت الجماعات الإسلاموية، منذ بداية الصراع، بتلفيق القصص عن مجازر الحكومة، وقد صوّرت قتلاها على أنهم "مدنيّون" (Rosen 2012). كما اعتمدت منظمة العفو الدولية أيضاً على مجموعة تسمى "الدفاع المدني" أو "الخوذات البيضاء"، التي تأسست في الولايات المتحدة الأمريكية، وتقدّم الدعم للنصرة المنظمة الإرهابية المحظورة دولياً (Beeley 2015b).

لم يقتصر الأمر فيما يتعلق بأدلة منظمة العفو الدولية على كونها مشوبة بالمصادر المنحازة، بل أيضاً في أنها لم تدقق في مصادرها الخاصة. وبحسب المعطيات التي نشرها مركز توثيق الانتهاكات في سورية حول الضحايا في إدلب فقد كان عددُ "قتلى "النظام" في إدلب" في آذار/مارس-نيسان/ أبريل 2015 اثني عشر قتيلاً، وبلغ عدد "شهداء إدلب" (أعني: مقاتلي المعارضة والمدنيين الداعمين لهم) ستمئة واثنين وستين شهيداً. تشمل هذه المجموعة الأخيرة مقاتلين من "داعش" ومقاتلين إسلامويين آخرين (Sterling 2015b). إذ دمج مركز توثيق الانتهاكات في سورية في هذه "البيانات"، عن إدلب، بين المقاتلين والمدنيين، وكانت تلك ممارسة شائعة يقوم بها الإسلامويون منذ بداية الصراع.

لم تصبح هاتان المنظمتان غير الحكوميتين (أي: هيومان رايس ووتش ومنظمة العفو الدولية)، مرافقتين فقط في الأزمة السورية. فعلى الرغم من أنَّ أيّاً منهما لا تتلقى تمويلاً مباشراً من الحكومة الأمريكية، لكنهما طورتا صلاتٍ قوية جداً معها. لقد اعتادت هيومن رايتس ووتش الحصول على تمويلها من مجموعة متنوعة من المؤسسات الأمريكية بشكل رئيس. وغالباً ما تعتمد تقارير هيومان رايتس ووتش عن الشرق الأوسط على، وتعترف بالمنح المقدمة من المؤسسات الداعمة لإسرائيل. وهذه المنظمة التي تأسست كمجموعة أمريكية "خاصة" في عام 1978، ركزت على الحقوق في الاتحاد السوفييتي، وهو تركيز أملته الحرب الباردة، وترتبط الآن بقوة بمجلس العلاقات الخارجية (CFR)، وهو يضم النخبة السياسة الخارجية للولايات المتحدة. كما تتمتع هيومان رايتس ووتش أيضاً بعلاقة جيدة مع وزارة الخارجية الأمريكية، وأصبحت المحرك الرئيس لفكرة التدخل العسكري الأمريكي على أساس حقوق الإنسان.

قدّم مجلس العلاقات الخارجية في عام 2000 للرئيس بيل كليتون (Bill Clinton) تقريراً يستند إلى "ثلاثة خيارات" حول "التدخل الإنساني". أتت المطالبة الأقوى بالتدخل، لمنع وقوع جرائم كبيرة، من وزارة الخارجية، ولكن الذي كتب تلك الورقة هو هولي بوركالتر (Holly Burkhalter)، المدير السابق لهيومن رايتس ووتش. طرح بوركالتر فكرة أن هناك حاجة "للقيادة الأخلاقية" الأمريكية، من أجل التدخل في كل مكان، لقمع «الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية». وهذه الفكرة تنسجم مع فكرة الاستثنائية (Exceptionalism) الأمريكية، عن أن الولايات المتحدة الأمريكية، بطريقة أو بأخرى، هي الزعيم الأخلاقي في العالم. لكن كانت الإسهامات المقدمة من وزارة الدفاع وهيئة الأركان المشتركة (JCS) أكثر حذراً، وشددّت على ضرورة الربط بشكل وثيق بين أي تدخل ومصالح الولايات المتحدة (CFR 2000). يبدو الموقف الأخير أكثر اتساقاً مع العقيدة العسكرية التقليدية التي تقوم على تجنّب الحروب المفتوحة.

تجنبت هيومان رايتس ووتش في أمريكا اللاتينية، وإلى حدٍ بعيد، الحديث عن الأنظمة المتوافقة مع الولايات المتحدة مثل كولومبيا، وهي البلد الأسوأ في

انتهاك حقوق الإنسان في تلك القارة. وعلى النقيض من ذلـك، هاجمـت مـراراً وتكراراً حكومة الراحل هوغو تشافيز (Hugo Chafez) في فنزويلا، فدائماً كـان لدى هيومان رايـتس ووتـش أجنـدة سياسـية. ووفقـا لخوسـيه ميغيـل فيفـانكو (José Miguel Vivanco)، مدير قسم الأمريكيتين في المنظمة، كان تقريرها في كانون الأول/ ديسمبر 2008 عن فنزويلا ("عشرة أعوام تحت حكـم تـشافيز")، كان كُتب «لأننا أردنا أن نثبتَ للعالم أن فنزويلا ليست نموذجـاً لأحـد». وانتُقـد ذلك التقرير بشدة من قبل أكثر من مئة أكاديميّ لعـدم اسـتيفائه «حـتى المعـايير الدنيا في التراث البحثـي، كالحياديـة، ودقـة الـصدقيّة» (Acuña et al 2008). ومما يؤكد على مكانتها الخطيرة، تلقت هيومن رايتس ووتـش في عـام 2010، مئة مليون دولار أمريكي من الملياردير جـورج سـوروس (George Soros)(*)، وهو رجلٍ أعمال مؤيد بقوة لإسرائيل (HRW 2010). وهذا المستوى من الرعاية يقوم دائماً على مبدأ المقايضة (Squid pro quo). فبعد أن لوحظ تردد عدد مـن مدراء هيومـان رايـتس ووتـش والمستـشارين إلى وزارة الخارجيـة الأمريكيـة، اتهمت مجموعة من الحائزين على جائزة نوبل هيومن رايتس ووتش، بأنها تقوم بـسياسة "البـاب الـدوار"(**) بـين مكاتبـها وتلـك التابعـة للحكومـة الأمريكيـة (Alternet 2014). لكن يبدو أن المنظمة لم تكن مهتمة بهذا الخبر.

وكما هو الحال مع هيومن رايتس ووتش، لا تعارض منظمة العفو الدوليـة التدخلِ الغربيّ على أساس مبادئ حقوق الإنـسان والقـانون الـدولي. بـل تقـدّم مشورةً للقُوى الكبرى حول كيفية تنفيذ التدخلات. فـإذا مـا كـانوا «ينظـرون في توريد الأسلحة إلى الجماعات غير الحكومية أو المسلحة في سورية أو في عـدم

(*) الإشارة لجورج سوروس، وهو رجل أعمال أمريكي من أصل هنغاري، عرف بدعمه للسياسات الليبرالية، ودوره الفعال في مرحلة التحول مـن الـشيوعية إلى الرأسماليـة (نقـلاً عـن ويكيبيـديا عربي) . هذه الإشارة لسورس حذفت في نسخة الكتاب الصادرة في كندا، وأبقينا عليها هنا بنـاء على رسالة رسمية من المؤلف، (المترجمة).

(**) "revolving door": تعبير يستخدم بشكل غير سمي للإشارة إلى الاستعانة بمـوظفي الحكومـة الـسابقين من قبل الشركات الخاصة التي كان لديها تعاملات عندما كانوا يعملون لصالح الحكومة، (المترجمة).

توريدها، يجب إجراء تقييم دقيق للخطر على حقوق الإنسان، والقيام بعملية مراقبة قوية»، تقول المنظمة. وهذا ما تطرب له آذان القوى الإمبريالية. لكن القانون الدولي لا يسمح بتوريد الأسلحة إلى أي مجموعة غير الحكومة، ناهيك عن مهاجمة دولة معترف بها (Sterling 2015b). لقد قدمت منظمة العفو نفسها مستشاراً لواشنطن فيما يتعلق بكيفية إضفاء بريق حقوق الإنسان على تدخلاتها غير المشروعة.

ويفضح منظمة العفو قيامُها في السنوات الأخيرة ببناء سمعةٍ تستند إلى دعم وتلفيق ذرائع الحرب وما ينجم عنها من تسويغ الاحتلال العسكريِّ. ففي الفترة التي سبقت حرب الخليج الأولى (1990 ـ 1991) روجت منظمة العفو الدولية لقصة فتاة في سن المراهقة ادّعت أن القوات العراقية كانت تسرق الحاضنات، وتترك الأطفال يموتون على أرضية المستشفى الكويتي. ثم اتّضح أنها قصة وهمية وكانت تلك الفتاة ابنة السفير الكويتي (Stauber and Rampton 2002; Regan 2002). وقبل أن يقوم الناتو بقصف ليبيا عام 2011، ساعدت منظمة العفو في الترويج للروايات عن أن الرئيس القذافي، كان يستخدم "المرتزقة السود" لذبح المدنيين الليبيين. ثم بعد أن دُمرت البلاد وبعد مقتل القذافي، اعترفت رئيسة منظمة العفو (فرنسا) جينيفيف غاريغوس (Genevieve Garrigos) أنه لم يكن هناك من دليل يدعم هذه الروايات (Truth Syria 2012). كما أثارت منظمة العفو موجة من الانتقادات الواسعة بسبب رفع لوحة كانت تحمل عبارة «الناتو: حافظْ على استمرار التقدم» في أفغانستان. وكانت الإشارة إلى "التقدم" تعني التقدم المُفترض في مجال حقوق المرأة، في ظل احتلال الناتو. لكن في الواقع، وبعد مُضي عقد من الغزو الذي بدأ في 2001، لا يزال مستوى النساء الأفغانيّات في مجال الصحة والتعليم منخفضاً بشكل كبير؛ فليس هناك من قوة احتلال عسكري خارجي تحقق تقدماً في الصحة والتعليم، ناهيك عن الديمقراطية.

وكانت هذه الحملة: «الناتو: حافظْ على استمرار التقدم»، مدفوعةً من سوزان نوسل (Suzanne Nossel)، المدير التنفيذي لمنظمة العفو (الولايات المتحدة الأمريكية)، التي كانت انتقلت بشكل سلس من وزارة الخارجية الأمريكية

إلى المنظمة، حيث كان تعمل على سياسة الولايات المتحدة ضد روسيا وإيران وليبيا وسورية (Teil 2012: 146). وقال رايت وروولي (Wright and Rowley) (2012) إنَّ منظمة العفو كانت «المحرك لحروب الولايات المتحدة». وكانت تدمر سمعتها من خلال اعتماد نهج هيومن رايتس ووتش في سياسة "الباب الدوار" مع وزارة الخارجية الأمريكية.

أصبحت وسائل الإعلام "الليبرالية" جزءاً لا يتجزأ من خطط الحرب، بطريقتها الخاصة. وفي حين تستحق قصص البي بي سي، والجارديان البريطانية والنيويورك تايمز التدقيق، بسبب نهجها المستمر في معاداة سورية، لن يكون بالمقابل صعباً فهم العار الخاص بالجزيرة. لقد مول المالك الرئيس لهذه القناة، أعني: إمارة قطر، وسلّح الجماعات التي على غرار القاعدة في ليبيا وسورية، ولاسيما تلك المرتبطة بجماعة الإخوان المسلمين (Kirkpatrick 2014).

يلاحظ محلل عراقي بريطاني أن «حكام قطر ... نظروا إلى قناة الجزيرة بوصفها وسيلةً لنشر نفوذهم السياسي ... [كما] أصبحت قطر مقر العمليات العسكرية الأمريكية في جميع أنحاء الشرق الأوسط». والحقيقة أنّه تبقى الجزيرة واحدةً من المصادر الأساسية المسؤولة عن بث المخاوف المستمرة بشأن التهديد الطائفيّ المفترض من إيران ونفوذها "الشيعي" في المنطقة (Ramadani 2012). فالاستقلال القليل الذي أظهرته المحطة ذات مرة، عندما غزت الولايات المتحدة العراق في عام 2003، أصبح تقريباً من الماضي.

وبدأ الصحفيون العاملون في قناة الجزيرة بتقديم استقالاتهم بأعداد كبيرة، بالتزامن مع اندلاع الأحداث في كلٍّ من سورية ومصر، محتجين على تدخُّل الإدارة في عملهم. حيث استقال رئيس مكتب بيروت غسان بن جدو بعد وقت قصير من بدء الصراع في سورية، قائلاً: إن المحطة استضافت فقط «ضيوفاً من أمريكا من الذين ينتقدون فقط النظام في سورية، ويدعمون النظام في البحرين، ورحبت بالأشخاص الذين يبررون تدخل الناتو. وهذا الأمر غير مقبول». وفي وقت لاحق، استقال المدير الإداري حسن شعبان، قائلاً: إن قناة الجزيرة رفضت إظهار الصور التي كانت بحوزته عن «المقاتلين المسلحين الذين اشتبكوا

مع الجيش السوري في وادي خالد». حيث اتهمته المحطة بأنه من "الشبيحة"(*)، أي: سفاح "النظام". وقال الصحفي أفشين راتانسي (Afshin Rattansi) أيضاً: إنَّ المحطة أصبحت متحاملة، في حين قال تيد رول (Ted Rall): إنه جرى رفض مقالاته بشكل منتظم (RT 2012). كما استقال مراسل القناة في بيروت علي هاشم. في عام 2013. و فقدت قناة الجزيرة في مصر اثنين وعشرين موظفاً، بسبب تحيز الإدارة غير المحمول. فلقد أُمر الموظفون أن يكونوا مع نظام الإخوان المسلمين المخلوع. ونتيجة لذلك، أعلنت الحكومة العسكرية الجديدة في مصر قناة الجزيرة «عدواً لمصر» (Taylor 2013).

هذا، وفي عام 2015، بينما كانت القوى الغربية وحلفاؤها من ملكيات الخليج، يكافحون للحفاظ على ذلك الخيط الوهمي الفاصل بين تعريف الجماعات الإرهابية و"الثوار المعتدلين"، صدرت تعليمات للموظفين في قناة الجزيرة الإنكليزية، بعدم الإشارة إلى النصرة [صاحبة الامتياز الرسمي لتنظيم القاعدة في سورية، وهي منظمة إرهابية محظورة في معظم دول العالم] كـ "تنظيم القاعدة". حيث أوعزت مذكرة داخلية من المنتج المنفذ كيلي جاريت (Kelly Jarret) بتعليمات لموظفيها أنَّ:

«الرجاء عدم تقديم النصرة على أنها "تابعة لتنظيم القاعدة ". الحرب في سورية معقدة ... والحقيقة هي أن القاعدة لم تعد المنظمة التي كنا نعرفها من قبل وليست مناسبة في هذا السياق. فالنصرة هي جزء من تحالف من المتمردين في سورية الذي يتكون من مجموعات مسلحة متعددة ... والمشاهدون بحاجة إلى فهم أن هذه الجماعات المسلحة تشكل المعارضة الرئيسة للحكومة التي يقودها الرئيس الأسد» (MEE 2015a).

قيل: إنه لم يكن هناك أيّ اعتراض على هذا، لأن «أي شخص يهتم بالخط

(*) مصطلح انتشر بطريقة تمت فيه الإشارة لكل من يؤيد الدولة السورية على أنه "شبيح"، وأصل التسمية عامية كانت تطلق على بعض الخارجين على القانون، ممن كانت الدولة السورية تحاربهم، ثم انتشر المصطلح ليصم المؤيدين للدولة السورية، (المترجمة).

التحريري للقناة غادر المحطة منذ فترة طويلة» (5 Pillars 2015). وقالت تشارلي وينتر (Winter Charlie)، المحللة في مؤسسة كويليـام (Foundation Quilliam): إنَّ هذا التحوّل «كان جزءاً من عملية التطبيع التي كان تنظيم القاعدة في سورية، يسعى إلى القيام بها لبعض الوقت... حيـث تريـد القاعـدة أن تبـدو أكثـر قبـولاً للغرب» (MEE 2015a).

تقنيات الإقناع

بينما تحشد جميع وسائل الإعلام الغربية، المملوكـة للدولـة أو للـشركات الخاصة، لحرب جديدة، تبدو وسائل الإعلام الليبرالية، على وجه الخصوص، مرتاحة لدور "المنقذ" في الحرب "التبشيرية" أو "الإنسانية". فغالبيّة تقنيـات دعايتـهم تقليدية جداً. فأولاً، لقد أصبحوا منحازين بشراسة، ويقومـون بأنـسنة "مقـاتلي الحرية" الذين يقفون في صفنا نحن الغربيين، وتـشويه صـورة الطـرف الآخـر، مستثنين بقوة الأصوات المعارضة أو فكرة التدقيق بالمطالبات الرسمية بالحرب. ثانياً، إنهم مولعون بقصص منتشرة لكنها خاطئة، ويكررونها على نحو يثير الاشمئـزاز. لقد كررت البي بي سي في أواخر عام 2015، وعلى مدى أكثر من أربع سنوات من الحرب في سورية، العديد من تلك الأكاذيـب الرئيـسة عـن تـاريخ مختـزل للصراع. فبدايةً، قالوا لقد بدأ الصراع، لأن الجيش الـسوري قتـل المتظـاهرين العُزَّل ثم «بدأ أنصار المعارضة في نهاية المطاف بحمل السلاح، بدايةً للدفاع عن أنفسهم، ولاحقاً لطرد قوات الأمن من المناطق المحلية» (BBC 2015b).

لكن اعترف السعوديون في الواقع، منذ سنوات سابقة، أنهم سلحوا التمرد الإسلاموي في درعا، من بداية الأزمة في آذار/ مـارس 2011. كمـا أن "قـصة" البي بي سي تزعم أيضاً أنَّ «تركيا والسعودية وقطر دعمت المعارضة التي يهيمن عليهـا الـسُّنّة الأكثـر اعتـدالا» (BBC 2015b). إلا أن نائـب الـرئيس الأمريكـي جو بايـدن (Joe Biden) والقائـد العـام للقـوات المـسلحة الأمريكيـة الجنـرال مـارتن ديمبـسي (Martin Dempsey) اعترفـا علنـاً، في الـسَّنة الماضـية، بـأنَّ حلفاءهم الإقليميين، أي: تركيـا والـسعودية وقطـر، يمولـون كـل الجماعـات

المتطرّفة، بما في ذلك "داعش". فالمساواة بين جماعات تنظيم القاعدة و"السنة المعتدلين" لم يكن بالتحيز البسيط من قبل البي بي سي، لقد كان تضليلاً متعمّداً. كانت التقنية العامة الثالثة هي الانخراط المباشر في الأمر، أو تشجيع، الافتراءات. ولذا دعونا نلقي نظرة على بعض الأمثلة البارزة.

تجدر الإشارة إلى أنّه في الأشهر الأولى من الأزمة، في عام 2011، وبينما كان الجيش السوري يشتبك مع "لواء الفاروق" الإسلاموي التابع لـ'الجيش السوري الحر' في مدينة حمص، عُرضت روايات شاب بريطاني-سوري، يُدعى داني عبد الدايم ـ على نحوٍ كبير ـ على شبكات السي أن أن (CNN)، وسكاي نيوز (Sky News) والعربيةً. ادّعى داني بأن المدنيين كانوا يُذبحون بشكل عشوائي عن طريق القصف في حمص. قال: إنه كان موجوداً هناك، وذكر لـ**(لسي أن أن)** إن المئات من الأشخاص يُقتلون في الشوارع. إلا أن أدلة الفيديو أثبتت أن داني كان دجالاً يختلق قصصه، مع مؤثرات صوتية يتم إنتاجها في الاستديو، هذا إلى جانب كونه أيضاً منحازاً إلى المجموعات المسلحة (Syrians Worldwide 2012; Emassian, Kelanee, Kardous and al Kadri 2012).

لقد دخل عدد من الصحفيين الغربيين بطريقة غير قانونية إلى سورية بحثاً عن الأخبار، بعد تصديقهم ما قيل لهم عن أنَّ الجماعات الإسلامويّة تتألف من "مقاتلين من أجل الحريّة"، يتصفون بالودّ، ليجدوا أنفسهم مختَطفين على أيدي الإسلاميين أو مُتعرضين للخطر من نيران الجيش السوريّ في أثناء خوضه معاركه مع المسلحين. كانت إحدى هذه المجموعات مجموعة مؤلفة من خمسة، يقودهم صحفيٌّ في الأن بي سي (NBC) ريتشارد إنجل (Richard Engel)، اختُطفت هذه المجموعة في كانون الأول/ ديسمبر عام 2012. وكانت القصة اللاحقة التي أذاعتها الأن بي سي أن إنجل وزملاءه اختطفتهم «الميليشيات الشيعية الموالية للأسد وحزب الله». وقد أعطى إنجل تفاصيلَ عن طريقةِ « الموالين للأسد» « في التعذيبِ الوحشي» للصحفيين وكيفيّةِ قتلهم سائق 'الجيش السوري الحر'، قبل أن ينقذهم المتمردون الموالون للحكومة. لكن بعد بضع سنين، تحدثت مجموعة من النيويورك تايمز إلى عدد من الناس، وخلصت إلى أنه «من شبه المؤكّد أن فريق

إنجل اختُطِف من قبل عناصر إجرامية "سنيّة" تابعة 'للجيش السوري الحر'» (Somaiya, Chivers and Shoumali 2015). وقد تبيّن أن المديرين التنفيذيين في الأن بي سي عرفوا هذا في الوقت الذي كان فيه إنجل في الأسر (Gharib 2015).

دفعت قصة النيويورك تايمز هذه إنجل إلى "إعادة نشر الخبر"، مُستنتجاً أن أولئك الذين كانوا في المجموعة الخاطفة ينتمون إلى "'المتمردين السنة "، مدعياً أنهم « استخدموا حيلة متقنة» لانتحال شخصيات تنتمي إلى «ميليشيات الشبيحة الشيعية» (Somaiya, Chivers and Shoumali 2015). وصفت الأن بي سي هذا التحول بأنه مجرد «تفاصيل جديدة»و« معلومات إضافية عن القصة» (Engel 2015). ولكن بمصطلحات حرب الدعاية، فقد أدّت هذه القصة وظيفة "الدَّور الكاذب" لكن بعد انكشاف الخداع فيها.

وقد ذهبت البي بي سي أبعد من مجرد تكرار التواريخ المزيفة. وفي هذا الاتجاه تتبع الناقد الإعلاميُّ البريطانيُّ روبرت ستيوارت (Robert Stuart) البي بي سي فيما يخصُّ وثائقيّاً بثته في 30 أيلول/ سبتمبر 2013 بعنوان "إنقاذ أطفال سورية"، وإلى ما هنالك من تقارير إخباريّة متصلة، «ادعت أنَّ الحكومة السورية نفذت هجوماً بقنبلة حارقة على مدرسة»، ذلك باستخدام "النابالم" أو الأسلحة الكيمياوية. كان السياق في تلك الفترة سياقاً من ضغوط دولية مكثفة، مع سعي الولايات المتحدة، زوراً، لتوريط الحكومة السورية في هجمات الأسلحة الكيمياوية (انظرْ: الفصل الثامن). وقيل: إنَّ هذا «الهجوم على المدرسة»، كان في 26 آب/ أغسطس 2013 في أورم الكبرى، في حلب.

استعانت البي بي سي بالدكتورة رولا هالام، المناهضة البارزة للحكومة السورية، لكن لم يتم الكشف عن هُويتها في التقرير. لم يكن ذلك مجرد حالة عن قصة يجري تسويتها من خلال مصادر منحازة. فقد «صُوِّر شريط الفيديو من قبل موظفي البي بي سي وغيرهم في مستشفى قريب»، يقدم ستيوارت أدلة تثبت أن هذه المشاهد المصوّرة هي «إلى حد كبير، إن لم تكن كلها، قد تم إعدادها». وهذا يعني أن فريق البي بي سي لعب دوراً فعّالاً في فبركة الأدلة. وقد فحص

خبراءُ اتصل بهم ستيوارت تلك اللقطات، مؤكِّدين أنَّ ضحايا الحروق الذين صُوِّروا ليسوا كذلك بالفعل. وتم تحرير صوت تعليقات الدكتورة هالام (التي ارتدت قناعاً طبياً)، وتم تغييره بين النسخ المختلفة من الفيديو. وقد نشر ستيوارت (2013 ,2015) مُستنداً مصوّراً عن الأدلة المتعلّقة بهذا التلفيق على الإنترنت. وانتزع بعض الاعترافات عمّا حدث، من خلال الاعتماد على الشكاوى الداخلية في هيئة الإذاعة البريطانية، ولكن دون أن يؤدي ذلك إلى تراجعٍ كبير من قبل البي بي سي (Stuart 2015).

هذا إلى أنّه بطبيعة الحال تقوم البي بي سي وغيرها ـ في كثير من الأحيان ـ بتكرار الأكاذيب والتلطي وراءها، حتى لو كانت من مصادر منحازة تستخدم البي بي سي المصادر الإسلامويّة نفسها بانتظام، ذلك على وجه العموم؛ أما على وجه الخصوص، فتُعوِّل على 'المرصد السوري لحقوق الإنسان'، الذي مقره المملكة المتحدة، وهذا كلّه بهدف تكرار الادعاءات عن أنَّ الهجمات على المقاتلين الإسلامويين، هي هجمات على المدنيين، وتكون هذه الادعاءات من قبيل: «العشرات» من المدنيين قتلوا في الغوطة الشرقية، «يقول ناشطون» (BBC 2015b). لكن لا توجد أية إشارة في قصة البي بي سي هذه لعمليات إخلاء كبيرة سابقة، حدثت قبل عدّة أشهر من ذلك، وموثّقة بالصوّر، لآلاف من مدنيي تلك المنطقة ذاتها، اضطلع الجيش السوريّ بمهمة القيام بها (SANA 2015). يقول إريك زويسيه (Eric Zuesse) (2015) في هذا الصدد إنَّ سلسلةً من أكاذيب البي بي سي قد حَمّلت بصورة غير مُحتملة الرئيسَ الأسد مسؤولية صعود تنظيمي القاعدة و"داعش"، وكذلك مسؤولية جميع أولئك الذين قضوا في الحرب القذرة على سورية.

مضت وسائل الإعلام الأسترالية على المنوال ذاته مثل البي بي سي، مع بث المزيد من القصص عن الهجمات بـ"البراميل المتفجرة" في الغوطة الشرقية، وهي المناطق التي تسيطر عليها النصرة و 'الجبهة الإسلامية' منذ أكثر من عامين، والتي تشكل قاعدة لهجمات بقذائف الهاون بشكل منتظم على دمشق. قُدّم قصف الجيش كما لو كان شنّاً لهجماتٍ متعمَدة أو عشوائية ضدّ المدنيين،

مستخدمين فيديو مُعداً على نحو مسبق، قدمته الجماعات المسلحة. على سبيل المثال، نشرت هيئة الإذاعة الأسترالية الأي بي سي (ABC) خبراً في آب/ أغسطس 2015 مدعيةً أنَّ مدنيين يتراوح عددهم بين ثمانين ومئة قد قُتلوا، في غارات جوية على دوما. وقيل: إن مصدر الأي بي سي هو «مراسلة الشرق الأوسط صوفي ماكنيل (Sophie McNeill) ومصادر ذات صلة»، غير أنَّ هذه المصادر عموماً مؤيدة للإسلامويين، ومنها ما يرفع علمهم، ولا سيما 'المرصد السوري لحقوق الإنسان'. إنَّ نقطةَ التضليل واضحة هنا حيث تقوم ماكنيل بالتحرير مع دعوة للتدخل العسكري الغربي الأوسع قائلةً: «طالما يفشل الغرب في التحرك ضد حكومة الأسد، تستمر 'الدولة الإسلامية' في الازدهار» (McNeil 2015).

وكما هو الحال مع الأي بي سي المملوكة للدولة، فإنَّ الكثير من وسائل الإعلام في أستراليا كررت ببساطة ادعاءات البيت الأبيض عن أن «الأسد أمر بإلقاء الغاز على الأطفال»، بغض النظر عن الأدلة، بل كانت هذه الوسائل أحياناً تختلق أدلتها الخاصة. فعلى سبيل المثال، أعلن ريك مورتون (Rick Morton) من روبرت موردوخ الأسترالية في كانون الثاني/ يناير 2014 أن «تقريراً للأمم المتحدة قدّم أدلة دامغة على أن "النظام السوري" فقط قادر على ارتكاب هجمات مُحققّة بالأسلحة الكيماوية» (Morton 2014). وفي الواقع، إنَّ أحدث تقرير للأمم المتحدة في ذلك الوقت، قال: إنَّ أيّاً من هذا لم يحدث. حيث يخلط مورتون، عن وعي أو غير وعي، بين تصريحات البيت الأبيض وتقارير الأمم المتحدة. إذ لم يحدد تقرير للأمم المتحدة في كانون الأول/ ديسمبر 2013 المسؤولية عن خمس هجمات كيماوية، أكيدة الوقوع في سورية، لكنه قال: إنَّ اثنتين منها كانتا ضد الجنود، وكانت واحدة من هذه الهجمات ضد «الجنود والمدنيين» معاً. وهذا يقطع بأنَّ من نفّذ الهجمات هم أعداء الجنود السوريين (UN 2013: 18-21).

كما أظهرت عدة تقارير إعلامية سابقة أن النصرة كانت تملك غاز السارين (انظرْ: الفصل الثامن). واستمر العديد من الصحفيين في تكرار ادعاءات البيت

الأبيض عن الأسلحة الكيمياوية، بعد فترة طويلة أفاد خبراء أمريكيون أن الصواريخ موضوع الاستقصاء «لا يمكن أن تكون أطلقت على الغوطة الشرقية من ... المنطقة التي تسيطر عليها الحكومة، على النحو الذي اقترحه البيت الأبيض» (Lloyd and Postol 2014). ثم بعد عامين طالب اثنين من نواب المعارضة التركية بالتحقيق في مزاعم تفيد بأن الحكومة التركية قد وفّرت غاز السارين للجماعات الإسلاموية لاستخدامها في تلك الحادثة (Today's Zaman 2015).

وقد ساعدت البي بي سي في التستر على خبرٍ شنيع، أعني: تلك الجريمة التي وقعت في آذار/ مارس 2013 بحق أكبر علامة في الدراسات الإسلامية في سورية، الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي. والشيخ، وهو عالم سوري ذو توجه تعددي فيما يخص المسائل الدينية، جاهر برأيه ضد الطائفية العنيفة. لذلك وصفه الإسلامويون ومؤيدوهم في وسائل الإعلام الغربية، بأنه «رجل دين موالٍ للأسد» (Mourtada and Gladstone 2013). هددت النصرة بقتله، وقتلوه بالفعل، ثم بعد ذلك، كما هي عادتهم، كانوا يحاولون إلقاء اللوم على الحكومة السورية. تم تفجير القنبلة في مسجد في دمشق، حيث كان الشيخ يتحدث، ما تسبب بمقتله ومعه أكثر من أربعين آخرين (Mourtada and Gladstone 2013). لكن تم نسخ "ستار الدخان" (الخدعة) على وسائل التواصل الاجتماعيّ التي تم إنشاؤها من قبل الإسلامويين، وساعد مراسل البي بي سي جيم موير (Jim Muir) على تضخيم تلك الخدعة. حيث ادعى «أنه لا يعقل أن يتسبب مثل هذا الانفجار الصغير في وفاة نحو خمسين شخصاً، كما ذكرت وسائل الإعلام الرسمية»، لافتاً إلى الفيديو الذي يُظهر أنَّ الشيخ البوطي لم يمت على الفور.

وكان الاقتراح الذي طرحه أنَّ الهجوم كان مُفتعلاً، واستخدمته الحكومة بطريقة أو بأخرى كحادثة وهمية لتقتل الشيخ البوطي (Muir 2013)، وهذا كذب فاضح. ففي وقت لاحق من ذلك العام ألقي القبض على خمسة من الإرهابيين، واعترفوا على التلفزيون السوري بالجريمة بالتفصيل ذاكرين ما قاموا به. قال أحدهم: إنَّه وبعد أن «انتقد الشيخ البوطي عمليات النصرة في سورية أُمرنا بقتله، إثر فتوى من قبل المسؤول الشرعي العام للنصرة» (Syrian Alikhbaria 2013).

كان هناك حاجة، على ما يبدو، لفتوى خاصة (أمر ديني) بالنسبة لهم لقتل المسلمين في المسجد. وبعد هذه الاعترافات، لم يتراجع جيم موير عن قصته، ولم تفعل ذلك البي بي سي. ومن الجدير بالذكر أنه قبل هذا الوقت كانت الدولة البريطانية تقدم دعماً مادياً كبيراً للجماعات السورية المسلحة، بما في ذلك جماعات "المتمردين المعتدلين"، وتعمل بشكل وثيق مع النصرة (Hopkins 2014). لقد تواطأت البي بي سي نفسها مع المجرمين.

كما سعت سلسلة من القصص الغربية إلى أنسنة الإرهابيين المدعومين من الغرب، في حين جرّدت عن الجيش السوري إنسانيته متهمة رجاله بأنهم مجرد "موالين للأسد"، بدلاً من كونهم أُناساً يدافعون عن بلدهم. وقد استخدمت وسائل الإعلام الأُسترالية في تشرين الثاني/نوفمبر 2013 عنواناً دالاً هو "تفجير انتحاري يقوم به رجل من عائلة في بريسبان(*) في سورية" (Kryriacou and McKenna 2013). هذا إلى أنَّه لم يذكر اسم أيّ من الخمسة والثلاثين سوريّاً المقتولين بسبب هذا الإرهابيّ الأجنبيّ. وفي آذار/مارس 2014 أولت وسائل الإعلام البريطانية معاملة مماثلة للانتحاري الباكستاني ـ البريطاني وحيد عبد المجيد، الذي قاد شاحنة مدرعة ضخمة محمّلة بالمتفجرات صوب موقع للجيش السوري في حلب. كانت هناك صور لعبد المجيد وهو «أب لثلاثة أطفال ويبلغ واحداً وأربعين عاماً من العمر» وهو يقدم الحلوى للأطفال، وسلّط تقرير البي بي سي الضوء على الاقتباس مما قاله أخوه حافظ، «أخي لم يكن إرهابياً ـ أخي كان بطلاً» (Casciani 2014).

لكن البي بي سي لم تأتِ على ذكر البطل الحقيقي، وهو الجندي السوري الشاب محمد رجب، الذي استشهد بينما كان يحاول إيقاف تلك الشاحنة المفخخة بقاذفة أر بي جي التي كان يحملها (Syrian Lioness 2014). وبالمثل، نشرت صحيفة الإندبندنت (The Independent) البريطانية، في أيلول/ سبتمبر، 2015 قصة مصورة عن «الانتحاري الأوزبكي الشاب الذي تم تصويره،

(*) مدينة في أسترالية.

وهو يبكي قبل تنفيذ مهمته الأخيرة في سورية»، وبدا أنه «قلق من الناحية الجسدية [و] شوهد وهو يُعانق ويُبارك له بالشهادة من قِبَلِ مسلحين، بينما كان يبكي قبل الشروع في تنفيذ مهمته الأخيرة». يقول صديقه له: «جعفر، يا أخي، لا تخف. عندما تشعر بالخوف، تذكّر الله». فيجيب: «أنا خائف فقط من أنني لن أنجح»، ذلك كان قبل أن يتم إرساله إلى حتفه» (Eleftheriou-Smith 2015). ولا توجد أي إشارة إلى أي من السوريين الذين قُتلوا على يد هذا الإرهابي الأجنبي. إذ "لم يرتقِ السوريون إلى مستوى الإنسانيّة" في منظورِ الإعلامِ الغربيِّ العنصريِّ.

أضاف الباحثون المرافقون القصص التي تسعى إلى أن تجعل من القتلة الطائفيين "معتدلين". ففي أيار/يناير 2015 نشرت مجلة الفورين أفيرز (Foreign Affairs) (المجلة التي تصدر عن مجلس العلاقات الخارجية في أمريكا) مقالاً استناداً إلى مسح استقصائي لـ«خمسين من المقاتلين الإسلامويين من أحرار الشام والنصرة، جنباً إلى جنب مع العديد من المشايخ الذين تلقوا تعليمهم في المملكة العربية السعودية». حاول هذا التقرير أن يبيّن أن هؤلاء الناس يدعمون القيم الديمقراطية. وجاء عنوان المجلة الرئيس على النحو الآتي: "سورية ديمقراطية الجهاد"، وكان العنوان الفرعي "لماذا يدعم مقاتلو "داعش" التصويت؟ واتساقاً مع الأسلوب الكلاسيكي في تقريع هؤلاء الطائفيين ذوي السمعة الرديئة، بسبب قطعهم رؤوس "الكفّار"، فإن هذا الأمر يقتضي نشر مذابحهم، بما يتسق مع توجّه المجلة؛ إلا أننا نجد في هذا المقال المنشور في المجلة نفسها «موافقة هؤلاء على» أنَّ «الديمقراطية هي أفضل من أي شكل آخر من أشكال الحكومة». ولاحظ مؤلفو المقال أن هذا «يبدو مناقضاً لهدف بناء... "خلافة إسلامية"، لكنهم استمروا بالإيحاء أن هذه العصابات قد تمثّل شكلاً من المستقبل الديمقراطي لسورية (Mironova, Mri, Nielsen and Whitt 2015)، يا لها من إهانة لذكاء الإنسان.

ومع ذلك، كانت تلك القصة متسقة مع حركة أوسع لإعادة وصم وأنسنة تنظيم القاعدة. فبعد أن انشق ' لواء حزم' الذي سلحته الولايات المتحدة، وسلّم أسلحته (بما في ذلك الأسلحة المضادة للدبابات) إلى النصرة (Sherlock 2014)، أصبحت فكرة وجود قوة من المتمردين "المعتدلين" الواضحين، مرة أخرى،

فكرة يصعب الاستمرار فيها على الملأ. وهكذا في مطلع عـام 2015 كـان هنـاك حملة جديدة لإعادة تأهيل النصرة، وهي أقوى الميليشيات المناهضة للحكومـة في سورية بعد "داعش". ورغم أنَّ هذه المنظمة قد عُـدّت لفتـرة طويلـة صـاحبة الامتياز "الرسمي" لتنظيم القاعدة في سورية، فإن هذه التسميات كافةً يمكـن أن يعاد تشكيلها. وفي هذا الاتجاه تشير مرام سوسلي (Maram Susli) (2015) إلى أن صحيفة النيويورك تايمز قالت: إن النصرة قـد «قطعـت العلاقـات مـع تنظـيم القاعدة أملاً في الحصول على المزيـد مـن المـساعدات العـسكرية»، في حـين لاحظت رويترز أن مثل هذه الخطوة قد تساعدها على الحصول على «المزيد من الدعم من دول الخليج العربي المعادية لكل مـن (الـرئيس) الأسـد و"داعـش"». واسـتطردت الـبي بي سـي أكثـر، وفي مقـال رأي للـدكتور ديفيـد روبـرتس (David Roberts)، قال فيه: إن تسليح قطر للنصرة «قد يكون أمراً جيداً»، دون أي ذكر لقطع العلاقات مع تنظيم القاعـدة. يلاحـظ روبـرتس أنـه «في مواجهـة صمود كلّ من (الرئيس) بشار الأسد وتنظـيم "داعـش"، انطلاقـاً مـن الموقـف المختلف عن الآخر لكلّ منهما، فإن قوة قتاليـة يعـاد تـشكيلها، بحيـث تكـون فعّالة، ستصبح موضع ترحيب من قبل الغرب ... وخطة قطر خطة مجدية مثـل أية خطة أخرى» (Roberts 2015). كيف يمكن لأية دولة أن تنفذ حربها القـذرة دون مثل هكذا جيش من المساعدين من وسائل الإعلام المتوافقة؟

هذا، وعلى الجانب الآخر، اتبعت مجموعات غربية صغيرة كذب وسـائل الإعلام عن سورية. أشارت المجموعة الأمريكية (FAIR) [والاختصار يشير إلى عبارة الإنصاف في الدقة ونقل الأخبار]، التي أنشئت في عام 1986، إلى حجب تاريخ وكالة المخابرات المركزية في سورية، من قبل صحيفة النيويـورك تـايمز. فعند مناقشة نهـج إدارة أوبامـا المُفتـرض عـن "عـدم التـدخل" في الـصراع في سورية، وعندما كانت تذكر برنامجاً للبنتاغون فشل في تدريب "المتمردين"، "لم تكتف بتجاهل حقيقة أن وكالة المخابرات المركزيـة، كانـت تـسلّح المتمـردين وتدربهم وتمولهم منذ 2012، بل أشارت ضمنياً بقوة إلى أنهـا لم تفعـل ذلـك» (Johnson 2015). وأظهـرت تقـارير عديـدة سـابقاً برنـامج وكالـة المخـابرات

المركزية عن «تسليح وتمويل وتدريب القوى المناهضة للأسد»، بما أفضى إلى إيجاد ربما عشرة آلاف من "المتمردين المقاتلين " وإنفاق نحو مليار دولار سنوياً (Johnson 2015).

وتركز مجموعتان بريطانيتان، أنشئتا مؤخراً، تركزان بشكل كبير على سورية. تأسست أُولاهما وهي ميديا لينز (Media Lense) على يد كلّ من ديفيد إدواردز (David Edwards) وديفيد كروموبل (David Cromwell) في عام 2001، وهي تدرس الحروب في الشرق الأوسط التي دفعت إليها القوى الكبرى منذ ذلك العام. ولديها سلسلة من المقالات التحليلية المتأملة في الحرب، مثل تلك المقالة القيّمة التي كتبها ديفيد إدواردز " 'الأدلة المحدودة ولكن المقنعة' ـ الأكاذيب عن سورية، السارين، وليبيا"، يتطرق فيها إلى سوء حالة الرأي العام البريطاني عن الضحايا نتيجة غزو العراق (وبطبيعة الحال، المحكوم بسوء حالة وسائل الإعلام البريطانية)، والتلاعب بقصص الأسلحة الكيمياوية في سورية، والأكاذيب عن ليبيا، وعلى وجه الخصوص، "الإبادة الجماعية في بنغازي" المفترض أنها كانت وشيكة الحدوث (Edwards 2013).

هناك المجموعة الثانية أيضاً وهي "الأوف جارديان" (Off Guardian)، وهي مبادرة تركز على التضليل في صحيفة الجارديان البريطانية، خاصة خلال الحروب في ليبيا وسورية، وكذلك على الأزمة في أوكرانيا. شملت قصص الجارديان البريطانية موضع التدقيق: القصص المزيفة عن "البراميل المتفجرة"، وإخفاء طبيعة الجماعات السورية المعارضة، وتقديم الأخبار المنحازة عن المبادرة الروسية لمكافحة الإرهاب في سورية والعراق، وتلفيق تقارير مؤيدة لإسرائيل في فلسطين، والدفع المستمر نحو سياسة "التدخل الإنساني" في سورية (Off Guardian 2015). تستشهد القصة الأخيرة بسايمون جنكينز (Simon Jenkins) الذي «عبر عن يأسه» من التدخلات الغربية الكارثية السابقة (Guardian Watch 2015)، ولكنه فضّل بعد ذلك الغزو على القصف:

«إذا كانت هناك في أي وقت مضى، في ربع القرن الماضي، حالة إنسانية واضحة تقتضي التدخل للتهدئة، وإعادة ترتيب واستعادة الحكم الرشيد في دولة

فاشلة، فيجب أن يكون في سورية ... فليس هناك من منهج أخلاقي آخر إلا إدخال القوات البرية» (Jenkins 2015).

يصب الموقع المنتقد جام غضبه على هذه الأوهام الإمبراطورية القديمة، ويخلص استناداً للمنطق إلى أنَّه «لا صدقيّة وراء المنطق الذي يقوم عليه التدخل الغربي إذ تعرّت حقيقته للدرجة التي لا يمكن أن يقال معها أي كلام ذي صدقيّة بحقه» (Guardian Watch 2015). ولكن بالكاد استطاعت تلك المجموعات الصغيرة القليلة، وعدد قليل من المحللين المستقلين، أن يكونوا منافسين لآلة الإعلام الغربي، التي تستخدم التضليل بشكل ممنهج لتقرع طبول الحرب.

المنظمات غير الحكومية التي تعمل من أجل "الحرب الإنسانية"

إذا صرفنا النظر عن هيومن رايتس ووتش ومنظمة العفو الدولية، فإن مجموعة جديدة من المنظمات غير الحكومية المختصة بسورية، والتي معظمها ينشط على الإنترنت، تم إنشاؤها في الولايات المتحدة الأمريكية. فـ"الخوذات البيضاء" (White Helmets)، و"حملة سورية" (Syria Campaign)، و"أصوات سورية الحرة" (Free Syrian Voices) و"الموزاييك السوري" (Syria Mosaic)، جميعها إبداعات أخرى تمولها المبادرة التي يمولها سوروس(*) أي "آفاز" وترتبط بمجموعة" بيربوس". أُطلقت آفاز في عام 2007 من قبل "روبوبليكا" (Res Publica)(**)، وكانت مدعومة في البداية بأكثر من مليون دولار من جورج سوروس. وفي السنوات الأخيرة كان لها ميزانية تصل لعدة ملايين سنوياً من جهات مانحة خاصة لم يُكشف عنها (NGO Monitor 2013). تشترك "آفاز"، مع مجموعة سوروس روبوبليكا بروابط قوية مع المنظمات الصهيونية (ESB 2012).

تركز "آفاز"، والتي تقدم نفسها على أنها مجموعة "ناشطة" في مجال "حقوق

(*) حذفت الإشارة في هذا الموضع لجورج سوروس من قبل الناشر الكندي في النسخة الأصلية من الكتاب، (المترجمة).

(**) مؤسسة بحثية مقرها بريطانيا، والكلمة أصلها لاتيني ويعني "القضايا العامة"، (المترجمة).

الإنسان"، في حملاتها على الإنترنت، على القضايا الدولية، وبشكل بارز حول فلسطين وإسرائيل. حيث تنتقد الممارسات الإسرائيلية. وبرأي العديد من الصهاينة المتشددين، فإنّ "آفاز" وجورج سوروس، تُعدّان معاديتين لإسرائيل (انظر Rosenthal 2013). ومع ذلك أقترح أن نفهم نهج "آفاز "على نحو أفضل على أنها تمثل "اليسار الصهيوني"، وهو تيار ليبرالي مؤيد لإسرائيل يسعى إلى تقديم نفسه على أنه يقود الحركة من أجل الحقوق الفلسطينية، بينما يُبقي على معظم الامتياز العنصري المتأصل في الدولة الصهيونية. نشرت "آفاز" في عام 2011 شريط فيديو انتقدت فيه بشدة الممارسات الاستعمارية القائمة في إسرائيل (في "المستوطنات")، بينما أدانت المقاومة الفلسطينية "العنيفة" وروجت لـ"حل الدولتين" السلمي (Avaaz 2011). يدعو الإسرائيليون أحياناً اليهود الذين يدينون إسرائيل بـ «المعتدين الشّكّاك»(*) (Landsmann 2013)، ولكن هذا الخط يتسق مع خطاب، إن لم يكن ممارسة، واشنطن. ففي حين قُدم اليهود الليبراليون على أنهم يقودون القضية الفلسطينية، كان اليسار الصهيوني وحشياً مثل أي صهاينة آخرين ضد أعداء إسرائيل: المقاومة الفلسطينية المسلحة وداعميها الرئيسِين، إيران وسورية وحزب الله.

فطالما أن الإسلامويين الطائفيين من جماعة الإخوان المسلمين والوهابيين أساساً يعتمدون الفكر التقسيمي، فإن الصهاينة من جميع فئاتهم سيدعمونهم ضد الجماعات والحكومات القومية العربية أو الإسلامية. لهذا السبب نرى التضامن القوي بين المجموعات الجديدة والإسلامويين الطائفيين. إذ دعمت "آفاز" باستمرار التدخل العسكري الغربي ("مناطق حظر الطيران") في ليبيا وسورية (Wadi 2015)، وهو أيضاً مطلب جوهري لجماعات تنظيم القاعدة.

كما أسس بعض الأشخاص في "آفاز" وهم جيريمي هايمنس (Jeremy Hymans)، وديفيد مادن (David Madden) وجيمس سليزاك (James Slezak) نوعاً من الشركة الأم، "بيربوس"، والتي أنشأت العديد من

(*) عبارة تشير إلى أن الإسرائيليين الذين ينتقدون إسرائيل كانوا كمن يضرب ثم يشتكي، وبالعامية العربية "ضربني وبكى، سبقني واشتكى"، (المترجمة).

المجموعات التي تركز على سورية (Morningstar 2015). وهي بقع زيت[*] (مؤسسات تخريبية) من إبداعات وول ستريت (Wall Street)، تهدف إلى التأثير في الرأي العام عبر الإنترنت، و'جذورها السورية' وهمية، حيث تُبرر تلك الجذور بصلاتها مع مجموعة صغيرة من "النشطاء" الإسلامويين، مثل المصور خالد الخطيب، المرافق للجماعات المسلحة. وبهذه الطريقة تعاون اليسار الصهيوني مع الإسلامويين في حملاتهم ضد سورية العلمانية.

انخرطت المنظمات غير الحكومية التي تعمل من أجل "الحرب الإنسانية" في مجموعة من الأنشطة، ولكن في الغالب في العمل على شيطنة الرئيس الأسد والجيش السوري، مُدينةً أيّ شيء قام به الجيش ومروجةً لـ "الحظر الجوي" الذي أصبح، بعد ليبيا، تعبيراً ملطّفاً واضحاً عن القصف وتغيير "النظام". وفي هذا السياق حذرت "سيريا كامبين " في حزيران/يونيو 2014 أن الحملة الانتخابية للرئيس بشار الأسد (سوا) نالت مئتي ألف "إعجاب" على موقع الفيسبوك (Facebook)، محاولةً منع الفيسبوك من استضافة الصفحة (Rushe and Jalabi 2014)؛ ويبدو أنها نجحت، ولو أنَّ ذلك كان في آخر لحظة (Ruble 2014).

لم يكن لدى "آفاز"، و"سيريا كامبين" و"الوايت هيلميتس"، فيما يتعلق بموضوع التوجّه نحو المطالبة بـ"الحظر الجوي" في سورية، سوى القليل من الاكتراث بالحقيقة، كما كان الحال مع هيومن رايتس ووتش. حيث ادّعت "آفاز"، ودون أي دليل موثوق على الإطلاق، أن «النساء في سورية يجبرن على الوقوف أمام الدبابات والعمل كدروع بشرية قبل أن يتم تجريدهن من ملابسهن واغتصابهن من قبل الجنود» (Avaaz 2013). كان هذا الكلام يقال، بينما كان المعارضون للجيش السوري، من الإسلامويين الطائفيين، يفخرون علناً بخطف واغتصاب النساء والفتيات السوريات، وهي جرائم كانت مدعومة بفتاوى من زعمائهم الدينيين الكاذبين (Chumley 2013).

(*) المقصود أنها مؤسسات لعبت دوراً تخريبياً ومشوهاً (ملوثاً) للروايات التي تتناول حقيقة ما يجري في سورية، (المترجمة).

يدير مجموعة الوايت هيلميتس (والتي تعرف أيضاً باسم الدفاع المدني السوري) جيمس لو موسير (James Le Mesurier)، وهو جندي بريطاني سابق مرتزق يعمل مع أوليف جروب (Olive Group)(*) (التي اندمجت الآن مع شركة بلاك ووتر في كونستيليز هولدينجز). تخفي هذه المجموعة مصادر تمويلها، ولكن يقال: إن معظم تمويلها يأتي من الوكالة الأمريكية للتنمية (USAID) والحكومة البريطانية (Beeley 2015c). ولدى العديد من المرتبطين بها في سورية، مصعب عبيدات، خالد دياب، وفاروق حبيب، صلات قوية مع الجماعات المسلحة ومموليها. فقد عمل عبيدات مع الهلال الأحمر القطري لعدة سنوات، ثم «مع وزارة الخارجية الأمريكية في الأردن» (MayDay Rescue 2015). كما عمل دياب مع الهلال الأحمر القطري، حيث اتُهم بتقديم نحو مليونين ومئتي ألف دولار أمريكي للجماعات الإرهابية في سورية (Cartalucci 2013). وكان حبيب عضواً في 'المجلس الثوري في حمص' (Beeley 2015c)، في إحدى الحوادث أظهرت المجموعة فيديو لإطلاق النار في داريا وقذائف مشابهة جداً لتلك التي تطلقها 'الجبهة الإسلامية' على دمشق، مدعياً أن الحكومة السورية شنت «هجوماً بالنابالم على المدرسة». ونشرت صحيفة الجارديان البريطانية القصة بطريقة مُلطفة (Shaheen 2015).

كما نشرت "آفاز" و"سيريا كامبن" في آب/ أغسطس 2015 صور جثث الأطفال القتلى في أنقاض مبنى، مدعين أنهم كانوا ضحايا هجمات الحكومة السورية على الغوطة الشرقية التي تسيطر عليها 'الجبهة الإسلامية' في عام 2015. وكانت هذه الصور هي الصور نفسها التي استُخدمت العام الماضي لتوضيح قصة كيف أن تنظيم "داعش" ذبح سبعمئة من أبناء العشائر في دير الزور (Chronicle 2014). وعندما تم تتبع مصدر القصة، أعلنت جيتي نيوز (Getty News) في آذار/ مارس 2014 ملكيتها للصور ونسبتها إلى المصور خالد الخطيب على أنها صورة

(*) شركة للخدمات الأمنية (تقدم حلولاً مبتكرة في مجال الأمن والسلامة والتقنية. وحماية الأفراد والخدمات الأساسية والأصول والمنشآت والمرافق الحيوية الخاصة بالشركات والمؤسسات الدولية والحكومات في البيئات الأكثر احتياجًا على مستوى العالم) التعريف نقلاً عن صفحة المؤسسة على الانترنت http://www.olivegroup.com/index.php، (المترجمة).

ضحايا أطفال قضوا في "قصف بالبراميل المتفجرّة" في وقت سابق في حلب (Getty Images 2014). ووُصف الخطيب بأنّه "ناشط" يعمل في المناطق التي تحتلها الجماعات المسلحة من 'الجيش السوري الحر'، وعضو في "الدفاع المدني السوري"، أو ما يُعرف أيضاً بـ "الخوذات البيضاء" (al Khatib 2015; Laughland 2015)، وهو من مدينة حلب. كما استخدمت 'الجبهة الإسلامية' (2015a)، في منشور على "تويتر" (August 2015)، صورة من مبنى تعرّض للقصف ليتظاهروا أنهم «وصلوا إلى مكان الانفجار» حيث «حولت عشرات البراميل المتفجرة برجاً سكنياً إلى أنقاض». لكن تلك الصورة كان تم نشرها قبل ثمانية وعشرين شهراً، في صحيفة كريستيان ساينس مونيتور (Christian Science Monitor) (CSM 2013). فمن الواضح كان هناك تدوير (إعادة نشر) كبير لصور الحرب، وأن تلك الجماعات الإسلاموية المرافقة ليس لديها وزاع يمنعها من القيام بمثل هذا النوع من التضليل المنحاز.

تعمل الجماعات المرافقة معاً بشكل فعّال. ففي 30 تشرين الأول/أكتوبر 2015 نقلت منظمة أطباء بلا حدود (التي تمول العيادات في المناطق التي تسيطر عليها الجماعات المسلحة) و'المرصد السوري لحقوق الإنسان' عن أن «سبعين شخصاً على الأقل قتلوا وجرح خمسمئة وخمسون آخرون في هجمات على سوق» في شمال شرق دمشق. «وقد ازداد الدمار الناجم عن الغارة الجوية الأولى على السوق نتيجة القصف على فرق الإنقاذ» (MEE 2015b). لكن إذا ما دققنا في القصة والفيديو المرتبط بها يظهر لدينا ما يلي. أولاً، إن دوما تقع تحت سيطرة الجماعات الطائفية المسلحة (النصرة والجبهة الإسلامية) لأكثر من ثلاث سنوات، حيث تم إخلاء أكبر عدد ممكن من المدنيين في كانون الثاني/ يناير 2015 نحو مناطق آمنة خارج دوما (Reuters 2015).

ولقد قصفت الجماعات المسلحة دمشق باستمرار بقذائف الهاون و"مدافع جهنم"(*)، التي تستخدم قنابل الغاز الكبيرة والقذائف (على سبيل المثال McDonnell and Bulos 2015). وإن فحصاً دقيقاً لهذا الفيديو يُظهر أن القتلى

(*) سلاح استخدمته الجماعات المسلحة وصنعوه من أسطوانات الغاز المنزلي التي كانوا يلقون بها على الأحياء التي تقع تحت سيطرة الحكومة، (المترجمة).

والجرحى والمنقذين هم جميعهم رجال في سن القتال، كانوا يصرخون مرارا وتكرارا "الله أكبر"، بأسلوب الإسلامويين. وكان العديد من رجال الإنقاذ يرتدون سترات واقية تحمل شعار "الخوذات البيضاء" حيث يشير عنوان الوايت هيلميتس بالعربية للفيديو، إلى « الشهداء المحترقين»، في إشارة إلى "الجهاديين" القتلى الذين ضحوا بحياتهم من أجل قضيتهم (White Helmets 2015b). توضح هذه القصة جيداً الصلات القائمة بين الجماعات المسلحة، و"الخوذات البيضاء"، و'المرصد السوري لحقوق الإنسان' ووسائل الإعلام، أي في هذه الحالة ما يمكن عدّه عين الشرق الأوسط الموجودة في المملكة المتحدة.

لقد نشرت "الخوذات البيضاء" مباشرة بعد أن بدأ الدعم الجوي الروسي للجيش السوري في 30 أيلول/ سبتمبر عام 2015، صورة على حسابها على موقع «تويتر»، تُظهر فتاةً تنزف، تدعي أنها أصيبت في أثناء ضربة جوية روسية. فُضح هذا الادعاء الكاذب «على الفور ... إذ إن صورة الفتاة المصابة بجروح كانت قد نُشرت في الواقع في 25 أيلول/ سبتمبر عام 2015، قبل خمسة أيام من الضربات الجوية الروسية» (Sputnik 2015). وكان الموضوع الأساسي بالنسبة لـ"الخوذات البيضاء" الموضوع نفسه الذي كانت تركز عليه هيومان رايتس ووتش:«البراميل المتفجرة، وليس "داعش"، هي التهديد الأكبر للسوريين» (Roth 2015a).

يلعب هذا التحيز في التركيز على موضوع البراميل المتفجرة على الجهل بحقيقة ما هي هذه "البراميل المتفجرة" (قنبلة تُرمى من طائرة الهليكوبتر)، حيث يُحرف الانتباه عن الأدلة المتزايدة عن أن الولايات المتحدة وحلفاؤها هم القوة الرئيسة وراء كل الجماعات المتطرفة. فوكالات الأنباء الغربية، معتمدة مرة أخرى على رجلها في انكلترا، 'المرصد السوري لحقوق الإنسان'، قدموا أرقاماً دقيقة حسب زعمهم عن المدنيين والنساء والأطفال الذين من المفترض أنهم قتلوا في الغارات الجوية الروسية (AFP 2015). كما استشهدت صحيفة الوول ستريت جورنال بـ'المرصد السوري لحقوق الإنسان'، وادّعت، بالاعتماد على الجمعية

الطبية الأمريكية السورية، والتي مقرها الولايات المتحدة، أن «الضربات الجوية الروسية استهدفت تسعة مستشفيات في سورية هذا الشهر ... ما أسفر عن مقتل وجرح عشرات من الموظفين والمدنيين» (Abdulrahim 2015). ومع ذلك، قال دومينيك ستيلهارت (Dominik Stillhart)، مدير العمليات في الصليب الأحمر الدولي، لم يكن أيٌّ واحد من موظفيه على الأرض في سورية على علم بأيٍّ من هذه الحوادث (RT 2015). وعندما تحدّى التلفزيون الروسي الناطقين باسم الحكومة الأمريكية لتقديم التفاصيل عن الهجمات الروسية المُفترضة على المستشفيات، لم يتمكنوا من تقديم أي دليل. كما أظهرت لقطات لاحقة من أحد المستشفيات التي تم ذكرها أنه يبدو سليماً تماماً (Emma Aiden 2015). استمر التكافل القوي بين الأشخاص في جبهات الجماعة المسلحة، ومنظمات حقوق الإنسان المرافقة، ووسائل الإعلام الغربية.

يبدو أن "النشطاء" السوريين المرتبطين بـ"الخوذات البيضاء" و"حملة سورية" كانوا يعملون في مناطق تسيطر عليها النصرة المرتبطة بتنظيم القاعدة، ويساعدون تلك المجموعة (Sputnik 2015). فالفيديو الذي نشر عن الهجوم المزعوم بغاز الكلور يبدأ «مع شعار الوايت هيلميتس ويستمر مع شعار النصرة». حيث وُصفت تلك المجموعة الصغيرة من "الخوذات البيضاء"، من قبل الجانب السوري، بأنها «فريق إنقاذ صغير للنصرة / تنظيم القاعدة»؛ ولكن بالنسبة لأمريكا كانت وظيفتها الرئيسة القيام بالدعاية على الإنترنت (Sterling 2015a). ويُظهر فيديو على الإنترنت متطوعين من هذه المنظمة وهم يبعدون جثةً بعد ثوانٍ فقط من عملية إعدام واضحة قامت بها النصرة (Live Leak 2015). هذا ما تقوم به "المنظمات غير الحكومية "الإنسانية" المرافقة والتي تقدم المساعدة لتنظيم القاعدة.

لا تزال وسائل الإعلام و" المنظمات غير الحكومية التي تدعم الطموحات الاستراتيجية للقوى (الإمبريالية) الكبرى ذات دورٍ أساسٍ للدعاية في الحرب القذرة على سورية. فغالباً ما تعمل معاً جنباً إلى جَنب، لِتؤدي دور المصادر والمعلقين ومكبرات الصوت، في حملة "تغيير النظام". فهم لا يعتمدون على مصادر منحازة بشكل علني، وحسب، مثل المجموعة المؤلفة من رجل واحد

في انكلترا 'المرصد السوري لحقوق الإنسان'، بل ينخرطون أيضاً بشكل مباشر في افتراءات وسائل الإعلام، كما تظهر الأمثلة من البي بي سي و"الخوذات البيضاء". إن منظمات حقوق الإنسان ذات الباع الأطول، مثل منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش، قد أيدت أيضاً افتراءات متعددة، بالاعتماد على المعلومات المُضلِّلة من جماعات تنظيم القاعدة. لقد أظهروا القليل من الاهتمام بالانتقادات التي تعرّضوا لها عن مبدأ تضارب المصالح، حيث إن مديريهم ومستشاريهم يأتون ويذهبون من وزارة الخارجية الأمريكية.

المراجع:

- 5 Pillars (2015) 'Al Jazeera English instructs staff not to call Syria's Jabhat al Nusra "Al Qaeda"', 5 Pillars UK, 22 September, online: http://5pillarsuk.com/2015/09/22/al-jazeera-english-instructs-staff-not-to-call-syrias-jabhat-al-nusra-al-qaeda/

- Abdulrahim, Raja (2015) 'Syrian Hospitals Hit by Russian Airstrikes, Says Medical Group', Wall Street Journal, 23 October, online: http://www.wsj.com/articles/syrian-hospitals-hit-by-russian-airstrikes-says-medical-group-1445610055

- Acuña, Rodolfo et al (2008) 'More Than 100 Experts Question Human Rights Watch's Venezuela Report', Common Dreams, online: http://www.commondreams.org/newswire/2008/12/17/more-100-latin-america-experts-question-human-rights-watchs-venezuela-report

- AFP (2015) 'Nearly 450 killed in Russian air strikes on Syria', Gulf Times, 23 October, online: http://www.gulf-times.com/region/216/details/460020/nearly-450-killed-in-russian-strikes-on-syria-

- AI (2015) 'Death Everywhere: War Crimes and Human Rights Abuses in Aleppo, Syria', Amnesty International, 62pp, online: http://www.amnestyusa.org/research/reports/death-everywhere-war-crimes-and-human-rights-abuses-in-aleppo

- Alternet (2014) 'Nobel Peace Laureates to Human Rights Watch: Close Your Revolving Door to U.S. Government', 12 may, online: http://www.alternet.org/world/nobel-peace-laureates-human-rights-watch-close-your-revolving-door-us-government

- Avaaz (2011) 'Recognize Palestine -- New Path to Peace', 26 August, online: http://www.avaaz.org/en/middle_east_peace_now/?cl=1235614889&v=10054

- Avaaz (2013) 'For the women of Syria', 20 June, online: https://secure.avaaz.org/en/syria_the_last_straw_r/

- Bagdikian, Ben H. (2004) The New Media Monopoly, Beacon Press, Massachusetts

- BBC (2015a) ‘Syria conflict: Air strike on Damascus suburb ‘kills dozens’’, 23 January, online: http://www.bbc.com/news/world-middle-east-30957129

- BBC (2015b) ‘Syria: the story of the conflict’, 9 October, http://www.bbc.com/news/world-middle-east-26116868

- Beeley, Vanessa (2015a) ‘White Helmets: New breed of mercenaries and propagandists, disguised as humanitarians in Syria’, 1 September, 21Wire, online: http://21stcenturywire.com/2015/09/01/white-helmets-new-breed-of-mercenaries-and-propagandists-disguised-as-humanitarians-in-syria/

- Beeley, Vanessa (2015b) ‘The Propaganda war against Syria led by Avaaz and the White Helmets’, Global Research, 2 October, online: http://www.globalresearch.ca/the-propaganda-war-against-syria-led-by-avaaz-and-the-white-helmets/5479307

- Beeley, Vanessa (2015c) ‘Syria’s white helmets: war by way of deception – Part 1’, 21st century Swire, 23 October, online: http://21stcenturywire.com/2015/10/23/syrias-white-helmets-war-by-way-of-deception-part-1/

- Bhatt, Keane (2014) ‘The Hypocrisy of Human Rights Watch’, NACLA, online: https://nacla.org/news/2014/2/4/hypocrisy-human-rights-watch

- Blum, William (2000) ‘Trojan Horse: The National Endowment for Democracy’ in Rogue State, Common Courage Press, Monroe ME, online: http://www.thirdworldtraveler.com/Blum/TrojanHorse_RS.html

- Cartalucci, Tony (2013) ‘UN’s Syria "Aid" Appeal is Bid to Relieve Trapped Terrorists’, Land Destroyer, 17 December, online: http://landdestroyer.blogspot.com.au/2013/12/syria-uns-aid-appeal-is-bid-to-relieve.html

- Casciani, Dominic (2014) ‘The man from Martyr’s avenue who became a suicide bomber in Syria’, BBC News, 20 March, online: http://www.bbc.com/news/magazine-26452992

- CFR (2000) ‘Humanitarian Intervention: crafting a workable doctrine’, Council on Foreign Relations, Washington, online: http://www.cfr.org/humanitarian-intervention/humanitarian-intervention-crafting-workable-doctrine/p3814

- Chester, Jeff (2007) Digital Destiny: New Media and the Future of Democracy, The New Press, New York

- Chumley, Cheryl K. (2013) 'Islamic cleric decrees it OK for Syrian rebels to rape women', Washington Times, 3 April, online: http://www.washingtontimes.com/news/2013/apr/3/islamic-cleric-decrees-it-ok-syrian-rebels-rape-wo/

- Chronicle (2014) 'Islamic State Group 'Executes 700' in Syria', 18 August, online: http://www.chronicle.co.zw/islamic-state-group-executes-700-in-syria/

- CSM (2013) 'Looking for Obama's Agenda in Syria', Christian Science Monitor, 14 April online: http://www.csmonitor.com/Commentary/the-monitors-view/2013/0414/Looking-for-Obama-s-agenda-in-Syria

- Edwards, David (2013) ''Limited but Persuasive' Evidence - Syria, Sarin, Libya, Lies', Media Lens, 21 June, online: http://www.medialens.org/index.php/alerts/alert-archive/alerts-2013/735-limited-but-persuasive-evidence-syria-sarin-libya-lies.html

- Eleftheriou-Smith, Loulla-Mae (2015) 'Young Uzbek suicide bomber filmed crying before carrying out final mission in Syria', Independent, 23 September, online: http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/young-uzbek-suicide-bomber-filmed-crying-before-carrying-out-final-mission-in-syria-10514011.html?cmpid=facebook-post

- Emassian, Kevork, Hiba Kelanee, Feeda Kardous and Zoubaida al Kadri (2012) 'Truth about western media's favourite Syrian 'activist' Danny Dayem', 22 February, online: http://www.sott.net/article/242491-Truth-about-Western-medias-favourite-Syrian-activist-Danny-Dayem

- Emma Aiden (2015) 'Syria hospitals Russia accused of bombing don't exist', YouTube, 3 November, online: https://www.youtube.com/watch?v=MtfQoK5qYR8

- Engdahl, F. William (2011) Full Spectrum Dominance: totalitarian democracy in the new world order, Progressive Press, Joshua Tree, California

- Engel, Richard (2015) ‘New Details on 2012 Kidnapping of NBC News Team in Syria’, NBC News, 15 April, online: http://www.nbcnews.com/news/world/new-details-2012-kidnapping-nbc-news-team-syria-n342356

- ESB (2012) ‘Avaaz: Empire Propaganda Mill Masquerading as Grassroots Activism’, Empire Strikes Black, 9 June, online: http://empirestrikesblack.com/2012/06/avaaz-empire-propaganda-mill-masquerading-as-grassroots-activism/

- Fahmy, Shahira and Thomas J. Johnston (2005) ‘“How we Performed”: Embedded Journalists’ Attitudes and Perceptions Towards Covering the Iraq War’, Journalism & Mass Communication Quarterly, June 2005 vol. 82 no. 2, pp.301-317

- Getty Images (2014) Syria Conflict, Photograph 479335513, Khaled Khatib/AFP/Getty Images, 18 March, online: http://www.gettyimages.com.au/detail/news-photo/the-bodies-of-two-syrian-children-lie-in-the-rubble-of-a-news-photo/479335513?license

- Gharib, Ali (2015) ‘How NBC Knowingly Let Syria Rebels’ False War Propaganda Stand For Years’, The Nation, 17 April, online: http://www.thenation.com/article/how-nbc-knowingly-let-syria-rebels-false-war-propaganda-stand-years/

- Guardian Watch (2015) ‘The push for “humanitarian invasion” continues’, Off Guardian, 19 September, online: http://off-guardian.org/2015/09/19/the-push-for-humanitarian-invasion-continues/

- Haigh, Michael et al (2006) ‘A Comparison of Embedded and Non-embedded Print Coverage of the U.S. Invasion and Occupation of Iraq’, The International Journal of Press/Politics April 2006 vol. 11 no. 2, pp.139-153

- Hopkins, Nick (2014) ‘Syria conflict: UK planned to train and equip 100,000 rebels’, BBC News, 3 July, online: http://www.bbc.com/news/uk-28148943

- HRW (2010) ‘George Soros to Give $100 million to Human Rights Watch’, Human Rights Watch, 7 September, online: https://www.hrw.org/news/2010/09/07/george-soros-give-100-million-human-rights-watch

- JCS (2000) Joint Vision 2020: America's Military - Preparing for Tomorrow, Chairman of the Joint Chiefs of Staff, USA, online: http://mattcegelske.com/joint-vision-2020-americas-military-preparing-for-tomorrow-strategy/

- Jenkins, Simon (2015) 'Bombing is immoral, stupid and never wins wars. Syria is the latest victim', Guardian, 18 September, online: http://www.theguardian.com/commentisfree/2015/sep/18/bombing-immoral-stupid-syria-victim-deaths-drones

- Johnson, Adam (2015) 'Down the Memory Hole: NYT Erases CIA's Efforts to Overthrow Syria's Government', FAIR: Fairness and Accuracy in Reporting, 20 September, online: http://fair.org/home/down-the-memory-hole-nyt-erases-cias-efforts-to-overthrow-syrias-government/

- Khatib al, Khaled (2015) 'Fleeing the frontline, Marea's poorest seek refuge in orchards', Syria Direct, 15 September, online: http://syriadirect.org/news/fleeing-the-frontline-marea%E2%80%99s-poorest-seek-refuge-in-orchards/

- Kirkpatrick, David (2014) 'Qatar's Support of Islamists Alienates Allies Near and Far', New York Times, 7 September, online: http://www.nytimes.com/2014/09/08/world/middleeast/qatars-support-of-extremists-alienates-allies-near-and-far.html

- Knightley, Phillip (2001) 'The disinformation campaign', The Guardian, 4 October, online: http://www.theguardian.com/education/2001/oct/04/socialsciences.highereducation

- Kryriacou, Kate and Kate McKenna (2013) 'Brisbane family man's suicide blast in Syria', Courier-Mail, 13 November, online: http://www.couriermail.com.au/news/queensland/brisbane-family-mans-suicide-blast-in-syria/story-fnihsrf2-1226758576503

- La Barra, Yalla (2015) 'Human Rights Watch's Kenneth Roth's Obsession with Bashar al-Assad and Barrel Bombs', Yalla La Barra, 28 August, online: https://yallalabarra.wordpress.com/2015/08/28/human-rights-watchs-kenneth-roths-obsession-with-bashar-al-assad-and-barrel-bombs/

- Landsmann, Carolina (2013) 'Israelis, Shooting First and Crying Later Is No Longer an Option', Haaretz, 15 March, online: http://www.haaretz.com/opinion/.premium-1.646471

- Laughland, Oliver (2015) ‘US should use radar to warn civilians of Syrian barrel bombs, group demands’, Guardian, 28 February, online: http://www.theguardian.com/world/2015/feb/27/us-military-warn-civilians-incoming-syria-air-strikes

- Lefebvre, Stephan (2013) ‘Analysis from National Endowment for Democracy Used in The Atlantic, with Significant Errors and Omissions’, Center for Economic Policy and Research, 30 July, online: http://www.cepr.net/index.php/blogs/the-americas-blog/analysis-from-national-endowment-for-democracy-used-in-the-atlantic-with-significant-errors-and-omissions

- Live Leak (2015) ‘Syria - So-called "White Helmets" facilitate.an.al Nusra.execution’, 6 May, online: http://www.liveleak.com/view?i=fd8_1430900709

- Lloyd, Richard and Theodore A. Postol (2014) ‘Possible Implications of Faulty US Technical Intelligence in the Damascus Nerve Agent Attack of August 21, 2013’, MIT, January 14, Washington DC, online: https://www.documentcloud.org/documents/1006045-possible-implications-of-bad-intelligence.html#storylink=relast

- MayDay Rescue (2015) ‘Mosab Obeidat’, 26 August, online: http://www.maydayrescue.org/content/mosab-obeidat

- McDonnell, Patrick J. and Nabih Bulos (2015) ‘Syrian rebels fire rockets, mortar shells into Damascus; at least five dead’, Los Angeles Times, 12 August, online: http://www.latimes.com/world/middleeast/la-fg-syria-damascus-rockets-20150812-story.html

- MEE (2015a) ‘Al Jazeera instructs staff to refrain from calling al-Nusra Front ‘al-Qaeda’’. Middle East Eye, 22 September, online: http://www.middleeasteye.net/news/al-jazeera-instructs-staff-refrain-calling-al-nusra-front-al-qaeda-1671552331

- MEE (2015b) ‘70 killed, 550 wounded in attacks on Syria's Douma market: MSF’, Middle East Eye, 1 November, online: http://www.middleeasteye.net/news/70-killed-550-wounded-attacks-syrias-douma-market-msf-1940531571

- Mill, John Stuart (1874) ‘On the Treatment of Barbarous Nations’, in Dissertations and Discussions: Political, Philosophical, and Historical, Vol 3, Longmans, Green, Reader and Dyer, London

- Mironova, Vera, Loubna Mri, Richard Nielsen and Sam Whitt (2015) ‘Syria’s Democracy Jihad’, Foreign Affairs, 13 January, online: https://www.foreignaffairs.com/articles/middle-east/2015-01-13/syrias-democracy-jihad

- Morningstar, Cory (2015) ‘SYRIA: Avaaz, Purpose & the Art of Selling Hate for Empire’, Aletho News, 27 January, online: https://alethonews.wordpress.com/2015/05/10/syria-avaaz-purpose-the-art-of-selling-hate-for-empire/

- Morton, Rick (2014) ‘Syria torture photos ‘Qatari propaganda’’, The Australian, 23 January, online: http://www.theaustralian.com.au/news/nation/syria-torture-photos-qatari-propaganda/story-e6frg6nf-1226807996572

- Mourtada, Rania and Rick Gladstone (2013) ‘Pro-Assad Cleric Killed in Blast in Damascus’, New York Times, March, online: http://www.nytimes.com/2013/03/22/world/middleeast/senior-pro-assad-sunni-imam-in-syria-is-assassinated.html?_r=2&

- Muir, Jim (2013) ‘Syria ‘death video’ of Sheikh al Bouti poses questions’, BBC, online: http://www.bbc.com/news/world-middle-east-22086230

- NGO Monitor (2013) ‘Avaaz, Soros, Israel and the Palestinians’, 6 March, online: http://www.ngo-monitor.org/article/19

- Norton-Taylor, Richard (1999) ‘Serb TV station was legitimate target, says Blair’, Guardian, 24 April, online: http://www.theguardian.com/world/1999/apr/24/balkans3

- Off Guardian (2015) ‘Guardian Watch’, [a list of stories] at October, online: http://off-guardian.org/category/guardian-watch/

- Ramadani, Sami (2012) ‘Between Imperialism and Repression’, New Left Project, 12 June, online: http://www.newleftproject.org/index.php/site/article_comments/between_imperialism_and_repression

- Regan, Tom (2002) ‘When contemplating war, beware of babies in incubators’, Christian Science Monitor, 6 September, online: http://www.csmonitor.com/2002/0906/p25s02-cogn.html

- Reuters (2015) ‘Over 1,000 Syrian civilians evacuated from near Damascus’, YouTube, 17 January, online: https://www.youtube.com/watch?v=H-DstETWlTY

- Roberts, David (2015) ‘Is Qatar bringing the Nusra Front in from the cold?’ BBC News, 6 march, online: http://www.bbc.com/news/world-middle-east-31764114

- Rosenthal, Vic (2013) ‘Is Soros Pumping Money into ‘A Jewish Voice for Peace’? The Jewish Press, 11 March, online: http://www.jewishpress.com/blogs/fresno-zionism/is-soros-pumping-money-into-a-jewish-voice-for-peace/2013/03/11/0/?print

- Roth, Kenneth (2015a) ‘Barrel Bombs, Not ISIS, Are the Greatest Threat to Syrians’, New York Times, 5 August, online: http://www.nytimes.com/2015/08/06/opinion/barrel-bombs-not-isis-are-the-greatest-threat-to-syrians.html?_r=1

- Roth, Kenneth (2015b) ‘Hiroshima’, twitter, 9 August, online: https://twitter.com/kenroth/status/630544175851769857

- RT (2012) ‘Al Jazeera exodus: channel losing staff over ‘bias’’, Russia Today, 13 March, online: https://www.rt.com/news/al-jazeera-loses-staff-335/

- RT (2015) ‘No firsthand info on alleged Russian ‘airstrike’ on hospital in Syria – Red Cross top executive’, Russian TV, 29 October, online: https://www.rt.com/news/320046-stillhart-red-cross-hospital-russia/

- Ruble, Kayla (2014) ‘Facebook Takes Down Assad’s Syrian Election Ads’, Vice News, 3 June, online: https://news.vice.com/article/facebook-takes-down-assads-syrian-election-ads

- Rushe, Dominic and Raya Jalabi (2014) ‘Facebook pressured to refuse access to Assad campaign in Syria election’, Guardian, 2 June, online: http://www.theguardian.com/world/2014/jun/02/facebook-bashar-al-assad-campaign-syria-election

- SANA (2015) ‘Dozens of families from Douma flee terrorists, seek army’s protection’, 24 January, online: http://sana.sy/en/?p=26049

- Shaheen, Kareem (2015) ‘Syrian Civil defence group accuses Assad of napalm attack near Damascus’, Guardian, 13 August, online: http://www.theguardian.com/world/2015/aug/12/syrian-opposition-accuses-assad-napalm-attack-near-damascus

- Sherlock, Ruth (2014) 'Syrian rebels armed and trained by US surrender to al-Qaeda', UK Telegraph, 2 November, online: http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/syria/11203825/Syrian-rebels-armed-and-trained-by-US-surrender-to-al-Qaeda.html

- Somaiya, Ravi, C.J. Chivers and Karam Shoumali (2015) 'NBC News Alters Account of Correspondent's Kidnapping in Syria', New York Times, 15 April, online: http://www.nytimes.com/2015/04/16/business/media/nbc-news-alters-account-of-correspondents-kidnapping-in-syria.html?_r=0

- Sputnik (2015) 'Soros-funded 'White Helmets' NGO caught faking 'civilian casualties of Russian airstrikes' in Syria', 30 September, online: http://www.sott.net/article/302997-Soros-funded-White-Helmets-caught-faking-Syria-casualties-report

- Stauber, John and Sheldon Rampton (2002) Toxic Sludge is Good for You, Common Courage Press, Monroe, Maine, Chapter 10 online: http://www.prwatch.org/books/tsigfy10.html

- Sterling, Rick (2015a) 'Seven Steps of Highly Effective Manipulators: White Helmets, Avaaz, Nicholas Kristof and Syria No Fly Zone', Dissident Voice, 9 April, online: http://dissidentvoice.org/2015/04/seven-steps-of-highly-effective-manipulators/

- Sterling, Rick (2015b) 'Eight problems with Amnesty's Report on Syria', Counter Punch, 14 May, online: http://www.counterpunch.org/2015/05/14/eight-problems-with-amnestys-report-on-aleppo-syria/

- Stuart, Robert (2013) 'Fabrication in BBC Panorama 'Saving Syria's Children', BBC Panorama Saving Syria's Children, online: https://bbcpanoramasavingsyriaschildren.wordpress.com/

- Stuart, Robert (2015) 'Fake TV Images: BBC Admits "Switching Syria Footage" On Grounds of "Taste and Decency", Global Research, 2 June, online: http://www.globalresearch.ca/fake-images-bbc-admits-switching-syria-footage-on-grounds-of-taste-and-decency/5452883

- Susli, Maram (2015) 'Rebranding Al-Qaeda's Jabhat al Nusra in Syria as "moderates"', Global Research, 23 march, online: http://journal-neo.org/2015/03/23/rebranding-alqaeda-s-jabhat-al-nusra-as-moderates/

- Syrian Alikhbaria (2013) ‘Terrorists affiliated to Jabhat al-Nusra confess to assassination of Sheikh al-Bouti’, YouTube, 2 January, online: https://www.youtube.com/watch?v=5PIyoy3tI_A

- Syrian Free Press (2015) ‘FAKES ~ ‘Human Rights Watch’ did it again, accusing President al-Assad of using “Barrel Bombs”, but with photos of damage done by Zionists in Gaza’, HRW Fakes, 10 May, online: https://syrianfreepress.wordpress.com/2015/05/10/hrw-fakes-45781/

- Syrian Lioness (2014) ‘Martyr Hero Mohammed Rajab, one of the soldiers who guarded the #Aleppo prison. Rest in peace’, Twitter, 18 February, online: https://twitter.com/syrianlionesss/status/435780234588471296

- Syrians Worldwide (2012) ‘EXPOSED: Danny Abdul-Dayem & CNN Lying...Again’, YouTube, 7 March, online: https://www.youtube.com/watch?v=y4YfKIPDS8E

- Taylor, Adam (2013) ‘Report: 22 staffers resign at Al Jazeera over claims of biased coverage in Egypt’, Business Insider, 9 July, online: http://www.businessinsider.com.au/al-jazeera-resignations-reported-in-egypt-2013-7

- Teil, Julian (2011) ‘Lies behind the "Humanitarian War" in Libya: There is no evidence! (Part 1), NATO Crimes in Libya’, YouTube, Interview with Soliman Bouchuiguir, October 15, online: https://www.youtube.com/watch?v=j4evwAMIh4Y

- Today’s Zaman (2015) ‘CHP deputies: Gov’t rejects probe into Turkey’s role in Syrian chemical attack’, 21 October, online: http://www.todayszaman.com/national_chp-deputies-govt-rejects-probe-into-turkeys-role-in-syrian-chemical-attack_402180.html

- Truth Syria (2012) ‘The Gaddafi Mercenaries and the Division of Africa’, YouTube, Interview with Genevieve Garrigos (Amnesty International France), 4 February, online: https://www.youtube.com/watch?v=1WFknaEKdOM

- UN (2013) United Nations Mission to Investigate Allegations of the Use of Chemical Weapons in the Syrian Arab Republic, December, online: https://unoda-web.s3.amazonaws.com/wp-content/uploads/2013/12/report.pdf

- UNDP (2013) Human Development Report 2013, United Nations Development Programme, New York, online: http://hdr.undp.org/en/2013-report

- Wadi, Ramona (2015) 'Avaaz: Pro-Democracy Group or Facade for American Imperialism In The Middle East? MINT Press, 11 March, online: http://www.mintpressnews.com/avaaz-pro-democracy-group-or-facade-for-american-imperialism-in-the-middle-east/203225/

- Wells, Matt (2003) 'Embedded reporters 'sanitised' Iraq war', Guardian, 6 November, online: http://www.theguardian.com/media/2003/nov/06/broadcasting.Iraqandthemedia

- White Helmets (2015a) 'Arrived at the scene of the blast…' Twitter, 19 August, online: https://twitter.com/syriacivildef/status/634141737884209153

- White Helmets (2015b) 'Burning martyrs and the wounded filled the city's streets – massacre', YouTube, 31 October, online: https://www.youtube.com/watch?v=nyJI_FRA8Hc

- Wright, Ann and Coleen Rowley (2012) 'Amnesty's Shilling for US Wars', Consortium News, June 18, online: https://consortiumnews.com/2012/06/18/amnestys-shilling-for-us-wars/

- Zuesse, Eric (2015) 'BBC Strings Lies Together to Propagandize for Assad's Overthrow', Global Research, 19 September, online: http://www.globalresearch.ca/bbc-strings-lies-together-to-propagandize-for-assads-overthrow/5477015

إعادة النظر في مجزرة الحولة



وُجِدَ أشخاصٌ من بين ضحايا مجزرة الحولة، ينتمون إلى عائلات، شارك بعضُ أفرادها في الانتخابات الأخيرة(*). أما قادة "لواء الفاروق" التابع لما يسمى 'الجيش السوري الحر' ـ الذين تعرَّف عليهم سكانٌ محليون في المنطقة بوصفهم مسؤولين عمَّا حدث ـ فقد اتهموا من أطلقوا عليهم تسمية قُطّاع الطرق الموالين للحكومة (الشبيحة).

مصدر الصورة: سانا

يستقصي هذا الفصل ويوثق مجزرة الحولة التي وقعت في أيار/ مايو 2012، وهي حادثة مروعة في تاريخ الأزمة السورية، كادت أن تستدعي تدخلاً من الأمم المتحدة. يهدف التحليل الذي أقدمه في هذا الفصل إلى معالجة جميع الأدلة ذات الصلة، سواء التي قدمها شهود أم تلك التي توافرت من أنشطة الأمم المتحدة في سورية. ولقد ساعدت سلسلة من المجازر المروعة، التي وقعت بحق المدنيين في أثناء الصراع، كيما ترفع الصوت لجولة أخرى من النقاشات عن "التدخل الإنساني" أو "مسؤولية الحماية".

(*) المقصود انتخابات مجلس الشعب التي جرت في أيار/ مايو 2012.

تستحق عمليات القتل التي وقعت في الحولة اهتماما شديداً. لكن، وبسبب سوء استخدام الناتو لتفويض "الحظر الجوي" في ليبيا، ونظراً إلى البُعد الجيوسياسي الكبير لسورية، لم تسمح روسيا والصين باستصدار تفويض مماثل من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة باستخدام القوة في سورية. وحيث إن الولايات المتحدة لم تكن تريد حرباً بريّة جديدة تدوم لأوقات طويلة، ظلّ تدخل القوى الكبرى بشكلٍ غير مباشر، من خلال الميليشيات العميلة. وصحيح أن الجيش السوري هاجم الجماعات المسلحة، غير أن تلك الجماعات كانت تقوم بعمليات إعدام أمام العامة وحاولت باستمرار إلقاء اللوم على الجيش السوريّ، فيما يخص الهجمات على المدنيين.

لقد شرحت في الفصل الثالث السياق وراء التمرد الإسلاموي في درعا، وأوضحت كيف امتدت بؤرة التمرّد حتى منطقة حمص. إذ أصيب الكثير من سكان حمص بالرعب جراء الشعارات الطائفية ـ الدموية من قبيل: "المسيحيون إلى بيروت، والعلويون إلى التابوت". ولقد ظهرت تقارير عن هذا الشعار في وسائل الإعلام الأمريكية من أيار/ مايو 2011 فصاعداً (Eretz Zen 2012; Adams 2012; Wakefield 2012).

وقد قامت مجموعات من 'الجيش السوري الحر'، بمساعدة شركائهم من النصرة، بالفعل بإبعاد المسيحيين إلى بيروت، وذبحوا علويين، وغيرهم العديد من الناس الموالين للحكومة. وفي هذا الصدد اتهّمت الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية 'لواء الفاروق' بالقيام بالتطهير العرقي على نطاق واسع، حيث تهجّر أكثر من خمسين ألف مسيحي من حمص (CNA 2012). كما قاموا بفرض الضريبة الإسلامية (الجزية) (Spencer 2012). ووفقاً لمحلل محلي فإن معظم أفراد "لواء الفاروق" كانوا من السلفيين الطائفيين، تسلحهم وتمولهم المملكة العربية السعودية. بينما بقي "لواء خالد بن الوليد" موالٍ لجماعة الإخوان المسلمين ويتلقى الدعم منها (Mortada 2012). وبالطبع لا يمكن أن تصدر شعارات الإبادة والتطهير العرقي عن متدينين "معتدلين"، ناهيك عن ثورة علمانية.

مجزرة الحولة

إنَّهُ، وبعد أن أبعد الجيش السوري مجموعات 'الجيش السوري الحر' خارج حمص، وعشية اجتماعٍ لمجلس الأمن الدولي يتعلق بسورية، وقعت مجزرةٌ مروعة راح ضحيتها أكثر من مئة مدني في قرية الحولة، في سهول تلدو، شمال غرب حمص. استحوذت مجزرة الحولة (25 أيار/ مايو 2012) على أهمية كبيرة في النقاش عن "مسؤولية الحماية"، حيث شكلت الأساس لمحاولة فاشلة للتفويض بتدخل الأمم المتحدة لحماية المدنيين، استناداً إلى الادّعاء القائل: إنَّ الحكومة السورية ارتكبت مجازر بحق المدنيين. غير أن الدليل الذي كان يدعم هذا الادعاء، بالكاد كان واضحاً.

ألقت حكومات بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة باللوم على الحكومة السورية فور وقوع المجزرة. وكان الضحايا، تبعاً لما يُسمّى "رواية وسائل الإعلام الغربية والعربية"، ضحايا قضوا بسبب قصف مدفعية الجيش السوري (Correggia, Embid, Hauben and Larson 2013). أما الحكومة السورية، فقد اتهمت الإرهابيين المدعومين من الخارج، ولاسيما الفئات المطرودة من حمص، بالوقوف وراء المجزرة، وقالت وزارة الخارجية السورية: إنَّ الجيش اشتبك مع «مئات" من المسلحين الذين ارتكبوا مجزرة يوم الجمعة في الحولة، وقد استخدم القتلة السكاكين، وهذه الهجمات تحمل "توقيع" الإسلامويين المتشددين» (Reuters 2012). أبلغت الحكومة الأمم المتحدة أنَّ «التقارير أفادت عن أن الضحايا قتلوا على أيدي الإرهابيين الذين يبلغ عددهم بين ستمئة وثمنمئة، دخلوا الحولة سابقاً من قرى: الرستن، والسعن، وبرج القاعي والسماعليين، قادمين من أماكن أخرى». وباشرت القيادة العامة للقوات المسلحة بالتحقيق (HRC 2012a: 6).

كانت هناك مزاعم عن استفزازات "مدبرة" قام بها الإسلامويون حيث عاينت الأم أغنيس مريم الصليب (Mother Agnes-Mariam de la Croix)، الراهبة المسؤولة عن الدير القديم في قارة جنوب حمص، كيفيّة تعرُّض المسيحيين في

حمص إلى تطهير عرقيّ"، وكانت لديها شكوك قوية حول من يقف وراء عمليات القتل التي جرت في الحولة. إذ صرحت علانيةً: إنَّ المسيحيين السوريين تعرّضوا لضغوط للانضمام إلى جماعات 'الجيش السوري الحر'، وإنهم استُخدموا من قبل المتمردين كدروع بشرية، وإن منازل المسيحيين استولى عليها أفراد ينتمون إلى العائلات "السنية"*. حيث ندّدت بجرائمهم "المدبرة" التي وقعت في عام 2011 (SANA 2011; AINA 2012)، لافتةً إلى أن المركز الكاثوليكي للإعلام لديه قائمة بأسماء مئات من ضحايا جرائم القتل، حيث استُخدمت صور الكثير من أولئك الضحايا في وقت لاحق في منظومة إعلام "الجيش الحر" (SANA 2011).

لكن تقارير الإعلام الغربي تجاهلت البيانات الصادرة عن دمشق. وطردت عدة حكومات الدبلوماسيين السوريين، في محاولة لعزل الحكومة السورية. حيث أعلن مجلس الأمن الدولي ما يلي: «ندين بأشد العبارات عمليات القتل ... جراء الهجمات التي انطوت على سلسلة من عمليات القصف بالمدفعية والدبابات قامت بها الحكومة على حي سكني... [و] ندين أيضاً قتل المدنيين عن طريق إطلاق النار من مسافة قريبة ... [فهذا] يشكل انتهاكاً للقانون الدولي المعمول به وخرقاً من الحكومة السورية لالتزاماتها» (UNSC 2012). وقال ممثّل فرنسا في الأمم المتحدة، مارتن برين (Martin Briens): «لقد قصفت الدبابات و نيران المدفعية التابعة للحكومة مناطق سكنية ما أسفر عن مقتل المدنيين» (RT 2012). وقال المبعوث البريطاني مارك ليال جرانت (Mark Lyall Grant): «ليس هناك أدنى شك من أنه كان هناك قصف متعمد من قبل الحكومة ضد حي يقطنه المدنيون» (Cowan 2012).

---

* إننا توخياً لأمانة الترجمة ولنقل النصّ كما هو أبقينا على المفردات كما جاءت، إلا أننا نؤمن أن القتل والإجرام لا علاقة لهما بالأديان والمكونات العرقية والمذاهب المختلفة التي تعكس تعددية الإسلام وروح التسامح فيه، بل إن الإجرام ينبع عن عقلية سادية وفساد أخلاقي، وأي قتل يتم تحت اسم الدين إنما هو افتراء على ذلك الدين وعلى أي مكون مذهبي يشير إليه، (المترجمة).

كانت هذه الاتهامات سابقة لأوانها، ولا تعدو أن تكون مجرد افتراءات. وأصرت روسيا على تقديم إحاطة تفصيلية بالموضوع من رئيس البعثة الخاصة للأمم المتحدة إلى سورية (UNSMIS)، الجنرال النرويجي روبرت مود (Robert Mood)، إلى مجلس الأمن الدولي، وبالفعل قال الجنرال مود: إنَّه كان من بين الضحايا تسعةٌ وأربعون طفلاً وأربع وثلاثون امرأة، ولوحظ أنهم في غالبيتهم تعرضوا إما لإطلاق النار من مسافة قريبة، أو لقطع رؤوسهم. وأوجز الدبلوماسي الروسي الكسندر بانكين (Aleksandr Pankin) الآتي: «إنَّ عدداً قليلاً جداً من الناس الذين لقوا حتفهم في الحولة، قُتلوا جراء القصف المدفعي» (RT 2012). لكن منذ ذلك الحين، تحول الجناة في قصص وسائل الإعلام الغربية لميليشيا موالية للحكومة (الشبيحة). حيث اتهمت صحيفة التلغراف (The Telegraph) البريطانية من أسمتهم "فرق الأسد للموت". وأشارت إلى وجود دوافع طائفية، حيث نقلت عن مصدر من المعارضة قوله: إنهم «كانوا يقاتلون من أجل بشار حتى الموت. وهذا طبيعي-عليهم الدفاع عن طائفتهم» (Alexander and Sherlock 2012).

لكن ذلك اليقين الذي كان لدى الحكومتين البريطانية والفرنسية فيما يتعلق بالمسؤول عن المجزرة، وكذلك يقين "النشطاء" المناهضين للحكومة، ليس لهما تأثير في تصريحات رئيس بعثة الأمم المتحدة الخاصة إلى سورية. لقد زارت مجموعة الجنرال مود موقع المجزرة، واستمعت إلى روايتين متمايزتين. وتستحق تعليقاته، بعد ثلاثة أسابيع من المذبحة، الاهتمام، نظراً إلى أن الأمم المتحدة لم تصدر التقرير الذي يشير إليه:

«لقد أجرينا مقابلاتٍ مع السكان المحليين، ممن كان لديهم روايتين مختلفتين عما جرى. لكن مازالت الظروف ... والوقائع المتصلة بالحادثة نفسها غامضة بالنسبة لنا ... لقد قمنا بإرسال [التصريحات والمقابلات مع الشهود] كتقرير إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك ... وإذا ما طلب منا [المساعدة]، فكما واضح نحن موجودون على الأرض، ويمكننا أن نساعد» (Mood 2012).

تم تسليم هذا التقرير إلى الأمين العام للأمم المتحدة (UNSG 2012). ولكن على ما يبدو لم يتسلمه مجلس الأمن (Hauben 2012). فربما كان غموض مود مربكاً لأولئك الذين يريدون نتائج واضحة ضد الحكومة السورية. ففي الأول من حزيران/ يونيو ألقى مجلس حقوق الإنسان (عارض ثلاثة، وامتنع اثنان عن التصويت) باللوم في ما جرى في الحولة على الحكومة السورية: «عمليات قتل وحشي ... قامت بها عناصر مؤيدة "للنظام" وسلسلة من عمليات القصف نفذتها مدفعية ودبابات الحكومة»، قبل أن يدعو إلى «تحقيق خاص شامل ومستقل وبلا قيود» (HRC 2012c). وكان ذلك البيانُ مزجاً غريباً بين التحامل والتظاهر بالنزاهة في طلب التحقيق. لقد عُلقت أنشطة بعثة الأمم المتحدة الخاصة فيما يخصّ سورية وألغيت في شهر آب/أغسطس من ذلك العام، لتحل محلها لجنة أخرى يشترك في رئاستها دبلوماسي أمريكي.

كان الظرف والتوقيت هامين بالتأكيد. فبعدما طرد الجيش السوري "لواء الفاروق" من حمص إلى البلدات المحيطة بها، شارك السوريون في انتخابات الجمعية الوطنية(*) في 7أيار/ مايو. كانت دعت تلك الفصائل من المعارضة المنحازة "للجيش السوري الحر" لمقاطعة الانتخابات، وهددت الجماعات المسلحة بتنفيذ ذلك التهديد (al Akhbar 2012). فاز حزب البعث الحاكم في هذه الانتخابات بنسبة ستين بالمئة من أصوات الناخبين، في حين فازت الأحزاب المتحالفة معه بـ30٪، رغم أنَّ نسبة الإقبال كانت واحداً وخمسين بالمئة فقط (Zarzar and al-Wahed 2012). ولذا كان هناك سبب يدعو للشك في تنفيذ هذا التهديد، من خلال أعمال انتقامية قد تقوم بها الجماعات المسلحة ضد أولئك الذين شاركوا، وأعطوا بمشاركتهم الشرعية للدولة.

لم يُستأنف مسار التحقيق الأول في التحقيق الثاني للأمم المتحدة. فبوجود ثلاثة من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن يدعمون علناً تغيير "النظام" في سورية، سُيّس النقاش بشكل كبير. وحُوِّل التحقيق عن مجزرة الحولة إلى لجنة مجلس حقوق

(*) انتخابات مجلس الشعب، (المترجمة).

الإنسان لتقصي الحقائق، التي شاركت في رئاستها الدبلوماسية الأمريكية كـارين كونينغ أبـو زيـد (AbuZayd Karen Koning) (HRC 2012a; HRC 2012b). لقد كان من الخطأ أن تقوم الأمم المتحدة بتعيين مندوب أمريكي. حيث عملـت كارين كونينغ أبو زيد مع الأمم المتحدة لـسنوات عديـدة، ولكـن اسمهـا كـان مدرجاً بوضوح بوصفها مندوبة الولايات المتحدة الأمريكية إلى اللجنة. كمـا أن حكومة الولايات المتحدة، كانت قد اتهمت بحلول هذا الوقـت علنـاً الحكومـة السورية بالمسؤولية وراء مجزرة الحولة، مطالبةً الرئيس الأسد بالاستقالة لـ «قتله مواطنيه» (AP 2012). كما عملت تركيا على «مضاعفة» ما وصفته بـ«المـساعدة غير الفتاكة للمتمردين في سورية» (Barnard 2012). لقد كانت واشنطن، وبكل المقاييس، طرفاً معتـدياً في الأزمـة الـسورية. ولـذا كـان علـى مجلـس حقـوق الإنسان، تماشياً مع مبادئ الاستقلالية وتجنب تضارب المصالح، ألا يـدرج في اللجنة ممثلاً من الولايات المتحدة.

وخلافاً لبعثة الأمم المتحدة الخاصة إلى سورية، لم تزر لجنة مجلس حقوق الإنسان هذه سورية. فقد تمت مراجعة للأدلة وإجراء ثمـاني مقـابلات إضـافية، بعيداً عن سورية. ويعكس التقرير المؤقت عن سورية بعض غموض فريـق بعثـة الأمم المتحدة الخاصة: «[إننا] غير قـادرين علـى تحديـد هويـة الجنـاة في هـذا الوقت. ومع ذلك ... فإن القوات الموالية للحكومة قد تكون مسؤولة عن العديد من حالات الموت» (HRC 2012b: 10). لم يكن هذا البيان حكيماً. حيث حمّل التقرير كلا من القوات الحكومية والجماعات المناهضة للحكومة تهمة ارتكـاب جرائم حرب، ولكنه جاء قويَّ اللهجة ضد الحكومة السورية، متعللاً بالواجبات الرسمية للحكومة والمتمثلة في «منع العنف أو المعاقبة عليه»، فضلاً عـن عـدم ارتكابـه (HRC 2012b: 23). وكانـت هـذه، حجـة "للتمـسك بهـا"، بمعنـى: «أنَّ الحكومـة هـي المـسؤولة في نهايـة المطـاف عـن جميـع أشـكال العنـف على أراضيها، بغض النظر عن عمليات القتل التي تقـوم بهـا عـصابات مـسلحة مناهضة للحكومة».

كان تقرير اللجنة في 15 آب/ أغسطس ثابتاً ضد الحكومة الـسورية، دافعـاً

كلّ لَبْسٍ كان موجوداً فيما مضى، ولكن دون تحديد هُويّة الجناة. حيث جاء فيه: «أجرت اللجنة ثماني مقابلات إضافية، بما في ذلك مع ستة شهود من منطقة تلدو، اثنان منهم من الناجين. ونظرت في مجموعة من البيانات من «مصادر مختلفة، بما في ذلك منظمات دولية غير حكومية تعمل في مجال حقوق الإنسان» (HRC 2012b: 64-65). وقالوا: لقد كانت جميع التصريحات متفقة مع فكرة أن الوفيات ناجمة عن قصف القوات الحكومية و"شبيحة" مجهولي الهوية. ومع ذلك سمعوا أدلة تفيد أنَّ عائلتي السيد وعبد الرزاق (المجموعات الرئيسة من المدنيين المقتولين) كانتا من مؤيدي الحكومة، غير أن اللجنة خلصت إلى أن الجناة المجهولين الذين قتلوا تلك العائلات «كانوا من المؤيدين للحكومة» (HRC 2012b: 67). وغضوا بذلك الطرف عن أدلة على أن جماعات 'الجيش السوري الحر' ارتكبت جرائم القتل، مدّعين أنه «بصرف النظر عن اثنين من الشهود في تقرير الحكومة، فإنه لا يوجد رواية أخرى تؤيد رواية الحكومة عن الحادثة» (HRC 2012b: 10). وقالوا أيضاً: إن «الحكومة كانت مسؤولة عن مقتل المدنيين نتيجة للقصف». أما فيما يتعلق بـ«القتل المتعمد للمدنيين»، فإنَّ اللجنة لم تتمكن من تحديد هوية الجناة ... [لكن] عَدّت أنّه من المرجح أن تكون القوات الموالية للحكومة مسؤولة عن العديد من الوفيات» (HRC 2012b: 10).

وكان شاهدُ العِيان البارز الذي قدمه الجانب المناهض للحكومة صبيّاً يبلغ أحد عشر عاماً يدعى علي السيد، وقد قال: إنَّ العديد من أفراد عائلته قتلوا. يقول الفتى علي في الفيديو الذي ظهر على الإنترنت:

«كانت هناك دبابات في الشوارع، أطلقوا النار علينا بالرشاشات ... وجاء الجنود ... وأطلقوا خمس رصاصات على قفل الباب ...ثم ألقوا القبض على أخي ... [و] عمي ... ثم صرخت أمي عليهم ... فأطلقوا عليها النار خمس مرات، في رأسها ... ثم ذهبوا إلى أخي وأطلقوا عليه النار ... بعضهم كان يرتدي ملابس كالجيش، وبعضهم كان يرتدي الملابس العادية، وكانوا حليقي الرؤوس واللحى، إنهم الشبيحة» (Marchfifteen 2012).

قال: إنه كان يتظاهر بأنه مَيْت، وبالتالي نجا من القتل. وأشار إلى أنّه بعد ذلك رأى في وقت لاحق مشاهد في الأخبار على شاشة التلفاز الحكومي لأعمامه المقتولين. لكن روايته ليست متسقة في العديد من النواحي (Larson in Correggia, Embid, Hauben and Larson 2013: 20-28)، وفي نهاية المطاف، وبمساعدةٍ ببعض الأسئلة الرئيسة، قدّم ما يبدو أنه يتماشى مع عبارات ملقّنةٍ له من أجل تدخل عسكري أجنبي، وهو الهدف المُعلن نفسه من قبل مجموعات 'الجيش السوري الحر':

«أطالب أن يوقف المجتمع الدولي القتل في سورية وفي الحولة ... إننا نُقتل ... والمجتمع الدولي جالس، يتكلم فقط ولا يفعل أي شيء ... على الناس أن يقاتلوا لأجلنا. افعلوا ما يقولون وقوموا بحمايتنا» (Marchfifteen 2012).

ومهما يكن من أمرِ قوة أو ضعف رواية الصبي، لكنَّ عليّاً بالكاد كان شاهد العِيان الوحيد الذي قدم رواية عن المجزرة. بالإضافة لذلك، فلقد كان تزويراً أن تقترح لجنة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق أن فقط «اثنين من الشهود ... يدعمون رواية الحكومة عمّا جرى». فبحلول ذلك الوقت كان هناك دليل علني، ممّا لا يقل عن خمسة عشر شاهدَ عِيان، يتفقون عموماً مع رواية الحكومة السورية.

حاول الصحفيون الروس تقديم مادة مقابلاتهم إلى اللجنة، ولكنّهم على ما يبدو قوبلوا بعدم الاهتمام (Janssen 2012). ادّعت اللجنة أن التقارير الروسية «تعتمد في المقام الأول على شهودِ العِيان أنفسهم في تقرير الحكومة» (HRC 2012b: 66). ومع ذلك فإن قراءة بسيطة لملخص الأدلة من شهود هذه الأخيرة (الحكومة)، يدل على أنَّ ما قالته لجنة التحقيق كان زائفاً. وفيما يلي ملخص عن الأدلة من شهود تجاهلتهم لجنة الأمم المتحدة. وهذه الروايات عن الجناة "المتمردين"، تتفق على نطاق واسع مع رواية الحكومة وكثيراً ما تكون محدّدة جدّاً. حيث تمت تسمية عدد من المسلحين.

الأدلة غير المناسبة(*)

أولاً، نقلت وكالة الأنباء السورية عن شخصين مجهولي الهُويّة يخشون على سلامتهم الآتي: قال الأول: إنَّ المسلحين كانوا من السكان المحليين، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المناطق الأخرى. تجمع السُّكان المحليون بعد صلاة الظهر قبل الهجوم على نقاط التفتيش. وبعد ذلك اختاروا الناس الموالين للحكومة، من الذين شاركوا في الانتخابات أو الذين «لم يقدموا المال للمسلحين»، كان أحدهم هيثم حوسان. وكانت الجثث التي ظهرت على شاشات التلفاز لـ«الناس الذين قتلهم الإرهابيون جنباً إلى جنب مع جثث مسلحين قتلوا في الاشتباك الأولي». (SANA 2012). أما الشاهد الثاني، وهي امرأة، فقالت: إنها رأت مجموعة كبيرة تقوم بمهاجمة نقاط التفتيش. وسمعوا عن أناس من تل دهب، عقرب والرستن. وأطلق رجل يدعى سعيد فايز الكيش قذيفة هاون ثم ردت الشَّرطة، حيث أصيب بعيار ناري في قدمه. أما المسلح الآخر فكان هيثم الحلاق، الذي قاد مجموعة من نحو مئتي شخص. وكان الضحايا من عائلة السيد، حيث معاوية السيد «ضابط شرطة لم ينشق» وغيره ممن يرتبطون بـ"مشلب السيد"(**)، الذي «أصبح مؤخرا أمين سر مجلس الشعب». وتشمل الفئات المستهدفة الأربع الأخرى الأسر من عائلة عبد الرزاق (SANA 2012).

أظهرت أخبار التلفزيون السوري مقابلاتٍ مع اثنين من الشهود الذكور عليهم علامات الأسى. قال الرجل الأول: «إن الإرهابيين من هذه المنطقة ومن جميع المناطق المحيطة ... كان عددهم كبير، بالمئات. بدأوا باستخدام قذائف آر بي جي (RPG) و... ضرب البيوت بالبنادق والرشاشات ... لقد قتلوا الناس في منازلهم ... وأُحرق بعض الجثث» (Syria News 2012: at 6.47). وقال الرجل الثاني: «قتل رجل، وشقيقه، وابن شقيقه أمام عيني أختي ...واستطاع [آخر] الهرب والاختباء ... ماذا تفعل الأمم المتحدة، وهؤلاء المراقبون، بينما تنهال القذائف علينا؟» (Syria News 2012: at 7.35).

(*) يقصد المؤلف أنها غير مناسبة للأطراف المناهضة للحكومة السورية، (المترجمة).

(**) عبد المعطي مشلب، (المترجمة).

أما الصحفي الألماني راينر هيرمـان (Rainer Hermann)، الـذي يتحـدث العربية، قابل شهوداً من الحولة في غضون أيام بعد المذبحة. وشملـت مـصادرُهُ المعارضين السوريين الـذين رفـضوا العنـف، وحرصـاً علـى سـلامتهم حجـب أسماءهم. قالوا: إن المتمردين الإسلامويين هاجموا ثلاث نقاط تفتيش للجيش. وكما أخبرته مصادره(الشهود) إن:

«هذه المذبحة وقعت بعد صـلاة الجمعـة ... حيـث قتـل عـشرات الجنـود والمتمردين... [في قتال] استمر حوالي تسعين دقيقة ... كان الضحايا على وجـه الحصر تقريباً من أسر الأقليات العلوية أو الشيعية ... [بما في ذلك] عشرات من أفراد الأسرة التي تحولت إلى المذهب الشيعي في السنوات الأخيرة ... وكـذلك عائلة النائب السُّني في البرلمان، لأنه كان يُعدُّ متعاونـاً مـع الحكومـة ... وبعـد المجزرة، صور الجنـاة ضـحاياهم كـضحايا "سُـنّة"، وتم نـشر مقـاطع الفيـديو الخاصة بهم» (Hermann 2012).

قدم هيرمان أسماء قادة العصابة:

«أكثر من سبعمئة من المسلحين بقيادة عبد الرزاق طـلاس ويحـيى يوسـف [قادة الفاروق] جاؤوا في ثلاث مجموعـات مـن الرسـتن، وكفرلاهـا وعقـرب وهاجموا ثلاث نقـاط تفتـيش تابعـة للجـيش حـول تلـدو. خـاض المتمـردون المتفوقون عددياً مع الجنود معارك دامية ... ثم قام المتمردون، بدعم من بعض المتواطئين من سكان تلدو، ... بقتل العائلات من[الذين] رفـضوا الانـضمام إلى المعارضة» (LRC 2012).

كمـا تحـدّث الـصحفي الألمـاني ألفريـد هاكـسبيرغر (Hackensberger Alfred) مع رجل التجأ إلى دير قارة برئاسة الأم أغنيس مريم، قال هذا الرجـل الذي يدعى "جبريل":

«بدأ القتال عند الظهر تقريباً، عندما هاجم المتمردون القادمون من الرستن والسعن، نقطة التفتيش ... ثم ذهب المتمردون إلى المستشفى وقتلـوا المرضـى هناك ... وتم استهداف عدة فرق، ثم ذهبوا إلى المنازل المختارة وبدأوا إطـلاق النار على كلّ السكان».

كان يعرف عائلة السيد شخصياً.

«كانوا من المسلمين السُّنة، مثلنا جميعاً، كما يقول. «وقد قتلوا لأنهم رفضوا الانضمام إلى الثورة. لقد قتل المسلحون حتى أحد أعضاء البرلمان ... ومَن رفض أن يلتزم بمقاطعة الانتخابات التي أعلنها 'الجيشُ السوريُّ الحرُّ'"».

ورداً على سؤال يتعلّق بالمزاعم عن أنَّ "الموالين للنظام" هم من قاموا بالمجزرة، أجاب جبريل بسخرية:

«كلام فارغ ... الحولة في أيدي المتمردين منذ كانون الأول/ديسمبر عام 2011 ... الجيش يريد استعادة تلدو، ولكن لم يحدث ذلك ... كثير من الناس يعرفون ما حدث فعلاً ... ومن هناك ... وهؤلاء يمكنهم فقط أن يقولوا رواية المتمردين. وإلا فلا شيء آخر سوى الموت المحقق» (Hackensberger 2012).

أما الكاتب الهولندي مارتن يانسن (Martin Janssen)، والذي يتحدث بالعربية، بنى وجهة نظره على ثلاثة مصادر: وكالة الأنباء الكاثوليكية فيدس (Fides)، ومعلومات من اللاجئين في دير قارة، وروايات الصَحَفِيَين الروسيين موسين (Musin) وكوليغينا (Kulygina). وشكّك في الرواية التي تتحدث عن "الشبيحة"، لأنَّ العديد من الضحايا كانوا من العلويين، الذين جميعهم تقريباً من الموالين للحكومة. لقد ذكرت له فيدس أن «مجموعات كبيرة من السوريين العلويين والمسيحيين في المنطقة يفرون إلى لبنان هرباً من أعمال العنف التي تقوم بها العصابات المسلحة»، بعد الأحداث التي وقعت في الحولة (Janssen 2012). وأخبروه في دير قارة أنَّ شهود عِيانٍ قالوا: إن الجيش لم يكن في المنطقة، حيث «كانت الرستن والسعن ... تحت سيطرة "للجيش السوري الحر" بالكامل». لقد هاجمت جماعات مسلحة المستشفى الوطني وقتلت الحراس. «ثم قاموا بغزو المستشفى حيث قتل متمردون مسلحون جميع الموجودين و... وأضرموا النار في المستشفى» (Janssen 2012). كما قتلت الجماعات المسلحة في تلدو، قرب الحولة، جميع الأسر العلوية. ووصف التقرير الصادر عن الدير أن المنطقة المحيطة بالقصير «في حالة اضطراب» ويمزقها العنف الطائفي (Janssen 2012).

كان لدى هؤلاء الصحفيين الروس، مارات موسين (Marat Musin) وأولغا كوليغينا (Olga Kulygina) من وكالة أنباء الشبكة الأبخازية (ANNA-News) طاقم تصوير في الحولة في 25 أيار/مايو، وأجروا عدداً من المقابلات مع الشهود. حيث أكّدت مصادرهم بوضوح أن القتلة كانوا من "المتمردين" الإسلامويين، وقالت امرأة عجوز تدعى "جدة الحولة":

«تمت مهاجمة مواقع نقاط التفتيش ... وقتل جميع الجنود، ثم هاجموا قرانا، أضرموا النار في المستشفى ... وقتل قُطّاع الطرق هؤلاء الصيدلي الذي في قريتنا ... [لأنه] عالج جندياً جريحاً. لا أحد إلا الجيش يمكنه أن يساعدنا ... يقولون: كانت هناك غارات جوية! أكاذيب، أكاذيب، أكاذيب. إنهم منافقون، كلهم أتوا من الرستن» (ANNA 2012).

وقال أحد سكان تلدو ويدعى سيد عبد الوهاب: «إن الإرهابيين يريدون المجيء إلى هنا ... للاستيلاء على السلطة. لقد عشنا دائماً بسلام. لكن لم يعد بإمكاننا الخروج من المنزل». وقالت امرأة من السكان المحليين من الغنطو، بالقرب من الحولة: إنَّ «تسعة إرهابيين قتلوا أقاربي في هذا الحقل. وأضرمت مجموعةُ اللصوصِ النارَ في بيوتنا وهربنا ... لدينا شهيد، أُحرق حيّاً. لماذا، بأي قانون يموتون؟ هل هذا هو الإسلام؟ هل هذا العدل؟» (ANNA 2012).

كما أخبرتهم امرأة أخرى من تلدو يسمونها عريفة أنها استمعت إلى أحاديث عبر اللاسلكي من "قُطّاع الطرق"، ذلك قبل المذبحة (Musin 2012a). بدأوا بإطلاق النار على نقطة التفتيش الرئيسة في حين هاجمت مجموعة من عشيرة الحسن، يقودها نضال بكور، الحاجز الثاني "خارج القرية". خسر قُطاع الطرق حوالي خمسة وعشرين شخصاً، ولكن بعد حوالي ساعتين كانوا قد استولوا على نقطتي التفتيش. «ثم قاموا بقتل عائلة السيد التي تقطن في الشارع بالقرب من مركز الشرطة». لقد قتلت ثلاث عائلات بينها نحو عشرين طفلاً، إلى جانب عشرة آخرين من عائلة عبد الرزاق. ثم وصل بعد ظهر ذلك اليوم عبد الرزاق طلاس، قائد "لواء الفاروق"، مع مئتين وخمسين رجلاً من الرستن، وعقرب وكفرلاها (Musin 2012a). حيث خرج معظم المدنيين من مدينة الرستن لبعض

الوقت، بعد أن استولى عليها الإسلامويون القادمون من لبنان (Musin 2012b). وقالت عريفة: إنه مع حلول الساعة الثامنة صباحاً أُخذ معاً مَن قُتل من المدنيين وقُطّاع الطرق إلى المسجد. وبعد ذلك صُوروا لمحطات التلفزة القطرية والسعودية. ثم في صباح يوم السبت، عندما وصل مراقبو بعثة الأمم المتحدة الخاصة إلى سورية، «تم عرض المتمردين الذين سقطوا في الهجوم على أنهم مدنيون، في حين تم عرض المتمردين الذين يرتدون لباس الجيش على أنهم من المنشقين. وكانوا مُحاطين بأفراد أسرهم الذين قدّموا رواية عن هجوم قامت به الحكومة مع قصف عنيف، وتظاهروا بأنهم أقارب الضحايا، في حين لم تعدْ ممكنة رؤية أيّ من أقارب الضحايا الحقيقيين في أي مكان» (Musin 2012a).

استمرت أعمال العنف بعد زيارة مراقبي بعثة الأمم المتحدة الخاصة عن سورية. أجرى موسين وكوليغان مقابلة في وقت لاحق مع اثنين من الجرحى، هما: شُرَطي جريح وآخر من سكان المنطقة، قدّما مزيداً من التفاصيل عن هجمات القناصة "المتمردين" والجرائم، وموكب "المتمردين" الذي صُوِّرَ من أجل مراقبي الأمم المتحدة. وتابعا في تحديد المهاجمين والضحايا: كانت مجموعة من عشيرة العكش أطلقت قذائف الهاون والقذائف الصاروخية على نقاط التفتيش. وأُعدم جميع سجناء نقاط التفتيش: كما ذبح مجند "سُنّيٌّ" في حين أُحرق عبد الله شاوي من دير الزور حيّاً (Maramus 2012; Musin 2012b). وقال ضابط الشَّرطة: «إنَّ المهاجمين كانوا من الرستن والحولة. كما كان المتمردون يسيطرون على تلدو. لقد حرقوا البيوت وقتلوا الناس وفقاً للانتماء العائلي، لأن الضحايا كانوا موالين للحكومة» (Musin 2012b).

أما الشخص الذي يقطن في المنطقة فرأى الاشتباكات من فوق سطح مركز الشَّرطة. «لقد بثت الجزيرة الصور، وقالت: إنَّ الجيش ارتكب مجزرة في منطقة الحولة ... في الواقع، [المسلحون] قتلوا المدنيين والأطفال في منطقة الحولة. كما سرق قُطّاع الطرق كل شيء ... ومعظم المقاتلين (المسلحين) كانوا من مدينة الرستن» (Maramus 2012; Musin 2012b). لقد تجاهل التحقيق الثاني الذي أجرته الأمم المتحدة هؤلاء الشهود الخمسة عشر، الذين تحدثوا عن جناة محددين ذوي دوافع سياسية واضحة. أضع أدناه خلاصة للتقارير الرئيسة والأدلة المرتبطة بها.

مجزرة الحولة (أيار/مايو 2012): تقارير هامة	
المصدر / التقرير	الطريقة والاستنتاج
الأم أغنيس مريم	هاجم 'الجيش السوري الحر' سابقاً المسيحيين، وكان منخرطاً في هجمات "مدبرة"، واتهم الحكومة زوراً.
معظم وسائل الإعلام الغربية	مجزرة ارتكبتها "فرق الأسد للموت"
الحكومتان البريطانية والفرنسية	أسفرت المذبحة عن قصف الحكومة لمناطق مدنية. غيروا ذلك في وقت لاحق ليقولوا: إنها هجمات من "شبيحة النظام".
بعثة الأمم المتحدة الخاصة إلى سورية (الجنرال روبرت مود)	ذهبت إلى موقع المجزرة، سمعت قصصاً تلقي باللوم على كلا الجانبين. ولم نستطع أن نتوصل لنتيجة بشأن الروايتين.
لجنة التحقيق التابعة لمجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة	أجرت اللجنة مقابلات في جنيف، واشترك في رئاستها دبلوماسي أمريكي. وتم اختيار الشهود بمساعدة الجماعات المناهضة للحكومة. ألقت اللجنة باللوم على "قُطّاع الطرق الموالين للحكومة" (الشبيحة)
فيديو مصدره ' الجيش السوري الحر'، ظهر على قناة الجزيرة وغيرها من المحطات	عرض صبي صغير يدعى علي السيد، وقال: إنّه يلقي باللوم على "الشبيحة" الذين كانوا يرتدون ملابس الجيش، وكانوا حليقي الرؤوس والذقون.
الحكومة السورية ووكالات الأنباء والتلفزيون في الدولة السورية	يقول أربعة شهود عيان: إنَّ الهجمات شنتها العصابات المسلحة، حيث قتلوا رجال الأمن واستهدفوا العائلات الموالية للحكومة.
الصحفي الألماني ألفريد هاكينسبيرغر Alfred Hackensberger	قابل "جبريل": الملتجئ في دير قارة-ارتكبت المجزرة عصابات 'الجيش السوري الحر' بحق الأسر الموالية للحكومة.
الصحفي الألماني راينر هيرمان Rainer Herman	أجرى مقابلات مع أشخاص مناهضين للعنف من المعارضة –قالوا: إنَّ عصابات محلية و'الجيش السوري الحر' قتلوا عائلات موالية للحكومة.
الصحفي الهولندي مارتن يانسن Martin Janssen	يلاحظ هجرة كبيرة للاجئين المسيحيين والعلويين من الحولة. يلوم اللاجئون في قارة عصابات 'الجيش السوري الحر'.
الصحفيان الروسيان مارات موسين (t MusinMara) وأولغا كوليغينا (Olga Kulygina)	يلقي ثمانية شهود باللوم على العصابات المناهضة للحكومة المرتبطة بـ'الجيش السوري الحر'. الضحايا من العائلات الموالية للحكومة.
كورغيا، إيمبيد هوبين ولارسون Hauben ,Embid ,Correggia and Larson	تقول المراجعة النقدية للأدلة ولتقارير الأمم المتحدة إن التقرير الثاني للأمم المتحدة ليس بذي صدقيّة.

المعارضة في الأمم المتحدة

لقد أثرّ التقرير المنحاز بوضوح في مناقشات الأمم المتحدة. ورغم أنَّ مجلس حقوق الإنسان أصدر قراراً بأغلبية قوية يدين فيه الحكومة السورية، كانت التعليقات المعارضة كبيرة. حيث قالت ممثلة روسيا ماريا غولنيفش خودينسكايا (Maria Golenischv-Khodynskaya) (UNTV 2012: 7.00 to 8.10):

«لا يمكن أن نتفق مع الاستنتاجات المتحاملة التي أتت في القرار المتعلق باللجنة الخاصة بمأساة الحولة ... ونحن نعتقد أن مسألة الطرف المذنب لا تزال مفتوحة. ينبغي إجراء تحقيق عميق ... للأسف هناك دولٌ في الواقع تشجع الإرهاب في سورية، وبالتالي ليس لدينا أي شك في أن الحادثة في الحولة بالتأكيد تم إعدادها في وسائل الإعلام، واستخدمت لـ(تسويغ) تنفيذ عمل بالقوة ضد هذا البلد».

أشار مندوب الصين (UNTV 2012: 13.25 to 15.50) أيضاً إلى نيّة بلاده التصويت ضد القرار، بما أنه كان هناك حاجة «لإيجاد حل سياسي ... [و] نهاية فورية للعنف ... إن الضغط على طرف واحد في الصراع لن يساعد في حل المشكلة». وقال المندوب الكوبي(UNTV 2012: 16.05 to 18.50): «هناك أطراف تهتم في عدم تشجيع طريق الحوار والتفاهم ... [يقول البعض: بوضوح إنهم يريدون] تغيير النظام، وحتى الترويج لفكرة التدخل العسكري مع استخدام القوة لفرض قرارات على الشعب السوري من خارج البلاد». وقال مندوب الهند (UNTV 2012: 19.00-21.30)، الذي امتنع عن التصويت، إن الهند قدمت:

«الدعم غير المشروط للبعثات المشتركة»، لكنه حثّ مجلس حقوق الإنسان على «التصرف دائما بحياد تام، من أجل الحفاظ على صدقيته، وضمان مكانته وموثوقيته لدى جميع الأطراف... [هناك حاجة لـ] قرار متوازن وغير منحاز يمكن أن يساعد في بدء عملية سياسية ذات مغزى في سورية».

كان الوفد السوري (UNTC 2012: 24.33-35.30)الأقسى ضد القرار، قائلاً: إن لجنة التحقيق «لم تزر حتى سورية وتجاهلت لجنة التحقيق السورية».

وبالإشارة إلى بعض «الممولين العرب»، قالت سورية: إنه ليس لديهم الحق في «تقديم المشورة»، لأنهم كانوا «منخرطين بشكل مباشر في قتل الشعب السوري، كما أن المجرمين لا يمكنهم أن يكونوا قضاة»، ويفرضون عقوبات ثم «يزرفون الدموع إزاء الوضع الإنساني». انعكس رفض إدانة الإرهاب في سورية سلباً على المجلس. مع ذلك، كن لدى القُوى الكبرى قوة الأرقام، حيث صوتت إحدى وأربعون دولة لصالح القرار، وصوتت ثلاث دول ضده، وامتنعت ثلاث دول عن التصويت. اعتُمد القرار ولكن لم يكن هناك إمكانية لاتخاذ أي إجراء من خلال مجلس الأمن الدولي، بسبب معارضة اثنين من الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن، هما: روسيا والصين.

إن عملية الأمم المتحدة غير المقنعة، لا تنفي حقيقة أنه هناك أدلة وجيهة قد ظهرت ضد جماعات وأفراد معينين. فلقد حدد شهود عيان أربعة جناة من المسلحين المحليين (هيثم حوسان، وسعيد فايز العكش، وهيثم الحلاق ونضال بكور) إلى جانب مجموعة من عشيرتي (الحسن والعكش)، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من "لواء الفاروق" يقودها عبد الرزاق طلاس ويحيى يوسف. وكان دافعهم معاقبة القرية الموالية للحكومة، وبخاصة عائلتي السيد، وعبد الرزاق، ثم لتحضير مشهد إلقاء التُّهم جُزافاً على الحكومة السورية لتحميلها مسؤولية جرائم هم مرتكبوها. لم تؤدِ مجزرة الحولة إلى تدخُّل على غرار ما حدث في ليبيا، ولكن الاتهامات الباطلة منحت حصانة مؤقتة للقتلة وخلّفت خطراً كبير حتى أن التدخل العسكري كان يمكن أن يقع.

ما بعد المجزرة

مهدت مجزرة الحولة لانتشار مُناخ لسلسلة من المجازر المماثلة "المدبرة". فعندما كُشفت مذبحة آب/أغسطس 2012 التي راح ضحيتَها مئتان وخمسةٌ وأربعون شخصاً في داريا (بريف دمشق)، أشارت تقارير وسائل الإعلام الغربية بسرعة إلى أن «جيش الأسد قد ارتكب مذبحة [أخرى] " (Oweis 2012). ومع ذلك تناقضت تلك القصة مع ما كتبه الصحفي البريطاني روبرت فيسك (Robert Fisk)، الذي لاحظ أن 'الجيش السوري الحر' ذبح رهائن من الجنود الذي كانوا خارج الخدمة

في إجازتهم بعدما فشلت عملية تبادل للأسرى (Fisk 2012). وبالمثل ألقى "ناشطون" باللوم على الحكومة السورية فيما يخص مجزرة العاشر من كانون الأول/ ديسمبر 2012، التي راح ضحيتها ما بين مئة وعشرين إلى مئة وخمسين قروياً في قرية عقرب (أقل من خمسة عشر كيلومتراً عن الحولة، والتي كانت أيضاً في ذلك الوقت تحت سيطرة "المتمردين"). اقترحت النيويورك تايمز أنَّ "أفراداً من طائفة الأسد" مسؤولون عن ذلك (Stack and Mourtada 2012). وفي الحقيقة، ذكر الصحفي البريطاني أليكس تومبسون (Alex Thompson) (2012b) في وقت لاحق، أن 'الجيش السوري الحر' (بما في ذلك المقاتلين الأجانب) قد احتجزوا خمسمئة قروي علوي لمدة تسعة أيام، ثم قتلوا العديد منهم، وعندما اقترب الجيش لاذوا بالفرار. ويستبين في هذه الحالة أنَّ الأفراد الذين عدّتهم النيويورك تايمز "طائفة الأسد" هم الضحايا، تماماً كما كان، الضحايا في الحولة، من مؤيدي الحكومة وأسرهم.

توضح مجزرة الحولة المخاطر الكبيرة في ممارسة مبدأ "مسؤولية الحماية"، ذلك عندما يكون للقُوى الكبرى جيوش تعمل بالوكالة على الأرض. ففكرة أنه يمكن تقريباً إلقاء اللوم في أي نوع من الأعمال الوحشية على الحكومة السورية، مع القليل من الخوف من وجود ما يناقضها في وسائل الإعلام الغربية، لا بدّ من أن تكون تلاعباً بالعقول تمارسه الجماعات الإسلامويّة المسلحة. وكان لواء "الفاروق" على وجه الخصوص داهية في وسائل الإعلام ذاتها، حيث كان ينتج أشرطة الفيديو بانتظام للشبكات التلفزيونية لقطر (الجزيرة) والمملكة العربية السعودية (قناة العربية). فمقابل جيش وطني متفوق، لم يتفكك على أسس طائفية، كان "الفاروق" وغيره بحاجة ماسّة إلى الدعم العسكري. وتأجيج الحنق ضد الحكومة السورية كي يجلبوا القوة الجوية للناتو، كما حدث في ليبيا. في غضون ذلك، يمكنهم تنفيذ الجرائم الكبرى مع الإفلات من العقاب.

إنَّ فشل لجان تحقيق الأمم المتحدة بتحديد دور الأمم المتحدة نفسها، في إثارة كل من الإفلات من العقاب وتصعيد أعمال العنف، زاد من عدم صدقيّة فكرة "الحظر الجوي" التي تم استغلالها على نحو مثير للسخرية في عملية

التدخل في ليبيا. وبعد الحولة، وفي حين استمرت حرب الدعاية، لم يكن هناك أي أمل حقيقي في تفويض من مجلس الأمن بالتدخل في سورية.

أما الحادثة الرئيسة التالية، التي تنطوي على استخدام الأسـلحة الكيمياويـة في المناطق التي يحتلها "المتمردون" في الغوطة الشرقية، وبعد مـرور أكثـر مـن عام على مجزرة الحولة، فلقد وضعت كمرجعية لمرسـوم(*) "خـطٍ أحمـر" مـن جانب واحد من قبل واشنطن. وفي كثير من الجوانـب تُعـدّ الحولـة نقطـة تـشير لفشل المحاولات لبناء أي عقوبات أممية (من الأمم المتحدة) بناء على "الحقيقة الرسمية" في خلال الصراع في سورية.

(*) كانت إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما تهدد أنَّ استخدامَ السلاح الكيماوي خطٌ أحمر سـيقود لتدخل عسكري أمريكي مباشر ضد سورية، (المترجمة).

المراجع:

-Adams, Simon (2012) 'The World's Next Genocide', New York Times, 15 November, online: http://www.nytimes.com/2012/11/16/opinion/the-worlds-next-genocide.html

-AINA (2012) 'Sunni Rebels Occupying Churches, Homes of Syrian Christians', Assyrian International News Agency, 29 July, online: http://www.aina.org/news/2012072912019.htm

-Al Akhbar (2012) 'Boycott and breaches mar Syrian vote', 7 May, online: http://english.al-akhbar.com/content/syria-votes-against-backdrop-violence

-Alexander, Harriet and Ruth Sherlock (2012) 'The Shabiha: Inside Assad's death squads', The Telegraph, 2 June, online: http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/syria/9307411/The-Shabiha-Inside-Assads-death-squads.html

-ANNA (2012) 'Показания свидетеля-боевика по резне в Аль Хула с привязкой на местности' [Summary report of interviews], online in Russian at: http://anna-news.info/node/6359; 'Показания свидетеля-боевика по резне в Аль Хула' [Arabic interviews dubbed in Russian], online: http://video.yandex.ru/users/news-anna2012/view/25 ; also 'Witnesses to al-Houla Massacre in Syria' [English subtitles by Syriaonline], 1 June, online: https://www.youtube.com/watch?v=68TjaXP84wM

-AP (2012) ''Stop killing your fellow citizens or you will face consequences': Clinton issues warning to Syrian regime as she says Assad must go', Associated Press, *Daily Mail UK*, 2 April, online: http://www.dailymail.co.uk/news/article-2123853/Syria-Hillary-Clinton-says-Assad-go.html

-Barnard, Anne (2012) 'U.S. and Turkey to Step Up 'Nonlethal' Aid to Rebels in Syria', *New York Times*, 25 march, online: http://www.nytimes.com/2012/03/26/world/middleeast/us-and-turkey-to-step-up-nonlethal-aid-to-syrian-rebels.html?_r=0

-Benotman, Noman and Emad Naseraldin (2012) 'The Jihadist Network in the Syrian Revolution, A Strategic Briefing', Quilliam Institute, 20 September, online:

http://www.quilliamfoundation.org/press-releases/quilliam-releases-concept-paper-the-jihadist-network-in-the-syrian-revolution/

-Blanford, Nicholas (2011) 'Assad regime may be gaining upper hand in Syria', Christian Science Monitor, 13 May, online: http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2011/0513/Assad-regime-may-be-gaining-upper-hand-in-Syria

-CNA (2012) 'Syrian violence drives 50,000 Christians from homes', Catholic News Agency, online: http://www.catholicnewsagency.com/news/syrian-violence-drives-50000-christians-from-homes/

-Correggia, Marinella; Alfredo Embid, Ronda Hauben, Adam Larson (2013) 'Official Truth, Real Truth, and Impunity for the Syrian Houla Massacre of May 2012', CIWCL, May 15, online: http://ciwclibya.org/reports/realtruthhoula.html

-Cowan, Jane (2012) 'UN Security Council condemns Syrian regime', ABC, 28 May, online: http://www.abc.net.au/am/content/2012/s3512153.htm

-Eretz Zen (2012) 'Rhetoric of Syrian protesters and to whom their allegiance goes', YouTube, 17 June, online: https://www.youtube.com/watch?v=f6zGwjj0lDc

-Eva Pal (2014) 'Talk with Lilly Martin and Steven Sahiounie, part 1', YouTube, May 10, online: https://www.youtube.com/watch?v=oc2HRk42O-w

-Fisk, Robert (2012) 'Inside Daraya - how a failed prisoner swap turned into a massacre', 29 August: http://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/robert-fisk-inside-daraya--how-a-failed-prisoner-swap-turned-into-a-massacre-8084727.html

-Hackensberger, Alfred (2012) 'In Syrien gibt es mehr als nur eine Wahrheit', Berliner Morgenpost, 23 June, online: http://www.morgenpost.de/politik/ausland/article107255456/In-Syrien-gibt-es-mehr-als-nur-eine-Wahrheit.html

-Haidar, Ali (2012) Syria's Ali Haidar: Both Sides Have Extremists', Al Akhbar, 13 July, online: http://english.al-akhbar.com/node/9716

-Hauben, Ronda (2012) 'Why is the UNSMIS Houla Report Missing?' 28 November, Netizenblog, online: http://blogs.taz.de/netizenblog/2012/11/28/why-is-unsmis-report-missing/

-Hauben, Ronda (2013) 'Why is the UNSMIS Houla Report Missing?' in Correggia, Marinella; Alfredo Embid, Ronda Hauben, Adam Larson (2013) 'Official Truth, Real Truth, and Impunity for the Syrian Houla Massacre of May 2012', CIWCL, May 15, online: http://ciwclibya.org/reports/realtruthhoula.html

-Hermann, Rainer (2012) 'Abermals Massaker in Syrien', Frankfurter Allgemeine Zeitung, 7 June, online: http://www.faz.net/aktuell/politik/neue-erkenntnisse-zu-getoeteten-von-hula-abermals-massaker-in-syrien-11776496.html

-HRC (2012a) 'Oral Update of the Independent International Commission of Inquiry on the Syrian Arab Republic', Human Rights Commission, 26 June, online: http://www.ohchr.org/Documents/HRBodies/HRCouncil/CoISyria/OralUpdateJune2012.pdf

-HRC (2012b) 'Report of the independent international commission of inquiry on the Syrian Arab Republic', Human Rights Commission 16 August, online: http://www.ohchr.org/Documents/HRBodies/HRCouncil/RegularSession/Session21/A-HRC-21-50_en.pdf

-HRC (2012c) 'The deteriorating situation of human rights in the Syrian Arab Republic, and the recent killings in El-Houleh', Resolution adopted by the Human Rights Council S-19/1, Human Rights Council, United Nations, 4 June, online: http://www.ohchr.org/Documents/HRBodies/HRCouncil/SpecialSession/Session19/A-HRC-RES-S-19-1_en.pdf

-Janssen, Martin (2012) 'De verschrikkingen van Houla', 10 June, Mediawerkgroep Syrië, online: http://mediawerkgroepsyrie.wordpress.com/2012/06/10/de-verschrikkingen-van-houla/

-LRC (2012) 'Germany's FAZ paper Follow-up on Houla Hoax', The LRC Blog [translation of the FAZ article from German], 16 June, online: http://www.lewrockwell.com/blog/lewrw/archives/113737.html

-Marchfifteen (2012) 11-year-old Houla Massacre Survivor', marchfifteen's YouTube channel, 28 may, online: https://www.youtube.com/watch?v=POEwEiqTavA

-Malas, Nour (2013) 'As Syrian Islamists Gain, It's Rebel Against Rebel', Wall Street Journal, 29 may, online: http://online.wsj.com/article/SB10001424127887323975004578499100684326558.html

-Marcus, Jonathan (2013) Gruesome Syria video pinpoints West's dilemma, BBC, 14 May, online: http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-22521161

-Mood, Robert (2012) 'Houla massacre, 2 versions - UNSMIS Robert Mood, June 15', Adam Larson YouTube site, 16 September, online: https://www.youtube.com/watch?v=2ViUVJYGT_8

-Mortada, Radwan (2012) 'Syria Alternatives (II): no homegrown solutions', Al Akhbar, 13 June, online: http://english.al-akhbar.com/content/syria-alternatives-ii-no-homegrown-solutions

-Musin, Marat (2012a) 'Al Hula Witness', Sabina Zaher You Tube, 31 May, online: https://www.youtube.com/watch?v=JD0PA0BxNAQ

-Musin, Marat (2012b) 'THE HOULA MASSACRE: Opposition Terrorists "Killed Families Loyal to the Government', Global research, 1 June, online: http://www.globalresearch.ca/the-houla-massacre-opposition-terrorists-killed-families-loyal-to-the-government/31184?print=1

-Maramus (2012) 'ANNA ВИДЕО: материалы собственного расследования по Аль Хула', [soldier and police interviews] May 30, online: http://maramus.livejournal.com/86539.html ; VIDEO: http://video.yandex.ru/users/news-anna2012/view/24/.]

-Narwani, Sharmine (2014) 'Syria: the hidden massacre', RT, 7 May, online: http://rt.com/op-edge/157412-syria-hidden-massacre-2011/

-Oweis, Khaled Yacoub (2012) 'Syria activists report 'massacre' by army near Damascus', 25 August: http://www.reuters.com/article/2012/08/25/us-syria-crisis-killings-idUSBRE87O08J20120825

-Reuters (2011) ‘Syria says seizes weapons smuggled from Iraq’, 11 March, online: http://www.reuters.com/article/2011/03/11/us-syria-iraq-idUSTRE72A3MI20110311

-Reuters (2012) ‘Syrian gov’t: Islamists behind Houla massacre’, *Jerusalem Post*, 28 May, online: http://www.jpost.com/Middle-East/Syrian-govt-Islamists-behind-Houla-massacre

-RT (2012) ‘UN Security Council issues statement condemning Houla Massacre’, 27 May, online: http://rt.com/news/un-security-syria-houla-348/

-SANA (2011) ‘Mother Agnes Merriam al-Saleeb: Nameless Gunmen Possessing Advanced Firearms Terrorize Citizens and Security in Syria’, Syrian Free Press Network, 19 November, online: http://syrianfreepress.wordpress.com/2011/11/19/mother-agnes-merriam-al-saleeb-nameless-gunmen-possessing-advanced-firearms-terrorize-citizens-and-security-in-syria/

-SANA (2012) ‘Witnesses to al-Houla Massacre: Massacres were carried out against specific families that support the government’, Uprooted Palestinian, 4 June, online: http://uprootedpalestinians.blogspot.com.au/2012/06/witnesses-to-al-houla-massacre.html

-Slaughter, Ann-Marie (2012) ‘We will pay a high price if we do not arm Syria’s rebels’, Financial Times, 31 July

-Spencer, Robert (2012) ‘Syrian Opposition Army Imposes Jizya on Christians in Homs’, Assyrian International News Agency, 13 April, online: http://www.aina.org/news/20120413175936.htm

-Stack, Liam and Hania Mourtada (2012) ‘Members of Assad’s Sect Blamed in Syria Killings’, *New York Times*, December 12, online: http://www.nytimes.com/2012/12/13/world/middleeast/alawite-massacre-in-syria.html?_r=0

-Syria News (2012) ‘Syria News 27 May 2012. Syrian Official TV Channel’, Syria News YouTube, 27 May, online: https://www.youtube.com/watch?v=HX7n0U5hvWQ

-Thompson, Alex (2012) ‘Was there a massacre in the Syrian town of Aqrab?’ 14 December: http://blogs.channel4.com/alex-thomsons-view/happened-syrian-town-aqrab/3426

-Truth Syria (2012) ‘Syria – Daraa revolution was armed to the teeth from the very beginning’, BBC interview with Anwar Al-Eshki, YouTube, 7 November, online: https://www.youtube.com/watch?v=FoGmrWWJ77w

-UNSC (2012) ‘Security Council Press Statement on Attacks in Syria’, United Nations Security Council, 27 May, online: http://www.un.org/News/Press/docs/2012/sc10658.doc.htm

-UNSG (2012) ‘Daily Press Briefing by the Office of the Spokesperson for the Secretary-General’, United Nations, 21 June, online: http://www.un.org/press/en/2012/db120621.doc.htm

-UNTV (2012) ‘September 28 2012 meeting of the Human Rights Council’, L32 Vote, Item: 4, 38th Meeting - 21st Regular Session of Human Rights Council, online:

http://webtv.un.org/meetings-events/human-rights-council/watch/l32-vote-item:4-38th-meeting-21st-regularsession-of-human-rights-council/1865712813001

-Wakefield, Mary (2012) ‘Die Slowly Christian Dog’, *The Spectator*, 27 October, online: http://www.spectator.co.uk/features/8708121/die-slowly-christian-dog/

-Zarzar, Anas and Tareq Abd al-Wahed (2012) ‘Syria’s New Parliament: From Baath to Baath’, Al Akhbar, 16 May, online: http://english.al-akhbar.com/content/syria%E2%80%99s-new-parliament-baath-baath

فبركات الكيماوي: حادثة الغوطة الشرقية



أظهرت مجموعة من الأدلة الموضوعية أن المزاعم عن تورط الجيش السوري في حادثة الأسلحة الكيمياوية في الغوطة الشرقية كانت ملفقة.

لقد انطوت الحرب القذرة ضد سورية على فضائح متكررة، غالباً ما لُفقت ضد الحكومة السورية للمساعدة على خلق الذرائع لتدخلٍ أوسع. ويمكن القول: إنَّ الفضيحة الأسوأ بينها كانت حادثة الغوطة الشرقية في آب/أغسطس 2013، حيث تم نشر صور لأطفال قتلى أو مخدّرين في منطقة زراعية يسيطر عليها الإسلامويون في شرق دمشق، ثم كانت هناك مزاعم بأن الحكومة السورية قد استخدمت الأسلحة الكيمياوية لقتلِ المئات من الأبرياء. وكان أن استرعت هذه الحادثة اهتماماً إلى درجة أنَّ تدخلاً أمريكياً مباشراً، أمكن تفاديه فقط بالمبادرة الدبلوماسية الروسية. إذ وافقت الحكومة السورية على التخلص من كاملِ مخزونها من الأسلحة الكيمياوية (Smith-Spark and Cohen 1320)، معلنةً أنها لم تستخدمه قط في الصراع الأخير.

تُظهر في الواقع الأدلة الموضوعية عن حادثة الغوطة الشرقيّة ـ بما في ذلك تلك الأدلة التي مصدرها الولايات المتحدة والأمم المتحدة ـ اتهام الحكومة السوريّة زوراً. إذ جاء ذلك الاتهام بعد سلسلة من الاتهامات الباطلة الأخرى، وهي ادعاءات "مُدبرة" وثقتها الراهبة الأم أغنيس مريم (SANA 2012)، مثل ما جرى في التحقيق المنحاز على نحو مخجل في مجزرة الحولة (انظر: الفصل السابع)، والمحاولات الفاشلة أو المفضوحة لإلقاء اللوم على الحكومة السورية، فيما يخص عمليات القتل التي يرتكبها الإسلامويون، على سبيل المثال في داريا وعقرب (Thompson 2012; Fisk 2012). ولكن غالباً ما استبعدت القُوى الغربية الكبرى فرضية استخدام الجماعات الإسلاموية "للأسلحة الكيمياوية"، وانعكس هذا الموقف في تقارير وسائل الإعلام الغربية كلها تقريباً. علاوةً على ذلك، ولئن كانت الافتراءات عن الأسلحة الكيماويّة، قد تكررت على مدى سنوات؛ إلا أنّه لا يكاد يكون لدى الرأي العام أيّ مرجعيّة ذات شأن عن الحقائق المُستمدّة من أدلة موضوعيّة. لذلك دعونا نبدأ بالتعرف على بعض المعلومات الأساسية عن الأسلحة الكيمياوية. ثم لننظر في الأدلة الموضوعيّة عن الحادثة التي وقعت في الغوطة الشرقية، بشيء من التفصيل. إذ ما أن نصل إلى الدليل حتى نجد أن ذلك الدليل يقودنا لاكتشاف جريمة حرب أخرى خطيرة، عُمِلَ على إخفائها، وهي مصير الأطفال الضحايا أو المخدرين الذين صُوِّروا في تلك الصور المشينة.

الأسلحة الكيمياوية في سورية

تُعَدُّ الأسلحة الكيماويّة بقايا مواد خام من حقبة سابقة، مثل: حرب الخنادق التي وقعت قبل قرن من الزمان. إذ ليس لها فائدة في حرب المدن، التي يتعقّب فيها الجيش مجموعة مسلحة بين الشوارع والمباني والسكان المدنيين. لا فائدة حقيقية إلا إذا أراد طرف لا يرحم خلق حالة من الذعر العام أو إطلاق الادعاءات الكاذبة. لكن في حالة الجيش العربي السوري، كانت قدرة أسلحته التقليدية تفوق بكثير الأسلحة الكيماوية البدائية، وكان تدرُّبه على حرب المدن، بما في ذلك التدريب الذي يتم في إيران، يستهدف استئصال شأفة

الجماعات الإرهابية، إذ ينبغي عليه مطاردة المسلحين من مبنى إلى آخر (Al-Akhras 2013). لقد احتفظت سورية بمخزون الأسلحة الكيمياوية كسلاحٍ رادع لإسرائيل التي تمتلك الأسلحة النووية، ولكن لم يكن هناك ما يثبت أن سورية استخدمت هذا السلاح في العقود الأخيرة.

لقد تحول مسار الحرب، في منتصف عام 2013، لصالح الحكومة السورية. ورغم كون بعض المناطق من حلب، وشرق دمشق، وأجزاء من شرق سورية، تحت سيطرة "جماعات إسلامويّة" مختلفة، إلا أنَّ الجيش أمّن المناطق السكانية الرئيسة في غرب سورية، وشلّ حركة مرور المسلحين عبر الحدود اللبنانية الجبلية. كانت هناك انتهاكات منتظمة على طول الحدود مع الدول التي دعمت الإسلامويين ـ تركيا وإسرائيل والأردن ـ لكن الغلبة كانت دائماً للجيش السوريّ. حيث استعاد الجيش، مدعوماً بحزب الله، في خلال أيار/مايو وحزيران/يونيو 2013 مدينة القصير، جنوب غرب حمص، من مجموعة من القوات تضم "لواء الفاروق" والنصرة، بما في ذلك العديد من المقاتلين الأجانب (Mortada 2013).

وقد اتُهمت في هذا السياق الجماعات الإسلامويّة المسلحة المناهضة للحكومة باستخدام الأسلحة الكيمياوية. بعد أن أفادت تقارير عن أن النصرة، قد استولت على مصنع كيمياوي قرب حلب في كانون الأول /ديسمبر عام 2012 (Gerard Direct 2012). قدمت الحكومة السورية في آذار/مارس شكوى إلى الأمم المتحدة عن أن غاز السارين استُخدم في معركة رئيسة مع الإسلامويين في خان العسل غرب حلب. وذكرت وكالة الأنباء السورية (سانا) أن الإرهابيين أطلقوا صاروخاً «يحتوي على مواد كيمياوية»، ما أسفر عن مقتل ستة عشر شخصاً وجرح ستة وثمانين شخصاً آخرين من بين الجنود والمدنيين. ثم ارتفع عدد الضحايا لاحقاً إلى خمس وعشرين ضحية (Barnard 2013). أكد 'المرصد السوري لحقوق الإنسان'، وهو مصدر منحاز للإخوان المسلمين، ومقره بريطانيا، و"نشطاء" آخرون مناهضون للحكومة، سقوط ضحايا ولكنه ألمح إلى أن الجيش السوري ربما استخدم الأسلحة و«أصاب جنوده بطريق

الخطأ» (Barnard 2013). لكن رجّحت معظم تقارير وسائل الإعلام الغربية مزاعم الإسلامويين المضادة بالمقارنة مع مستوى تعاملها مع تقرير الحكومة. لكن في نيسان/أبريل أفادت تقارير عن أن النصرة تمكنت من الحصول على غاز الكلور (NTI 2013).

وبالنسبة إلى ما جرى في خان العسل، فقد أشار بيانٌ للسفير السوري لدى الأمم المتحدة، بشار الجعفري، في 19 آذار/ مارس إلى أن «الجماعات الإرهابية المسلحة أطلقت صاروخاً من منطقة كفر داعل نحو خان العسل (حي في حلب) ... وخلفت سحابة كثيفة من الدخان، تسببت بفقدان وعي كل شخص تعرّض لاستنشاقها، حيث أفادت التقارير عن أنَّ الحادث أسفر عن مقتل خمسة وعشرين شخصاً، وجرح أكثر من مئة وعشرة من بين المدنيين والجنود، نُقلوا إلى مستشفيات في حلب»، في اليوم التالي طلبت الحكومة السورية من «الأمين العام تشكيل بعثة متخصصة ومحايدة مستقلة للتحقيق في الحادث» (UNMIAUCWSAA 2013:2-3).

هذا، ثم بعد ذلك مباشرة تقريباً، منذ 21 آذار/مارس بدأت حكومات الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا (والتي كانت في ذلك الحين تدعم المجموعات الإسلاموية بشكل مباشر أو غير مباشر) إضافةَ سلسلة من الحوادث، زاعمةً استخدام الأسلحة الكيمياوية في سورية (UNMIAUCWSAA 2013:2-6). كما ادّعت واشنطن مراراً أنه لم يكن هناك "أي دليل" على أن "المتمردين" مسؤولون عن استخدام السلاح الكيمياوي. وسعوا لجعل الاتهامات ضد الحكومة السورية. ومع ذلك، ففي تصريح مؤقت في أيار/ مايو قالت محققة الأمم المتحدة كارلا ديل بونتي (Ponte Carla del): إنَّ لديها شهادة من الضحايا أنّ "المتمردين" استخدموا غاز السارين (BBC 2013). ثم في شهر أيار/مايو نقلت تقارير عن أن قوات الأمن التركية وجدت علبة من السارين تزن اثني كيلو غراماً، بعد مداهمة منازل مقاتلي النصرة (RT 2013). وأعلنت روسيا في تموز/ يوليو أن لديها أدلة على أن المتمردين السوريين كانوا يصنّعون غاز السارين (Al Jazeera 2013).

ودعت الحكومة السورية ـ رغم تحفُّظها على التحقيق في حادثة الحولة الذي جرى قبل عام من ذلك الوقت ـ مفتشي الأمم المتحدة لزيارة موقع الهجوم في خان العسل. وتم إحضار التفاصيل ووصلت البعثة الخاصة للأمم المتحدة أخيراً في دمشق في 18 آب/أغسطس 2013. وكانت تلك البعثة تهدف إلى «تحقيق بالتزامن في المزاعم التي وردت عن استخدام الأسلحة الكيميائية في خان العسل، وسراقب والشيخ مقصود»، وهذا يعني في ثلاثة من أصل ستة عشر موقعاً «تأكد فيهم وقوع الهجمات». ومع ذلك، «بعد الأحداث المأسوية في 21 آب/أغسطس 2013، وجَّه الأمين العام للأمم المتحدة المجموعة للتحقيق في الحادثة التي وقعت في الغوطة الشرقية بوصفها «مسألة ذات أولوية» (UNMIAUCWSAA2013:7-8). لقد حَرفت هذه الحادثة التحقيقات التي كانت مقررة في البداية عن مسارها. ورغم عدم منطقية الادعاء القائل بأن الحكومة السورية شنت هجوماً بالأسلحة الكيمياوية، نظراً إلى أنَّ الحكومة دعت مفتشي الأمم المتحدة لزيارة دمشق؛ غير أنَّه قد استحوذت هذه الافتراءات الجديدة على اهتمام العالم.

حادثة الغوطة الشرقية

ألقى "جيش الإسلام"، وهو الجماعة الإسلاموية المسلحة الرئيسة، التي كانت تسيطر على الغوطة الشرقية، وتدعمها السعودية، باللوم على الحكومة 'لاستهدافها' الأطفال بالغازات الكيماوية. تم نشر صور لعشرات من الأطفال القتلى أو المصابين. وبسبب دعمهما "للمتمردين"، اتهمت الحكومة الأمريكية ومنظمة هيومن رايتس ووتش، التي مقرها الولايات المتحدة، الحكومة السورية بالوقوف وراء الحادثة. وقالت هيومن رايتس ووتش: إنها «حللت روايات شهود عن الهجمات الصاروخية، ومعلومات عن المصدر المحتمل للهجمات، وبقايا الأسلحة المستخدمة»، وادعت أن الصواريخ المستخدمة كانت من «منظومات أسلحة معروفة، ومؤكد بالدليل، أن من يملكها، ويستخدمها فقط، هو القوات المسلحة السورية» (HRW 2013a). وقالت حكومة الولايات المتحدة الشيء ذاته. إن الصلة وثيقة بين الاثنتين (أي ما قالته منظمة هيومن رايتس ووتش

والحكومة الأمريكية)، ولا بد أنه يوحي لنا أن هذا التناغم في التصريحات يـشير إلى وجود تعاون بينهما أكثر منه مسألة دعم استنتاجات. حيث اتهمـت مجموعـة من الحائزين على جـائزة نوبـل في وقـت لاحـق هيـومن رايـتس ووتـش بأنهـا تعتمد سياسة "البـاب الـدوار" بـين مكاتبـها وتلـك المكاتـب التابعـة للحكومـة الأمريكية (Pérez Esquivel and Maguire 2014).

أيدت صحيفة النيويورك تايمز ادعاء الحكومة الأمريكية عن أن «فقط قـوات الحكومـة السورية تملك القدرة على تنفيذ مثل هـذه الـضربة» (Gladstone and Chivers 2013). وادّعت الصحيفة أن الحسابات المُتجهية لمسارات الصواريخ تشير إلى أنها لا بد أن تكون أطلقت من قواعد الجيش الـسوري في دمـشق (Parry 2013). غـير أن دراساتٍ في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) سرعان ما أظهـرت أن مـدى الصواريخ كان أقصر بكثير مما طُرِح. تراجعت صحيفة النيويورك تايمز عن ادعاءاتها القائمة على التَّلمترية (telemetry) قائلةً، إنه في حين «جادل البعض أنه لا يزال مـن الممكن أن تكون الحكومة مسؤولة»، إلا أن أدلة جديـدة «تقـوض تأكيـدات إدارة أوباما على نقـاط إطـلاق الـصواريخ» (Chivers 2013; و2013 Parry) . وكـان تقرير معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا النـهائي أكثـر تأكيـداً، وخلـص إلى أنـه «لا يمكن أن يكون قد أطلق على الغوطة الـشرقية صـواريخ مـن قلـب، أو مـن الطرف الشرقي، للمنطقـة الـتي تـسيطر عليهـا الحكومـة الـسورية، المُبينـة في خريطـة المخـابرات الـتي نـشرها البيـت الأبـيض في 30 آب/أغـسطس 2013» (Lloyd and Postol 2014).

وبينما كانت وسائل الإعلام الغربية تكـرر في الغالـب اتهامـات واشـنطن، واصلت تقارير موضوعية معارضتها لتلك الروايـة. حيـث نقـل الـصحفيان ديـل غافلاك (Dale Gavlak) ويحيى عبابنة (Yahya Ababneh) مقابلات مباشرة مـع «أطباء وسكان الغوطة والمقاتلين المتمردين وأسرهم» في منطقة الغوطة الشرقية. يعتقد الكثيرون أن الإسلامويين تلقوا الأسلحة الكيمياوية عبر رئيس المخـابرات السعودية الأمير بندر بن سلطان، وكانوا مسؤولين عـن تنفيـذ هجـوم بالغـازات الكيمياوية (Gavlak and Ababneh2013). حيث ذكر أحد "المتمـردين" أن ابنـه

واثنا عشر متمرداً آخرين قُتلوا داخل نفق يُستخدم لتخزين الأسلحة المقدمة من ناشط سعودي، معروف باسم أبي عائشة» (Gavlak and Ababneh 2013). واشتكت واحدة من النّسوة الجهاديات من أنه لم يكن لديهن تعليمات عن كيفية استخدام الأسلحة الكيماوية. كما قال زعيم المتمردين الشيء نفسه إلى حد كبير. وأفاد العديد من الذين تمت مقابلتهم أن رواتبهم جاءت من الحكومة السعودية (Gavlak and Ababneh2013).

أجرت مجموعة سورية، أعني: الفريق الدولي لدعم المصالحة في سورية (ISTEAMS)، الذي تقوده الأم أغنيس مريم، أقول: أجرت دراسة مفصلة عن الأدلة المقدمة في الفيديو، مشيرة إلى أنه تم استغلال الجثث من أجل الصور، وأن العديد من الأطفال ظهروا مرضى أو مخدرين (ISTEAMS 2013: 32-35). استخدم الفيديو تقنية «المعالجة الاصطناعية للمشهد ... هناك نقص صارخ في عدد العائلات الفعلية في الغوطة الشرقية... لذلك من هم أولئك الأطفال الذين يُعرضون في أشرطة الفيديو؟» (ISTEAMS 2013: 44). وتساءل التقرير: هل يُعقل وجود أطفال كثيرين، بمعزلٍ عن آبائهم أو أمهاتهم؟ إذ صدرت التقارير والأخبار كافة عن الحادثة من مناطق نفوذ "المتمردين"!

وزعم المكتب الطبي في المنطقة تعرُّض عشرة آلاف شخص للإصابة، بالإضافة إلى قتلِ ألف وأربعمئة وستة وستين شخصاً، وأن 67٪ منهم من النساء والأطفال، بينما قالت لجنة التنسيق المحلية (علماً أنها كانت في هذا الوقت جماعة مرتبطة بـ 'الجيش السوري الحر') لقد سقط هناك ألف ومئة وثماني وثمانون ضحية. لكن أظهرت أشرطة الفيديو أقل من خمسمئة جسدٍ بشريٍّ، لم يكن جميعها من الموتى! (ISTEAMS 2013: 36-38). كان الأكثر إثارة للانتباه لاحقاً غياب الجثث التي تم التحقق منها». حيث «شاهدنا عملية دفن ثماني جثث». لكن أين [ال] جثث المتبقية البالغ عددها ألفاً وأربعمئة وثماني وخمسين جثة، أين هم؟ أين الأطفال؟» (ISTEAMS 2013: 41). وزعم ناطق باسم «المتمردين» أن «عملية الدفن جرت بسرعة خوفاً من أن تتحلل الجثث بسبب الحرارة» (Mroue 2013).

أشار تقرير (ISTEAMS) إلى احتمال وجود صلة بين عملية اختطاف الأطفال التي تمت على نطاق واسع في بلوطة، شمال اللاذقية، قبل أسبوعين فقط من حادثة الغوطة الشرقية. إذ جاء في التقرير: «ونشير أيضاً إلى قائمة الضحايا الذين سقطوا نتيجة غزو إحدى عشرة قرية علوية في اللاذقية في الرابع من آب/ أغسطس 2013، حيث اختطفت النصرة مئة وخمسين امرأة وطفلاً» (ISTEAMS 2013: 43). وقال التقرير: «إن أفراداً من أسر بعض النساء والأطفال من الذين تم خطفهم ... تعرفوا على أقاربهم في أشرطة الفيديو»، ودعوا إلى إجراء تحقيق "حيادي" لتحديد هُويّة ومكان وجود الأطفال (ISTEAMS 2013: 44). وأشارت تقارير لاحقة إلى أن الأطفال المختطفين في شمال سورية قد احتجزوا في بلدة سلمى في الشمال (Martin 2014; Mesler1420)، حيث زعم أحدهم أن الجماعات المسلحة خدّرت هؤلاء الأطفال لفبركة الفيديو، وأرسلت الصور إلى الغوطة الشرقية ليتم تحميلها (Mesler 2014). وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن هؤلاء الأطفال لم يكونوا أبداً في الغوطة الشرقية.

أصدرت مجموعة من المحامين والكتاب الأتراك في نهاية عام 2013، تقريراً مطولاً عن الجرائم ضد المدنيين في سورية. وكان التركيز بشكل أساس على مسؤولية الحكومة التركية، التي كانت تساند هذه الجماعات المتمردة. وخلص التقرير إلى أن « غالبيّة الجرائم التي وقعت ضد المدنيين السوريين، بما في ذلك الهجوم في الغوطة الشرقية، ارتكبتها «القوات المتمردة المسلحة في سورية». وقيل: إن الجماعة المدعومة من السعودية، المسمّاة "جيش الإسلام"، التي يقودها زهران علوش، «ووفقاً لعدة مصادر هي التنظيم الذي يقف وراء الهجوم الكيمياوي» (Peace Association and Lawyers for Justice 2013).

تلقت خطة الولايات المتحدة ضربة أخرى، هذه المرة من داخل الولايات المتحدة، حيث قابل الصحفي الأمريكي المخضرم سيمور هيرش (Seymour Hersh) عملاء تابعين للمخابرات الأمريكية، وخلص إلى أن ادعاءات واشنطن عن الأدلة كانت مُلفقة. كان ينبغي أن تكون «النصرة أحد المشتبه بهم»، يقول هيرش: «ولكن [الولايات المتحدة] جنت ثمار عمل المخابرات لتبرير توجيه ضربة ضد الأسد» (Hersh 2013). إذ استشهد الرئيس أوباما ـ كدليل على استعدادات الجيش السوري لشن هجوم بالغاز ـ من "محادثة" على موجات اللاسلكي

السورية في وقت وقوع الحادث. ومع ذلك قال هيرش: إنه لمس «قلقاً شديداً» وغضباً من عملاء المخابرات الأمريكية، بسبب «الاستغلال المتعمد للمخابرات». وقال ضابط: «لم يكن الهجوم ناتجاً عن النظام الحالي» (Hersh 2013). ربطت المعلومات الأساسية للبيت الأبيض حقائق ما قبل الحادثة بتلك الحقائق المتوافرة بعدها. وخلص هيرش إلى أن البيت الأبيض «تجاهل المعلومات المتوافرة عن إمكان حصول النُّصرة على السارين، واستمر في ادعاء [مغلوط] بأنَّ حكومة (الرئيس) الأسد كانت الوحيدة التي تملك الأسلحة الكيماوية» (Hersh 2013).

عادت البعثة الخاصة للأمم المتحدة بشأن الأسلحة الكيماوية إلى سورية في أواخر أيلول/ سبتمبر، وحققت في العديد من المواقع، بما في ذلك الغوطة الشرقية. وقرر أعضاء فريق البعثة إجراء التحقيق في سبعة مواقع من أصل ستة عشر موقعاً وردت في التقارير الأولية (UNMIAUCWSAA 2013:10). لم تتمتع هذه البعثة بحق تحديد المسؤولية المحددة، وإنما اضطلعت بمهمة تبيان استخدام الأسلحة الكيماوية فعلاً، والنتائج المترتبة على ذلك. حيث ذكروا في تقرير كانون الأول/ ديسمبر 2013 أن الأسلحة الكيماوية استخدمت في سورية، وتحديداً ضد المدنيين، بما فيهم الأطفال، على نطاق واسع نسبياً في منطقة الغوطة في دمشق في 21 آب/أغسطس ... وفي خان العسل في 19 آذار/ مارس 2013 ضد الجنود والمدنيين ... وفي جوبر في 24 آب/ أغسطس 2013 على نطاق صغير نسبياً ضد الجنود ... وفي سراقب في 24 آب/أغسطس 2013 على نطاق صغير، وأيضا ضد المدنيين ... [و] في أشرفية صحنايا في 25 آب/أغسطس 2013 على نطاقٍ صغير ضد الجنود (UNMIAUCWSAA 2013:19-21).

ونلاحظ هنا استخدام الأسلحة الكيماوية ضد الجنود في ثلاث من أصل خمس وقائع والمنطقي أن تلك الهجمات مصدرها الجماعات التي كانت تقاتل الجنود، وليس القوات الحكومية. كما أشار تقرير لاحق لمجلس حقوق الإنسان (شباط/ فبراير 2014) إلى أن المواد الكيماوية المستخدمة في هجوم خان العسل، «تحمل البصمات المميزة كتلك نفسها التي استُخدمت في الغوطة»، ومع ذلك لم يتمكنوا من معرفة الفاعل (HRC 2014:19) . كان الدليلُ

الموضوعيُّ دامغاً، ولا مفر منه: لقد استخدمت الأسلحة الكيمياوية في الغوطة الشرقيّة، ولكن التُهم ضد الجيش السوري كانت مُلفقة.

الجدول 1: حادثة الأسلحة الكيماوية في الغوطة الشرقية (آب/أغسطس 2013): تقارير هامة	
المصدر / التقرير / الدليل	الطريقة والاستنتاج
كارلا ديل بونتي (Carla del Ponte) (الأمم المتحدة)	قبل حادثة الغوطة الشرقية: يعتقد أن "المتمردين"، استخدموا غاز السارين في شمال سورية.
العديد من التقارير الإخبارية	قبل حادثة الغوطة الشرقية: تم إلقاء القبض على "المتمردين" (النصرة) في تركيا وبحوزتهم غاز السارين.
"المتمردون السوريون والمتعاونون معهم	قتل ألف وثلاثمئة شخصاً، بما فيهم الأطفال، جراء "قصف" الحكومة بالسلاح الكيماوي (CW). مع ذلك لم يتم دفن سوى ثماني جثث.
هيومان رايتس ووتش (HRW)	الأسلحة المستخدمة تمتلكها فقط الحكومة السورية.
النيويورك تايمز	يربط دليل القياس عن بعد الهجمات بقواعد الحكومة السورية (دراسات معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا تجبر صحيفة النيويورك تايمز على تغيير هذا الإدعاء)
لويد (Lloyd) و بوستال (Postol) من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT)	كان مدى الصواريخ المستخدمة محدوداً، ولا يمكن أن تكون الصواريخ أطلقت من مواقع الحكومة السورية التي تم الإشارة إليها.
غالفانك (Gavlak) وعباينة (Ababneh) (MINT Press)	قدم السعوديون الأسلحة الكيمياوية إلى الجماعات المتمردة، وبعض السكان المحليين لقوا حتفهم بسبب سوء استخدامها.
الأم أغنيس / STEAMSI	كانت الصور مزيفة، ولا يوجد سياق اجتماعي، كما أنّه لم يُدفن سوى ثمانية أشخاص– وتساءلت أين بقية الأطفال؟
ISTEAMS، مارتن (Martin)، وميسلر(Mesler)	تعرّف الآباء على الأطفال في الصور على أنهم المختطفون من بلوطة (اللاذقية)، قبل أسبوعين.
سيمور هيرش (our HershSeym) لندن ريفيو أوف بوكس (LRB)	قام بمقابلة مسؤولين أمريكيين. تبين أنه تم استغلال المخابرات لإلقاء اللوم على الرئيس الأسد، حيث استخدمت الادعاءات الكاذبة.
مجموعة من المحامين والكتاب الأتراك (PALJ)	تحميل "جيش الإسلام" المسؤولية، وهو جماعة من المتمردين المدعومين من السعوديّة.
تقرير الأمم المتحدة في كانون الأول/ ديسمبر 2013 عن هجمات الأسلحة الكيماوية في سورية.	استُخدمت الأسلحة الكيماوية في الغوطة الشرقية. ثلاث من خمس هجمات بالأسلحة الكيماوية «كانت ضد الجنود» أو «ضد الجنود والمدنيين»
تقرير مجلس حقوق الإنسان (HRC) في شباط/ فبراير 2014	المواد الكيمياوية المستخدمة في هجوم خان العسل "تحمل العلامات المميزة نفسها" التي استُخدمت في الغوطة الشرقية.

وجاءت الأدلة المستقلة، عن الحكومة السورية، من مصادر سورية وأردنية وتركية ومن الولايات المتحدة، ومن فريق تابع للأمم المتحدة. يُضاف إلى ذلك

أنَّ صوراً كثيرةً لأطفالٍ مرضى أو قتلى، يُشكّك في كون مصدرها هو الغوطة الشرقية ولا توجد طريقةٌ عمليّة تجعلها مجدية على نحوٍ موضوعيّ، بحيث تقدّم إجابة ثابتة عن سؤال: من هم هؤلاء الأطفال وماذا حدثً لهم؟ . إن قلة صدقيّة هذه الأدلة تبين أنها حوادث أخرى "مدبرة"، تهدف إلى استدعاء تدخل أجنبي أوسع. حيث يبدو مستوى صدقيّة التقارير الموضوعية التي قوضت صحة المزاعم التي أطلقت ضد الحكومة السورية، في تناقضٍ ملحوظٍ مع تَبَجُّحٍ بالدعاية الذاتية قام به "المتمردون" عن فظائعهم، مثل: قطعِ الرؤوس وعمليات الإعدام العلنية، وتفجيرات الشاحنات والقصف بالهاون على المدن، وقصف المستشفيات وتدمير المساجد والكنائس كما أنَّ الجيش السوريّ يطعن بشدّة في المزاعم عن اتهامه بارتكاب الفظائع بحقّ المدنيين، وهذه حقيقة تستبين (بمعالجته الطبيّة حتى للمسلحين الأسرى ما يبدِّد تلك المزاعم كلّها)؛ لكن يقوم "المتمردون" في المقابل، بنشر صور عن فظائعهم، وبالتالي هذه أيضاً حقيقة تمثل الخلفيّة الواضحة للاختلافات بين كلٍّ منهما.

الافتراءات عن الكيمياوي والأطفال المفقودون في سورية

ويجدر بالذكر أنّه بعد حادثة الغوطة الشرقية، أبقت الجماعات الإسلامويّة ـ المدعومة من قبل مجموعة من الدول التي تعارض سورية ـ على اتهاماتها لسورية باستخدام السلاح الكيماوي. وادّعت النصرة أن المواد الكيماوية التي وجدت بحوزتها في تركيا «ليست لصنع غاز السارين» (Today's Zaman 2013). إلا أنَّ أدلة فيديو من جنوب سورية أظهرت أنَّ النصرة تستخدم الأسلحة الكيماوية ضد الجنود السوريين (Turbeville 2014). وأفادت تقارير في تموز/ يوليو عن أن براميلَ تحتوي على غاز السارين اكتشفت في المناطق «التي يسيطر عليها المتمردون في سورية» (RT 2014). ثم ذكر أكرادٌ عراقيون في عام 2015، الجماعة الرئيسة الأخرى التي تتحدّر من تنظيم القاعدة، أي: "داعش" استخدمت الأسلحة الكيماوية (Solomon 2015; Ariel 2015). ذلك بدلالة استيلاء مقاتلين أكراد على قنابل الكلور بعد تفجير انتحاري تركهم في حالة من «الدوار، والغثيان والضعف» (Akbar 2015).

كرر كلٌّ من "نشطاء" مناهضين للحكومة، ومنظمات غير حكومية مقرها الولايات المتحدة، مثل: "آفاز"، و"سيريا كامبين" و"الوايت هيلمتس"، اتهاماتهم ورفعوا من وتيرتها، مُحرِّضين على "الحظر الجوي" على غرار ما حدث في ليبيا (NFZ Syria 2015; White Helmets 2015)، وكان هدفهم بشكل واضح إسقاط الحكومة في دمشق. وبحلول عام 2014 وحين بدا أن هناك فرصة ضئيلة في حدوث ذلك، اتهمت قناة الجزيرة مرة أخرى في نيسان/أبريل 2014 الحكومة السورية باستخدام غاز الكلور (Baker 2014)، في حين اتهم ناشطون مجهولون «الجيش السوري بشنِّ هجومٍ بالغاز السام» (Mroue and Lucas 2015). وفي كلتا الحالتين لم يكن هناك أي عملية مستقلة للتثبُّت من صحة ما جرى. ومع ذلك، كررت وسائل الإعلام المزاعم الأولية عن حادثة الغوطة الشرقية، كما لو كانت حقيقة، ضاربين صفحاً عن الأدلة. وادعت مقالة، ـ نُشرت في نيسان/ أبريل 2015، في صحيفة الجارديان البريطانية ـ أن الحكومة السورية قد استخدمت الأسلحة الكيماوية و«قتلت ما يصل إلى ألف وأربعمئة شخص في آب/ أغسطس 2013» (Black 2015). وكان هذا هو التضليل المتهور بعينه.

لقد حَرفت الأخبار المضللة عن الأسلحة الكيماوية النقاش الغربي المنطقي فيما يتعلّق بالحرب الجارية في سورية عن مساره. وربما كان هذا هو المشكلة. إنه لأمر محزن، أن تستحوذ المناقشة المنطقية للأدلة على القليل من الاهتمام. كما أن ذلك السيل المطّرد من الافتراءات قد فاقم بالتأكيد، وساعد، على إطالة أمد العنف. فالميليشيا الإسلاموية تنفذ جرائمهما مع الإفلات حتى من العقاب النسبي، ملقية اللوم بشكل متكرر على الحكومة السورية.

هذا، وقد عُمِّيَ على جريمة أخرى مع افتراءات الكيماوي: وهي مصير الأطفال الذين اختطفوا في بلوطة. فحتى هيومن رايتس ووتش نشرت أخباراً عن هذه الجريمة (HRW 2013b)، وإن لم تذكر صلة ذلك بالأطفال الذين أصيبوا أو قتلوا في الغوطة الشرقية. وكان هذا الخطف الجماعي حلقةً واحدة فقط من سلسلة عمليات الخطف التي قامت بها الجماعات المسلحة. حيث يحتجز الضحايا مقابل الحصول على فدية، أو لتبادل الأسرى، أو يذبحون ببساطة،

بسبب الاعتقاد أنهم من العائلات الموالية للحكومة. ولكن في حادثة الغوطة الشرقية، ربطت عدة مصادر (ISTEAMS 2013; Martin 2014; Mesler 2014) بين أطفال بلوطة وصور الصغار القتلى أو الذين تم تخديرهم والذين قيل: إنهم كانوا في الغوطة الشرقية.

وهذا يعني أنه ربما تم نشر صورهم من الغوطة الشرقية، لكن جثثهم لم تكن هناك أبداً. وفي حين تم الإفراج عن بعض المختطفين في تبادل للأسرى عام 2014، لا يزال العديد منهم محتجزين، كما قيل في سلمى. ويقال: إن هذا هو السبب الذي يجعل الكثير من العائلات في شمال سورية لا ترغب بالمجاهرة في تعرّف أطفالها. فهذه العائلات تريد إطلاق سراح أولئك الذين مازالوا على قيد الحياة. لكن بالمقابل تواصل وسائل الإعلام الغربية الإشارة إلى الـ"الألف وأربعمئة" ضحية، دون ذكر أسماء، غير أنّه ليس هناك سوى ثماني جثث مدفونة.

ونجد في ضباب الحرب هذا، أن الأم أغنيس مريم على حقّ طوال الوقت، من حيث إصرارها على ضرورة ذكر أسماء وتفاصيل القتلى، وليس مجرد ذكر الأرقام، كما لو كانت عمليات القتل هذه مباراة كريكيت. وقد طرحت مجموعتها (ISTEAMS) مرّة أخرى في أيلول/ سبتمبر 2013، واحدةً من أكثر الأسئلة الحيوية المتعلقة بهذه القضية برمتها: «شاهدنا عملية دفن ثماني جثث». لكن أين [ال] جثث المتبقية البالغ عددها ألفاً وأربعمئة وثماني وخمسين جثة، أين هي؟ أين الأطفال؟» (ISTEAMS 2013:41).

المراجع:

-Al Akhras, Samer (2013) Interview with this writer, Damascus, 24 December

-Al Jazeera (2013) ‘Syria rebels made own sarin gas, says Russia’, 10 July, online: http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2013/07/20137920448105510.html

-Anderson, Tim (2015) ‘The Houla Massacre Revisited: “Official Truth” in the Dirty War on Syria’, Global Research, 24 March, online: http://www.globalresearch.ca/houla-revisited-official-truth-in-the-dirty-war-on-syria/5438441

-Ariel, Ben (2015) ‘United States ‘concerned’ about ISIS use of chlorine gas’, Arutz Sheva, 17 March, online: http://www.israelnationalnews.com/News/News.aspx/192730#.VSJJc5MY6q4

-Akbar, Jay (2015) ‘More evidence emerges of ISIS using chemical weapons as Kurdish fighters seize chlorine canisters after suicide bomb attack that left them ‘dizzy, nauseous and weak’’, 15 March, Daily Mail, online: http://www.dailymail.co.uk/news/article-2995150/More-evidence-emerges-ISIS-using-chemical-weapons-Kurdish-fighters-seize-chlorine-canisters-suicide-bomb-attack-left-dizzy-nauseous-weak.html

-Baker, Graeme (2014) ‘Syrian regime accused of chlorine gas attacks’, Al Jazeera, 17 April, online: http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2014/04/syrian-regime-accused-chlorine-gas-attacks-201441703230338216.html

-Barnard, Anne (2013) ‘Syria and Activists Trade Charges on Chemical Weapons’, New York Times, 19 March, online: http://www.nytimes.com/2013/03/20/world/middleeast/syria-developments.html?pagewanted=all

-BBC (2013) UN’s Del Ponte says evidence Syria rebels ‘used sarin’’, 6 May, online: http://www.bbc.com/news/world-middle-east-22424188

-Black, Ian (2015) ‘Former ambassador attacks Cameron’s ‘arrogant’ Syria policy’, UK Guardian, 8 April, online: http://www.theguardian.com/politics/2015/apr/07/former-ambassador-attacks-camerons-arrogant-syria-policy

-Chivers, C.J. (2013) ‘New Study Refines View of Sarin Attack in Syria’, New York Times, online: http://www.nytimes.com/2013/12/29/world/middleeast/new-study-refines-view-of-sarin-attack-in-syria.html

-Eva Pal (2014) ‘Talk with Lilly Martin and Steven Sahiounie, part 1’, YouTube, May 10, online: https://www.youtube.com/watch?v=oc2HRk42O-w

-Fisk, Robert (2012) ‘Inside Daraya - how a failed prisoner swap turned into a massacre’, 29 August: http://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/robert-fisk-inside-daraya--how-a-failed-prisoner-swap-turned-into-a-massacre-8084727.html

-Gavlak, Dale and Yahya Ababneh (2013) ‘Syrians In Ghouta Claim Saudi-Supplied Rebels Behind Chemical Attack’, MINT PRESS, August 29, online: http://www.mintpressnews.com/witnesses-of-gas-attack-say-saudis-supplied-rebels-with-chemical-weapons/168135/

-Gerard Direct (2012) ‘Syria: jihadist al-Nusra Front seizes chemical factory near Aleppo’, 9 December, online: http://gerarddirect.com/2012/12/09/syria-jihadist-al-nusra-front-siezes-chemical-factory-in-allepo/

-Gladstone, Rick and C.J Chivers (2013) ‘Forensic Details in U.N. Report Point to Assad’s Use of Gas’, New York Times, 16 September, online: http://www.nytimes.com/2013/09/17/world/europe/syria-united-nations.html?_r=0&adxnnl=1&adxnnlx=1387381766-55AjTxhuELAeFSCuukA7Og

-Hersh, Seymour M. (2013) ‘Whose Sarin?’ London Review of Books, Vol. 35 No. 24, 19 December, 9-12, online: http://www.lrb.co.uk/v35/n24/seymour-m-hersh/whose-sarin

-Hersh, Seymour M. (2014) ‘The Red Line and the Rat Line’, London Review of Books, 36:8, 17 April, pp 21-24, online: http://www.lrb.co.uk/v36/n08/seymour-m-hersh/the-red-line-and-the-rat-line

-HRC (2014) ‘Report of the independent international commission of inquiry on the Syrian Arab Republic’, Human Rights Council, A/HRC/25/65, 12 February, online: http://www.ohchr.org/EN/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/IndependentInternationalCommission.aspx

-HRW (2013a) ‘Attacks on Ghouta: Analysis of Alleged Use of Chemical Weapons in Syria’, Human Rights Watch, Washington, 10 September, online: http://www.hrw.org/reports/2013/09/10/attacks-ghouta

-HRW (2013b) ‘You Can Still See Their Blood’, Human Rights Watch, Washington, 11 October, online: http://www.hrw.org/node/119675/

-ISTEAMS (2013) ‘Independent Investigation of Syria Chemical Attack Videos and Child Abductions’, 15 September, online: http://www.globalresearch.ca/STUDY_THE_VIDEOS_THAT_SPEAKS_ABOUT_CHEMICALS_BETA_VERSION.pdf

-Lloyd, Richard and Theodore A. Postol (2014) ‘Possible Implications of Faulty US Technical Intelligence in the Damascus Nerve Agent Attack of August 21, 2013’, MIT, January 14, Washington DC, online: https://www.documentcloud.org/documents/1006045-possible-implications-of-bad-intelligence.html#storylink=relast

-Malas, Nour (2013) ‘As Syrian Islamists Gain, It’s Rebel Against Rebel’, Wall Street Journal, 29 may, online: http://online.wsj.com/article/SB10001424127887323975004578499100684326558.html

-Martin, Lilly (2014) in Deena Stryker ‘The Hidden Australia/Syria Story’, Op Ed News, 22 December, online: http://www.opednews.com/articles/The-Hidden-Australia-Syria-by-Deena-Stryker-Children_Community_Death_Government-141222-294.html

-Mesler, John (2014) ‘Combating the Propaganda Machine in Syria: The ‘Moderate Opposition’, the Children from Ballouta, and the Sarin Gas Attack on Eastern Ghouta’, NSNBC, 10 October, online: http://nsnbc.me/2014/10/10/combating-propaganda-machine-syria/

-Mortada, Radwan (2012) ‘Syria Alternatives (II): no homegrown solutions’, Al Akhbar, 13 June, online: http://english.al-akhbar.com/content/syria-alternatives-ii-no-homegrown-solutions

-Mortada, Radwan (2013) 'The Battle for Qusayr: Decisive Victory or War of Attrition?' Al Akhbar, May 21, online: http://english.al-akhbar.com/node/15864

-Mroue, Bassem (2013) 'Syrian forces bomb area of alleged chemical attack' USA Today, 22 August, online: http://www.usatoday.com/story/news/world/2013/08/22/syria-attack/2683855/

-Mroue, Bassem and Ryan Lucas (2015) 'Activists accuse Syrian military of deadly poison gas attack', 17 march, online: http://news.yahoo.com/group-syrian-attacks-may-amount-war-crimes-074128323.html

-NFZ Syria (2015) 'Call from Syria: London march 26th April', 4 April, online: http://www.nfzsyria.org/

-NTI (2013) 'Syrian militants have access to chlorine gas: plant owner', 1 April, online: http://www.nti.org/gsn/article/syrian-militants-have-access-chlorine-gas-plant-owner/

-Parry, Robert (2013) 'NYT Backs Off Its Syria-Sarin Analysis', Global Research, 30 December, online: http://www.globalresearch.ca/nyt-backs-off-its-syria-sarin-analysis/5363023

-Peace Association and Lawyers for Justice in Turkey (2013) 'War Crimes Committed Against the People of Syria', December, online: http://www.wpc-in.org/sites/default/files/documents/war-crimes-committed-againts-the-people-of-syria.pdf

-RT (2013) 'Turkey finds sarin gas in homes of suspected Syrian Islamists – reports', 30 may, online: http://rt.com/news/sarin-gas-turkey-al-nusra-021/

-RT (2014) ''Abandoned' barrels containing deadly sarin seized in rebel-held Syria', 8 July, online: http://rt.com/news/171076-two-sarin-barrels-found-syria/

-SANA (2011) 'Mother Agnes Merriam al-Saleeb: Nameless Gunmen Possessing Advanced Firearms Terrorize Citizens and Security in Syria', Syrian Free Press Network, 19 November, online: http://syrianfreepress.wordpress.com/2011/11/19/mother-agnes-merriam-al-saleeb-nameless-gunmen-possessing-advanced-firearms-terrorize-citizens-and-security-in-syria/

-Smith-Spark, Laura and Tom Cohen (2013) 'U.S., Russia agree to framework on Syria chemical weapons', CNN, 15 September, online: http://edition.cnn.com/2013/09/14/politics/us-syria/

-Solomon, Erica (2015) 'Iraqi Kurds claim ISIS used chemical weapons', Financial Times, 14 March, online: http://www.ft.com/cms/s/0/6e69cfca-ca78-11e4-8973-00144feab7de.html#axzz3WW8sO2k1

-Turbeville, Brandon (2014) 'New video evidence points to al-Nusra chemical attack against Syrian soldiers', 5 May, Online: http://www.activistpost.com/2014/05/new-video-evidence-points-to-al-nusra.html

-Stack, Liam and Hania Mourtada (2012) 'Members of Assad's Sect Blamed in Syria Killings', New York Times, December 12, online: http://www.nytimes.com/2012/12/13/world/middleeast/alawite-massacre-in-syria.html?_r=0

-Thompson, Alex (2012) 'Was there a massacre in the Syrian town of Aqrab?' 14 December: http://blogs.channel4.com/alex-thomsons-view/happened-syrian-town-aqrab/3426

-Today's Zaman (2013) 'Detained al-Nusra members say chemicals not for making sarin gas', 13 September, online: http://www.todayszaman.com/national_detained-al-nusra-members-say-chemicals-not-for-making-sarin-gas_326332.html

-UN (2013) United Nations Mission to Investigate Allegations of the Use of Chemical Weapons in the Syrian Arab Republic, December, online: https://unoda-web.s3.amazonaws.com/wp-content/uploads/2013/12/report.pdf

-UNMIAUCWSAA (2013) 'Final report', United Nations Mission to Investigate Allegations of the Use of Chemical Weapons in the Syrian Arab Republic, 12 December, online: https://unoda-web.s3.amazonaws.com/wp-content/uploads/2013/12/report.pdf

-White Helmets (2015) 'It's time to stop the bombs', March, online: https://www.whitehelmets.org/

"مسؤولية الحماية" واللعبة المزدوجة



نقطة تفتيش تابعة للجيش السوري خارج اليرموك، المخيم الفلسطينيّ جنوب دمشق. حيث يبدو الجيش العربي السوري هو القوة الرئيسة الحامية للمواطنين السوريين.

طُوِّرت نسخةٌ جديدة من "التدخل الإنساني"، تحت تسمية "مسؤولية الحماية" (P2R)، ذلك في مطلع القرن الحادي والعشرين. وهي اختراع ابتدعته القوى الكبرى مبني على العواقب الإنسانية المفترضة في حال فشلهم في التدخل، وأصبحت ذريعة أخلاقية كبيرة للتدخل عام 2011 في ليبيا. وكان ذلك التدخلُ، المبني على الأكاذيب، كارثةً للشعب الليبي. وقد جرت محاولة مماثلة لتطبيقه في سورية، لكنها فشلت. إذ لم تعد روسيا والصين، على وجه الخصوص، مستعدتين للمشاركة في لعبة واشنطن. وعلى أية حال، ربما يبدو هذا المبدأ مصيباً من الناحية النظرية، لكنه عملياً يمثل وسيلة جديدة للتدخل. كما يحمل مخاطر كبيرة، إذ إنه ساعد على التحريض على المجازر "المدبرة" من

قبل الجماعات المسلحة في سعيها وراء مزيد من الدعم الخارجي. وقد أفضى ذلك الشكل من التدخل أيضاً إلى تجاهل النظام الدولي الذي تأسس منذ الأربعينات على مبادئ السيادة وعدم التدخل.

لقد كان الأمر استثنائياً في بعض النواحي، حيث أنه وبعد فترة قصيرة جداً من غزو العراق عام 2003، وتحت ذريعة كاذبة بشكل فاضح (انظر: Kramer وMichalowski 2005)، جرت مناقشة جادة عن كيفية تعميق وتقديس مسوغات التدخل العسكري. لقد كان النقاش شاذاً في إعطاء اهتمام قليل نسبياً لتاريخ طويل من الذرائع الكاذبة للتدخل. ومع ذلك كان منطقياً، إذ أنه يلبي الضمير الاجتماعي الساذج، وفي الوقت نفسه يفتح آفاقاً جديدة لطموح القوى الكبرى. إننا أمام "اللعبة المزدوجة" التي تُخلطُ فيها مسوغات الذرائع الكاذبة، والطموح السياسي، والصالح العام، وهذا تقليد (استعماري) قديم.

كانت المناقشة التي جرت مؤخراً في الغالب تستند إلى المرجعية الغربية، وغالباً ما تركز على تعزيز "مسؤولية الحماية" بوصفها «معياراً جديداً للقانون الدولي»، وحتى معياراً ملزماً (Loiselle 2013: 317-341). وقد عبرت عن موجة مشاعر غربيّة مؤيدة عموماً للتدخل، بغض النظر عن التفاصيل. وكان هذا معاكساً للاتجاهات التي أرستها الدول المُستَعمَرَة في حقبة ما بعد الاستعمار. فحركة عدم الانحياز التي تضم مئة وثماني عشرة دولة، ومعظمها مستعمرات سابقة، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ترفع مبدأ عدم التدخل كمبدأ مؤسس للدول القومية (Köchler 1982). وكمثال على المناقشات الماضية، كان النزاع الكبير من حيث المبدأ بين الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية في جميع المؤتمرات الشاملة للأمريكيتين في أوائل القرن العشرين، مردّه إلى رفض واشنطن قبول مبدأ عدم التدخل. وأخيراً، في عام 1933، اعترفت الولايات المتحدة بذلك المبدأ (Dreier 1963: 40-41). وبطبيعة الحال، واصلت الولايات المتحدة التدخل في أمريكا اللاتينية بعد ذلك، ولكن ساعد هذا المبدأ في الدفع نحو البحث عن ذرائع جديدة.

هذا، وفي حين كانت فكرة "التدخل الإنساني" مطروحة لبعض الوقت، إلا أن المبدأ الأكثر تحديداً عن "مسؤولية الحماية" حديث جداً. ومع ذلك، يشترك المبدآن في المبررات المشابهة للتدخل العسكري الأجنبي، ودائماً يحدث ذلك من قبل القُوى الكبرى، ولكن عادةً تحت عنوان: مجموعة أوسع(*). ومن وجهة النظر الأمريكية، يرتبط "التدخل الإنساني" المعاصر بالممارسات السابقة، على سبيل المثال: ما قامت به الإمبراطورية البريطانية ضد العبيد (حسنا متناسين مع ذلك ما حدث في القرون السادس عشر، والسابع عشر والثامن عشر)، وكذلك المثاليّة المزعومة لتدخُّل الولايات المتحدة في الحرب الإسبانية الأمريكية (Bass 2009). ومن وجهة النظر هذه كان التدخل الإنساني يختلف عن الإمبريالية، لكنه لقي معارضة من قبل كل من "الواقعيين" و"اليساريين". يقتبس باس من جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill)، الليبرالي الإنكليزي الشهير، الذي كان معارضاً للسيادة المطلقة وكذلك للعبودية، ولكنه من دعاة التدخل الإنساني:

«لا يملك البرابرة حقوقاً كأمة، باستثناء الحق في مثل هذه المعاملة ... [و] لكي نُطوِّعهم ليصبحوا أمة واحدة... [ينبغي علينا] التوسط في النزاعات التي تنشب بين الدول الأجنبية، للإمساك بالحروب الأهلية العنيدة ... والتوسط من أجل المعالجة الدمثة للمهزومين ... [وإلغاء] تجارة الرقيق» (Mill 1867: 252-253).

وقد تُعَدُّ رؤية ميل نمطاً يسبق "الإمبريالية الليبرالية" التي تناولها كتّاب بريطانيون (Ferguson 2004; Cooper 2002)، لكنها مع ذلك مختلفة إلى حدٍ ما عن حجج كتّاب أمريكا الشمالية مثل إيجناتايف (Ignatieff) (2005) وآيكنبيري (Ikenberry) (2012)، اللذين يميلان إلى الالتزام بأفكار "استقرار الهيمنة". وفي هذه العقيدة الأمريكية الشمالية لا تستغل القوى الكبرى المهيمنة دورها المُسيطر، ولكن تنخرط عوضاً عن ذلك في سلوك نكران الذات لتوفير "السلع العامة" للجميع (Keohane 1986).

(*) مثلما رأينا في التحالف الدولي في حروب الناتو، حيث يُستخدم اسم التحالف للتغطية على التوجهات الخاصة لكل دول منضوية فيه فيما يخص العمل الذي يقوم به التحالف، (المترجمة).

وفي كل الأحوال، فـ"الإمبريالية الليبرالية" ليست مقبولة في عـالم مـا بعـد الحرب العالمية الثانية، والذي من المفترض أنه قد تم ترتيبه طبقاً لميثـاق الأمـم المتحدة وتوأمه ميثاق حقوق الإنسان. يبدأ ميثاق الأمم المتحـدة وتلـك العهـود بحق الدول والشعوب في تقرير المصير. وتستدعي وجهات النظر النقدية التفسير التـاريخي لـــ "التـدخل الإنــساني" والمتمثـل في" مـسؤولية الحمايـة ". يقـول تشومسكي (Chomsky) يجب أن تُفهم تلك المعايير من قبيـل أنهـا أجـزاء مـن العقيدة الإمبريالية. حيث كتب إن معظم العدوان العسكري كان يـتم تبريـره مـن خلال «الخطاب البليغ عن النوايا الإنسانية النبيلة» (Chomsky 2008: 48).

لقد صيغت فكرة "مسؤولية الحماية"، على أية حـال، في حقبـة الاعتـراف الواضح بتقرير المصير وسيادة الدولة، وفي الوقت نفسه، مـع الاتفاقيـات عـن جرائم الحرب، والجرائم ضـد الإنـسانية، وجريمـة الإبـادة الجماعيـة الـتي تم إقرارها حديثاً. وفي هذا السياق، وبعـد عمليـات القتـل الجمـاعي في كمبوديـا وروانـدا، روجت اللجنـة الدوليـة المعنيـة بالتـدخل وسـيادة الـدول في 2001، لفكرة" السيادة كمسؤولية"، مع التركيز على العنـف داخـل الـدول الـضعيفة أو الناشئة. حيث أعلنت قمة المؤتمر العالمي لعام 2005:

تقع مسؤولية حماية السكان من الإبادة الجماعية وجرائم الحـرب والـتطهير العرقي والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية على عاتق كل دولة على حـدة. وينبغـي للمجتمع الدولي، بحسب المقتضى، أن يـشجع ويـساعد الـدول ... [و] نحـن مستعدون للقيام بعمل جماعي ... من خلال مجلس الأمـن ... في حـال كانـت الوسائل السلمية غير كافية، وفشلت السلطات الوطنية بشكل واضـح في حمايـة سكانها» (UN 2005: 138-139).

اعتُمد مضمون هذا النص في قرار مجلس الأمن الدولي 1674، وهو العـام التالي(انظر أيضاً UNSC 2006; see also ICRtoP 2014): ويلاحظ إدوارد لاك (Edward Luck) (2009) أنه لا يوجد تناقض أساسي بـين هـذا المبـدأ وسـيادة الدولة، حيث إن الفكرة تستند إلى القـانون الإنـساني التقليـدي و"تعـزز سـيادة الدولة". ومع ذلك يقر بوجود مشكلة بين هذا المعنى ومعـنى أكثـر صـرامة مـن

السيادة، التي وصفها بأنها «سيادة وستفاليا»، ويقول: إنَّ القلق من أنَّه «يمكن استخدام أفكار "مسؤولية الحماية" من قبل الدول القوية ... لتبرير التدخلات القسرية المتخذة لأسباب أخرى هو أمر مفهوم بشكل واضح» (Luck 2009: 17).

ولئن كانت "مسؤولية الحماية" لا تغير من ميثاق الأمم المتحدة أو في الشرعة الدولية لحقوق الإنسان. فإنه فيها، مع ذلك، جذب اهتمام أكبر لصلاحيات التدخل تحت الفصل السابع لمجلس الأمن. ومع ذلك، فإن "مسؤولية الحماية" لم تغيّرْ من الحظر القانوني للتدخل العسكري، إلا في حالة الدفاع عن النفس أو لمنع أي اعتداء على السيادة التي يعدّها مجلس الأمن خرقاً "للأمن الجماعي". ويهدف كلا المُبَرِّرين للدفاع عن النظام الدولي، الذي بُني على سلامة الدول القومية.

ويستبين في التحليل النقديّ أنَّ السمة البارزة الأولى في عقيدة "مسؤولية الحماية" هي أنها توفر أساساً منطقياً جديداً لتدخل القوى الكبرى، بما فيها القوى الاستعمارية السابقة، من أجل "منع" جرائم كانت ترتكب سابقاً ـ وهذه هي المفارقة ـ من قبل تلك القوى نفسها. يقول رافائيل ليمكين (Rafael Lemkin) اليهودي البولندي، الذي كان أول من وضع مفهوم "الإبادة الجماعية"، إن ما حصل فعلاً في العموم أن الدول القوية جدًا هي التي تشارك في الحروب العدوانية، كما أنها تمارس التطهير العرقي والإبادة الجماعية التي فيما قال: «لم تكن نتيجة ظرفية لمزاج حاكم مارق في بعض الأحيان، بل كانت نمطاً متكرر الحدوث في التاريخ ... خطة منسقة من الإجراءات المختلفة التي تهدف إلى تدمير الأسس الجوهرية لحياة مجموعات قومية، بهدف إبادتها» (Frieze 2013: 138; Lemkin 1944: 79). وكان الضحايا من السكان الموجودين في تلك المناطق المتنازع عليها والمحتلة؛ أما الجناة فهم: العثمانيون واليابانيون والمغول والإمبراطوريات الإسبانية (Frieze 2013: 80, 138, 168, 184). يتفق بلوكسهام (Bloxham)، الذي كتب أيضاً عن الإبادة الجماعية للأرمن، مع ليمكين أن الإبادة الجماعية يجب أن تفهم على أنها نتيجة سيرورات تاريخية

و«علاقـات منظمـة»، بـدلاً مـن «نوايـا شـريرة مـن الرجـال الأشـرار» (Bloxham 2003: 89). وكانت هذه جريمة كبرى وواحدة من النتائج المروعة لكنها منطقية لمشاريع الهيمنة، مدفوعة من قبل الإمبراطوريات. وبأخذ هذا التاريخ في الاعتبار نرى أنه كان تبجحاً من القوى الكبرى للوصول إلى استخدام "جرائم كبيرة وشيكة"، بما في ذلك الإبادة الجماعية المتوقعة، كذريعة للتدخل. لا يوجد كيان ارتكب جرائم كبيرة على نطاق ما قامت به الإمبراطوريات، والتي كانت تدخلية بطبيعتها.

وكونهم مدركين لتركة الاستعمار والعبودية والإبادة الجماعية، فإن قادة مجموعة دول عدم الانحياز، وكلها تقريبا مستعمرات سابقة، قد دافعوا بقوة عن مبدأ عدم التدخل (Lage 2006). حيث رفضت معظم هذه الدول ومنذ بداية الصراع السوري فكرة تدخل القوى الكبرى لأسباب إنسانية، آخذة بالحسبان أنَّ "مسؤولية الحماية" "حصان طروادة" الذي وضع للمساعدة في إحداث «تغييرالنظام» (Mendiluza 2014).

وهناك سمة بارزة أخرى من "مسؤولية الحماية" وهي أن القوة الدافعة تميل إلى أن تكون من الجانب الليبرالي من السياسة الغربية. هذا واضح من الانقسامات التي ظهرت بين الدول الكبرى بشأن غزو العراق عام 2003، ولكنه يتفق مع الحجة التي ساقها باس (2009) وهي أن "التدخل الإنساني" له جذوره في الليبرالية، كنقيض "للجانب الواقعي" من الثقافة المهيمنة. وقد شرحتُ في الفصل السابع كيف قال مدير هيومن رايتس ووتش السابق هولي بوركهالتر، نيابة عن وزارة الخارجية الأمريكية، من أجل دور واسع جداً لتدخل واشنطن العسكري، افتُرضَ لمنع وقوع جرائم كبيرة. وكان الجيش الأمريكي أكثر حذراً، مشدداً على ضرورة وجود صلات وثيقة لذلك التدخل بمصالح الولايات المتحدة (CFR 2000).

تأسس التدخل عام 2011، في ليبيا بشكل كبير على مبادئ "مسؤولية الحماية"، ولكن قوات حلف الناتو ذهبت على الفور أبعد من قرار مجلس الأمن في "الحظر الجوي" (انظر RT 2011). وكانت القوتان الجوية والبرية

للناتو حاسمتين في تـدمير حكومـة الـزعيم الـليبي معمـر القـذافي وفي تفكيـك الدولـــة الليبيـــة. يـــشير عـــضو الكـــونغرس الـــسابق ســـينثيا مـــاكيني (Cynthia McKinney) (2012:12-13) إلى أن العـــراق وليبيـــا وســـورية، كانت «أنظمة موالية للسوفييت" وأن مسؤولي البنتاغون في وقت مبكر من التسعينات أرادوا "تخليصها". وزيدت فعالية تلك الخطط مع غزو أفغانستان والعراق. كانت الذريعة للتدخل في ليبيا هي المذابح المرتكبة بحق المدنيين، في أعقاب تمرد يستخدم أسلوب تنظيم القاعدة في شرق ليبيا. ادعى غراهام كرونغ (Graham Cronogue) (2012)، أحد الداعمين الرئيسين لمبدأ "التدخل الإنساني"، نقلا عن صحيفة الجارديان البريطانية، أن «مئات المدنيين قتلوا في احتجاجات». ودعمت منظمة العفو الدولية (2011: 8) ادعاءات «القتل والاختفاء والتعذيب».

وقد كانت غالبية تلك التقارير، مشوبة بتضارب المصالح. حيث إن المصدر الرئيس للمعلومات عن الانتهاكات المفترضة التي قامت بها الحكومة الليبية، كان سليمان بوشقير (Sliman Bouchuiguir)، الذي استقى ادعاءاته مباشرة من القوى السياسية المعارضة (Nazemroaya 2012: 132-134). وقد اعترف فيما بعد أنه لم يكن هناك أي وسيلة للتحقق من البيانات التي قدمت عن القتل (Teil 2011). وبعد مقتل القذافي والإطاحة بحكومته، اعترفت رئيسة منظمة العفو في فرنسا جينيفيف غارغيغوس أن الادعاءات بأن القذافي كان يستخدم «مرتزقة أفارقة» لذبح الليبيين كانت «مجرد شائعات انتشرت في وسائل الإعلام» (Truth Syria 2012).كما أن مدير منظمة العفو (في الولايات المتحدة الأمريكية)، سوزان نوسل (Suzanne Nossel)، تم تعيينها مباشرة من منصبها في وزارة الخارجية الأمريكية، حيث كانت قد عملت على سياسة الولايات المتحدة ضد روسيا، إيران، ليبيا، وسورية (Teil 2012: 146; Wright and Rowley 2012; Cartalucci 2012). وكانت دولة قطر ساعدت على إمداد الليبيين الإسلامويين بالأسلحة وكذلك الدعاية، من خلال شبكة وسائل الإعلام الخاصة بها، مثل: الجزيرة (Fitrakis in McKinney 2012: 22). كما مولت حكومة الولايات المتحدة،

من خلال الصندوق الوطني للديمقراطية، عدة منظمات غير حكومية في ليبيا، ما أسهم أيضاً في حملة للتدخل "الإنساني" (Nazemroaya 2012: 147). كان تضارب المصالح في النقاش عن "مسؤولية الحماية" فيما يخص ليبيا مستفحلاً. ووفقاً لتقديرات حول الخسائر في الأرواح، بالاعتماد على مصادر من أمريكا الشمالية، إنَّ ما يقرب من عشرة أضعاف قضوا بعد تدخل حلف الناتو عما كان عليه عدد الضحايا قبل التدخل. وبعد أربع سنوات على ذلك التدخل تبقى ليبيا في حالة كارثية (Kuperman 2015).

وقد أعرب عدد كبير من الأكاديميين عن عدم الرضا عن تطبيق "مسؤولية الحماية" كنموذج في ليبيا. يقول دان وجيلبر: إنَّ الحجج الليبية قوضت فكرة معيار لـ"مسؤولية الحماية"، ومع تحول الناتو من "الحظر الجوي" لتغيير النظام "يخون' ثقة الأمم المتحدة وتظهر الطبيعة التحزبية في التدخل (Dunne and Gelber 2014: 327-328). يتفق براون مع ذلك، قائلاً: إنَّ التدخل في ليبيا يظهر أن "الطبيعة اللا سياسية" المعروضة لـ "مسؤولية الحماية" هي ضعف وليس قوة ... لأن الافتراض القائل: إن السياسة يمكن استبعادها من المشهد هو ترويج لوهم، وبالتالي دعوة لخيبة الأمل» (Brown 2013: 424-425). فحتى في الأوساط الغربية فقد المبدأ لمعانه الفكري بعد التدخل في ليبيا.

يمكن للسجل التاريخي أن يساعدنا على وضع هذا النقد، جنباً إلى جنب مع الاعتراف "بمسؤولية الحماية" بوصفها "المعيار المباح" (Steele and Heinze 2014: 88, 109). يجب التحقيق في كل من التدخل الإنساني وحجج "مسؤولية الحماية" من خلال مبادئ راسخة تتجنب تضارب المصالح، وتهتم بالأدلة التفصيلية الكافية والمستقلة نسبياً عن المسألة موضع النقاش. علاوة على ذلك، فإن هذه الحجج قد تصبح مستنيرة أكثر بسبب تاريخ طويل من التدخلات الإمبريالية. وهذا ينطبق على جميع هذه الصراعات، بما في ذلك الادعاءات المتحزبة عن المذابح التي حدثت في سورية. (وقد تم توثيق هذه الافتراءات والمجازر في هذا الكتاب في الفصلين السابع والثامن). هذا إلى أنَّه دون هذا

الفحص المبدئي، سيقع النقاش بسهولة رهينة لذرائع كاذبة من "لعبة مزدوجة"، وهو تكتيك تاريخي للقوى العظمى.

كان هناك تغير في التسويغ الرئيس للتدخل الغربي في سورية في عام 2014. حيث تحول من تدخل يقوم على "مسؤولية الحماية" إلى آخر يقوم على "التدخل الوقائي"، باسم قمع الإرهاب على الصعيد العالمي. وقد ضربت هذه الذريعة عرض الحائط بالقانون الدولي، مبدية الاستهتار بحقوق الشعوب والأمم الأخرى. وشملت هذه الحجة الجديدة في سورية الادعاء الغريب أنَّ واشنطن تقوم بتسليح مجموعة من الإسلامويين حتى يتمكنوا من قتال مجموعة أخرى أكثر تطرفاً.

بيد أنَّ مبدأ التدخل الإنساني ومبدأ "مسؤولية الحماية" يحملان في طياتهما مخاطر كبيرة لمفاقمة الجرائم الخطيرة، كما أظهرت المجازر "المدبرة" في سورية. وعندما تدعم القوى الخارجية ميليشيات تعمل بالوكالة ضد الدولة الوطنية، يمكن أن يشجع ذلك تلك المليشيات على القيام بأسوأ الفظائع، مع الإفلات من العقوبة، أو أن تستغل مجموعة من جرائمها ووقائعها، ملقية باللوم فيها على "النظام" الهدف، أملاً في استجلاب دعم عسكري أكبر من مموليهم. وهذا الإكثار من العنف المتفاقم يبرر الإصرار واسع الانتشار على احترام مبدأ عدم التدخل.

المراجع:

- Bass, Gary J. (2008) Freedom's Battle: the origins of humanitarian intervention, Vintage Books, New York

- Bloxham, Donald (2003) 'The Armenian Genocide of 1915-1916: cumulative radicalization and the development of a destruction policy', Past and Present, No 181, November, 189

- Brown, Chris (2013) The Anti-Political theory of Responsibility to Protect', Global Responsibility to Protect, Vol 5, Issue 4, 423-442

- Cartalucci, Tony (2012) 'Amnesty International is US State Department propaganda', Global research, 22 August, online: http://www.globalresearch.ca/amnesty-international-is-us-state-department-propaganda/32444

- CFR (2000) Humanitarian Intervention: crafting a workable doctrine, A Council Policy Initiative, Council on Foreign Relations, Washington

- Chomsky, Noam (2008) 'Humanitarian Imperialism: The New Doctrine of Imperial Right', Monthly Review, Vol 60, No 4, September, online: http://monthlyreview.org/2008/09/01/humanitarian-imperialism-the-new-doctrine-of-imperial-right/

- Cooper, Robert (2002) 'The new liberal imperialism', The Guardian, 7 April, online: http://www.theguardian.com/world/2002/apr/07/1

- Cronogue, Graham (2012) 'Responsibility to Protect: Syria, the Law, Politics and Future of Humanitarian Intervention Post-Libya', Journal of International Humanitarian Legal Studies, Volume 3 issue 1, 124-159

- Dreier, John (1963) 'The Organization of American States and United States Policy', International Organization 17, no. 1, 40–41.

- Dunne, Tim and Katherine Gelber (2014) 'Arguing Matters: The responsibility to protect and the Case of Libya', Global Responsibility to Protect, 6, 326-349

- Ferguson, (2004) Colossus: The Rise and Fall of the American Empire, Penguin, London

- Frieze, Donna-Lee (Ed) (2013) Totally Unofficial: the autobiography of Raphael Lemkin, Yale University Press, New Haven

- ICRtoP (2014) International Coalition for the Responsibility to Protect, World Federalist Movement, New York, online: http://www.responsibilitytoprotect.org/

- Ignatieff, Michael (2005) American Exceptionalism and Human Rights, Princeton University Press, New Jersey

- Ikenberry, G. John (2012) Liberal Leviathan: The Origins, Crisis, and Transformation of the American World Order, Princeton University Press, New Jersey

- Keohane, Robert O. (1986) Neorealism and Its Critics, Colombia University, New York

- Köchler, Hans (Ed) (1982) Principles of Non-alignment: The Non-aligned Countries in the Eighties - Results and Perspectives, Third World Centre, London

- Kramer, Ronald C. and Raymond J. Michalowski (2005) 'War, Aggression and State Crime: A Criminological Analysis of the Invasion and Occupation of Iraq', British Journal of Criminology, July, 45:4, 446-469

- Kuperman, Alan J. (2015) 'Obama's Libya Debacle', Foreign Affairs, March-April, online: https://www.foreignaffairs.com/articles/libya/2015-02-16/obamas-libya-debacle

- Lage, Carlos (2006) 'Discurso del Vicepresidente del Consejo de Estado de la República de

- Cuba Carlos Lage Dávila, en la Inauguración de la Reunión de Cancilleres del Movimiento de Países No Alineados, Granma, 18 September, online: http://www.granma.cu/granmad/secciones/noal-14/noti-noal/n060.html

- Lemkin, Raphael (1944) Axis Rule in Occupied Europe, Carnegie Endowment for International Peace, Division of International Law, Washington

- Loiselle, Marie-Eve (2013) 'The Normative Status of the Responsibility to Protect After Libya', Global Responsibility to Protect, Vol 5, Issue 3, 317-341

- Luck, Edward C. (2009) ‘Sovereignty, Choice, and the Responsibility to Protect’, Global Responsibility to Protect 1, pp. 10–21

- McKinney, Cynthia (2012) The Illegal war on Libya, Clarity Press, Atlanta GA

- Mendiluza, Waldo (2014) ‘Debate sobre Siria en ONU, el tema humanitario como Caballo de Troya’, Avanzada, 16 February, online: http://avanzada.reduc.edu.cu/index.php/especial-siria/7088-debate-sobre-siria-en-onu-el-tema-humanitario-como-caballo-de-troya

- Mill, John Stuart (1874) ‘On the Treatment of Barbarous Nations’, in Dissertations and Discussions: Political, Philosophical, and Historical, Vol 3, Longmans, Green, Reader and Dyer, London

- Nazemroaya, Mahdi Daerius (2012) ‘The Big Lie and Libya’, in Cynthia McKinney (2012) The Illegal war on Libya, Clarity Press, Atlanta GA, 127-139

- RT (2011) ‘Russia accuses NATO of going beyond UN resolution on Libya’, April 17, online: http://rt.com/news/russia-nato-un-resolution-libya/

- Steele, Brent J, and Eric A. Heinze (2014) ‘Norms of Intervention, R2P and Libya’, Global Responsibility to Protect, Vol 6, 88-112

- Teil, Julian (2011) ‘Lies behind the "Humanitarian War" in Libya: There is no evidence! (Part 1), NATO Crimes In Libya’, YouTube, Interview with Soliman Bouchuiguir, October 15, online: https://www.youtube.com/watch?v=j4evwAMIh4Y

- Truth Syria (2012) ‘The Gaddafi Mercenaries and the Division of Africa’, YouTube, Interview with Genevieve Garrigos (Amnesty International France), 4 February, online: https://www.youtube.com/watch?v=1WFknaEKdOM

- UN (2005) 2005 World Summit Outcome, 60/1, 24 October, online: http://www.un.org/womenwatch/ods/A-RES-60-1-E.pdf

- UNSC (2006) Resolution 1674, online: http://www.securitycouncilreport.org/atf/cf/%7B65BFCF9B-6D27-4E9C-8CD3-CF6E4FF96FF9%7D/Civilians%20SRES1674.pdf

- Wright, Ann and Coleen Rowley (2012) ‘Amnesty’s Shilling for US Wars’, Consortium News, June 18, online: https://consortiumnews.com/2012/06/18/amnestys-shilling-for-us-wars/

الصحة والعقوبات الاقتصادية



مستشفى الكندي (حلب) في أثناء تعرضه للتدمير بشاحنتين مفخختين، كانون الأول/ديسمبر **2013**. نفذّت العملية النصرة (لاحظْ الشعار في الأعلى من اليمين) وشركاؤها في 'الجيش السوري الحر'. ثم حاولت بعد ذلك منظمة "أطباء من أجل حقوق الإنسان"، المرتبطة بالإسلامويين، إلقاء اللوم على الحكومة السورية فيما يخص هذا الدمار.

مصدر الصورة: النصرة

لقد دمّرت الحرب في سورية النظام الصحي، وقوضت العقوباتُ الاقتصاديّةُ الغربيّةُ من قدرته، وباتت المسؤولية، فيما يتصل بذلك، مثار جدل، كما هو الحال فيما يخص أي جانب آخر من الصراع.

ذكر وزير الصحة السوري السابق د. سعد النايف لوفد التضامن الأسترالي، الذي زار سورية في كانون الثاني/ديسمبر 2013، وكنت أحد أفراده، أن الإرهابيين المدعومين من الخارج فجّروا مؤخراً شاحنتين مفخختين داخل مستشفى الكندي في حلب، ما أسفر عن تدمير المستشفى بالكامل، ومقتل

جميع العاملين في القطاع الصحي في داخله. كما أطلعنا على فيديو لـ "لواء الفاروق"، التابع "للجيش السوري الحر"، يُظهر الهجوم على مستشفى حمص الوطني في 6 نيسان/أبريل 2012، وفيديو آخر عن الأضرار التي لحقت بالمستشفى الوطني في سلمية (حماة)، بعد الهجوم الذي وقع في 21 كانون الثاني/يناير2013، وفيديو ثالث عن الأضرار التي لحقت بمستشفى الزهراوي (دمشق)، بعد هجوم إرهابي آخر في 5 أيار/مايو 2013. وأيضاً زوّدنا بتفاصيل عن الهجوم الذي وقع في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 2013 على مستشفى دير عطية في ريف دمشق، حيث تعرّض أحد عشر شخصاً من الطاقم الطبي الذي يتألف من: (طبيبي تخدير، ثلاثة من الأطباء المقيمين، أربع ممرضات، وسائقين) للطعن حتى الموت.

كما أخبرنا د. النايف أيضاً أنه، منذ بداية الأزمة في آذار/مارس 2011 فإنَّ سبعة وستين من أصل أربعة وتسعين مستشفى من المستشفيات الوطنية في البلاد تعرضوا للهجوم والتدمير، وأنَّ واحداً وأربعين منها أصبح خارج الخدمة. كما قُتل مئة وأربعة وسبعون عاملاً من العاملين في القطاع الصحي، وأُصيب مئة وسبعة وعشرون عاملاً، و خُطف ثلاثة وثلاثون آخرون. بالإضافة إلى ذلك، فقد تضرر ألف وتسعمئةٍ وواحدُ وعشرون مركزاً أساسياً للرعاية الصحية، وبات ستمئة وثمانية وسبعون منها خارج الخدمة. كما فُقدَ أربعمئة وإحدى وعشرون سيارة إسعاف، أو أصبحت خارج الخدمة، وتضررت مئة وسبع وتسعون مركبة من مركبات الدعم، وأصبحت مئة وتسع وستون منها خارج الخدمة (al Nayef 2013). يشير هذا الحجم من الدمار إلى أن الجماعات المسلّحة، المدعومة من الغرب، كانت عازمة على تدمير دولة فاعلة، مُبديةً القليل من الاهتمام بمحاولة كسب تأييد الرأي العام.

ومع ذلك، فإذا ما قرأنا القصص التي مصدرها أولئك الذين يدعمون الجماعات المسلّحة، فقد يتصوّر المرء أن الحكومة السورية قد قامت بتدميرٍ ممنهجٍ لنظام الرعاية الصحية لديها. فبعد أقل من أسبوعين من لقائنا مع وزير الصحة، نشرت مجلة التايم (Time) روايةً عن الأزمة الصحية في سورية، حيث

سلطت الضوء على ضربة جوية مزعومة نفذها سلاح الجو السوري على مستشفى دار الشفاء (حلب)، قبل أكثر من عام، وكذلك تطرقت للأطباء السوريين الذي ضعفت معنوياتهم وأُحبطوا جرّاء ما يجري، ويغادرون البلاد (Baker 2014). بعد ذلك، أصدرت لجنة تابعة للأمم المتحدة تقريراً عن سورية في تشرين الأول/أكتوبر 2013 متهمةً كلا الطرفين، الحكومة والمعارضة، بمهاجمة المستشفيات، ومحملةً الحكومة السورية المسؤولية لقيامها بـ«بالحرمان التمييزي من الحق في الحصول على الرعاية الصحية كسلاح في الحرب» (OHCHR 2013)، حيث كانوا يشيرون بذلك إلى الهجمات على العيادات شبه العسكرية والمراكز الصحية، التي استولت عليها الجماعات المسلّحة.

لقد قصفت القوات المسلحة السورية بالتأكيد بعضَ المستشفيات، مثل مستشفى الهدى في شرق حلب (OHCHR 2013)، لكن بعد أن استولت عليه واحتلّته الجماعات المسلّحة. فليس هناك من شك في أن الحكومة السورية لن تسمحَ للجماعات الإرهابية بأن تُديرَ المستشفيات داخل سورية. لكنّ هناك شكاً كبيراً فيما إذا كان هذا التصرف، الذي قامت به الحكومة السورية، يرقى لأن يمثّل انتهاكاً للقانون الإنساني. إذ يمكن للحكومة السورية أن تقول إن الجرحى، من أفراد الجماعات المسلّحة، يمكن علاجهم في المستشفيات التي تُديرها الحكومة. وبالتالي فهذا ليس حرماناً من الحق في الحصول على الرعاية الصحية. لكن لجنة الأمم المتحدة تشير إلى جماعات المعارضة، عوضاً عن الإشارة للجماعات المسلّحة، مما يتسبب بالخلط في هذه المسألة.

يوجد في القانون الدولي الإنساني ثغرات في هذا المجال، فالقانون الأمريكي يذهب أبعد مما تقوم به سورية، حيث يمنع تقديم "الدواء" للمنظمات الإرهابية (Modirzadeh and Blum , Lewis 2015). فمن الصعب أن نتصوّر أن أي دولة في العالم ستسمح للجماعات المسلحة المناهضة للحكومة بالاستيلاء على المستشفيات العامة وتشغيلها. إذ تبدو المستشفيات في بعض الأحيان وكأنها باتت جبهة من جبهات الحرب. حيث تُفيد تقارير الأمم المتحدة في هذا الصدد عن أن مقاتلي "الفاروق":

هاجموا المستشفى الوطني في جورة الشياح [حمص] ... [و] بعد أيام من المقاومة من قبل القوات الحكومية، استولى "لواء الفاروق" على المستشفى، دون أن يتخذ أية احتياطات لتجنب سقوط ضحايا من المدنيين أو لحماية المرضى والجرحى خلال الهجوم. ثم ردت القوات الحكومية بالقصف الجوي، الذي دمّر إلى حدٍ كبير المستشفى في 17 نيسان/أبريل نيسان (OHCHR 2013:4). ومع ذلك، ففي كثيرٍ من الأحيان، تقوم وكالات الأمم المتحدة بنقل رواياتها عمّا يحدث بالاعتماد على مصادر مرتبطة بالغرب، ومناهضة للحكومة السورية.

لقد صوّرت الجماعات المسلّحة عملياتِ تدميرها للمستشفيات، مشتكيةً تارة من أنهم كانوا يعالجون الجنود الحكوميين، وتارة أخرى بالقول إن الجنود أسروهم. ويمكننا أن نشير في هذا الصدد لما قام به أفرادٌ في "لواء الفاروق"، حيث كانوا يحتفلون مرددين هتاف "الله أكبر"، بينما كانوا يقومون بتفجير المستشفى العام في القصير في 2012 (0xTRX007 2012). إذ قالوا حينها: «فجّر "الفاروق" المستشفى الوطني، الذي كان يُستخدم لخدمة المواطنين، لأنه بات يُستخدم الآن من قبل قوات الأسد» (Telegraph 2012). ثم قامت مجموعة أخرى من 'الجيش السوري الحر'، في منتصف عام 2013، ودون سابق إنذار، بمهاجمة المستشفى الوطني في درعا، وذكر حينها أحد المتمردين أنَّ جماعته تعتقد أن «هناك نحو خمسين مريضاً في المستشفى، وأن جميعهم من المرتبطين بالحكومة»(OHCHR 2013:4).

أمّا فيما يخص التقارير عن الهجوم على مستشفى الكندي (حلب)، فقد نُقلت بطرقٍ مختلفة. إذ استخدمت البي بي سي العنوان التالي: "متمردو سورية يستعيدون السيطرة على المستشفى الاستراتيجي في حلب"، وجاء في مقدمتهم عن الخبر إن «انفجاراً ضخماً بشاحنة مفخخة يقودها انتحاري» ساعد في «استعادة السيطرة على المستشفى الاستراتيجي المدمّر الذي كان يحتله موالو الأسد» (BBC 2013). لكن القيام بتفجير البناء بأكمله يبدو طريقة غريبة «لاستعادة السيطرة على مستشفى». يقال إن مستشفى الكندي كان «مبنىً غير

موضوع في الخدمة» و«وفقا لتقرير غير مؤكد، فقد قُتل خمسة وثلاثـون متمـرداً في الهجوم» (BBC 2013).

لكن هناك حاجة للترجمة فيما يخص هذه الرواية. فهؤلاء المتمردون هم في معظمهم إرهابيون غير سوريين، من وكلاء تنظيم القاعدة في سورية، " النصرة"، وحلفائهم في 'الجيش السوري الحر'. وكان "الموالون للأسد"، في واقع الحال، موظفي ذلـك المستـشفى الكـبير، بالإضـافة لحـراس المستـشفى مـن الجـيش السوري. ووفقاً للدكتور مالك علي(*)، وزير التعليم العالي الأسبق في سـورية، فإن مستشفى الكندي مستـشفى تعليمـي موضـوع في الخدمـة، تـشارك وزارتـه بإدارته (Anderson 2013).

بيدَ أن جماعة أطباء من أجل حقوق الإنسان «اتهمت قوات الحكومة بـ90٪ من الهجمات البالغ عددها مئة وخمـسين علـى المستـشفيات» (PHR 2014)، لكن، من حيث أنهم يُضمِّنون مستشفى الكندي في هذه النسبة، فـإنّ صـدقيتهم ضـعيفة جـداً بـشكل عـام. فهنـاك عـدد مـن أشـرطة الفيـديو علـى الإنترنـت للإسلامويين تُظهر تدمير مستشفى الكنـدي. ويقـال: إن أربعمئـة مـن المقـاتلين المناهضين للحكومة لقوا حتفهم في الصراع من أجـل الـسيطرة علـى مستـشفى الكندي، ولكن في النهاية دمّر الإسلامويون المستشفى ثم ألقـوا بـاللوم، زوراً، على الحكومة، قائلين إن: «النظام هو المسؤول عن تدمير المستشفى لأنه حوّلـه إلى قاعدة عسكرية» (Dayoub 2013).

لقد كان لهذا الصراع تأثير كبير في إنتـاج الـدواء محليـاً في سـورية. فقبـل الأزمة كانت سورية تحقق ما نسبته 90٪ من الاكتفاء الذاتي في المواد الدوائيـة، مع صناعة معظمها تأتي من القطاع الخاص، تُشغّل حوالي ثلاثين ألـف عامـلٍ، وكانت البلاد مصدراً كبيراً للأدوية. ولكنه، وبحلول عام 2013، تقلّصت القدرة الإنتاجية بشكل كبير وأُغلقت ثلاثة أرباع المصانع، وكان عشرون مصنعاً منها في حلب وحدها، بسبب الضرر الفعلي الذي لحق بهـا، أو الخـوف مـن القـصف أو«السرقة أوالنهب ... [من] قبل العصابات المسلحة»(Hamada 2013).

(*) د. مالك علي كان وزيراً للتعليم العالي في عام 2013، (المترجمة).

بالإضافة لذلك، فقد أضرّت العقوبات الاقتصادية والتجارية الـتي فرضـتها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بالنظام الصحي في سورية وقطّـاع الـصحة العامة فيها. حيث تفرض الولايات المتحدة عقوباتٍ هـي الأشمـل ضـد سـورية (OFAC 2013). بدأت العقوبـات الأخـيرة في عـام 2004 عنـدما قـررت إدارة بوش أنَّ سورية «تقوض جهود الولايات المتحدة، والجهود الدولية، في السعي لتحقيق الاستقرار في العراق». ثم أصدرت إدارة أوباما في عـام 2011 أوامرهـا التنفيذية «رداً على اسـتمرار العنـف وانتـهاكات حقـوق الإنـسان الـتي تقـع في سورية». حيث حظّر مرسومٌ، صدر في آب/أغسطس 2011، علـى الأشـخاص الأمريكيين (وهذا يشمل الشركات التي تمتلك فيها الولايات المتحدة أو رعاياها 10٪ أو أكثر من الأسهم) من أي «استثمار جديد»، أو «بيع أية خدمات لسورية» أو استيراد المنتجات النفطية السورية أو «أية صفقة» أو تمويـل مـرتبط بـسورية. لكـن واشـنطن سمحـت، بعـد هـذا الحظـر الـشامل، بـبعض الاسـتثناءات و"التراخيص العامة" (FAC 2013). وعلـى مـا يبـدو فـإن الحكـم الأخـير، أي الاستثناءات، يشمل تقديم الإمدادات إلى "المتمردين المسلحين الطائفيين".

لقد ازداد تأثير العقوبات الأمريكية من خلال عقوبـات الاتحـاد الأوروبي، التي صدرت في وثيقة أطول (EU 2015) تتضمن تدابيرَ ضـد أكثـر مـن ثلاثـين بلداً. انتهج الاتحاد الأوروبي بشكلٍ عام نهجاً أكثر انتقائية [من الولايات المتحدة]بقليل، ووضع قوائم بالمنتجات والخدمات المحظورة، بدلاً من فـرض حظـر شامل. حيث يفرض حظراً على الأسلحة والمعـدات والاتـصالات، وصـناعات النفط والغاز، والمال السوري، والذهب والماس والمعادن الثمينة، وهناك حظر في مجـال التمويـل والقـروض والتـأمين، وحظـر علـى إمكانيـة الوصـول إلى المطارات على «رحلات معينة» وضد «بعض الأشخاص»، كما تم تجميد أصول «أشخاص و كيانات وهيئات معينة» (EU2015). تبدو عقوبات الاتحاد الأوروبي معقّدة بالنظر لحقيقة أن العديد من الدول الأعضاء فيه لـديها التـدابير المختلفـة الخاصة بها. ولكن هناك على ما يبدو "ثغرات" تسمح لبعض "المساعدات". أمـا العقوبات الأسترالية فهي أقرب إلى تلك الـتي يفرضـها الاتحـاد الأوروبي، مـع قائمة من السلع المتداولة مشمولة بالعقوبات (DFAT 2015).

لقد توضّحت تأثيرات العقوبات في قطاع الصحة في سورية في ورقة أكاديمية صدرت عام 2012، حددت الورقة هذا التأثير في سياق المقارنة مع بعض الإنجازات الهامة في قطاع الصحة السوري، قبل الأزمة. فقد كانت سورية تتمتع بمكاسب مثيرة للإعجاب في مجال الصحة العامة منذ عام 1970 فصاعداً، ولاسيّما بالنظر إلى المستوى المنخفض من الدخل نسبياً فيها. وقد تم تطوير نظام متكامل جيد، وعام في معظمه، وأفضى ذلك لنتائج هامّة. فبين عامي 1970 و2010 انخفض معدل وفيات الرضّع من 132ـ 14 (بالألف)، ووفيات الأمهات من 482ـ 45 (لكل مئة ألف) (al Faisal and Al Saleh ,Sen 2012:2). لكن العقوبات الاقتصادية أدت إلى تراجع قيمة الليرة السورية، وأيضاً إلى رفع أسعار المواد الغذائية الأساسية وكذلك الوقود. حيث تشير الدراسة إلى ثلاثة طرق أثّرت بها العقوبات على الصحة في سورية.

فأولاً، إن العديد من المواد الأساسية، مثل: الحليب والغاز والأرز والطماطم (البندورة)، تضاعفت أسعارها ثلاث مرات في خلال السنة الأولى من العقوبات، مع تراجع الدخل، ما جعل من الصعب الحصول على هذه المواد، وقد كان لهذا العجز الغذائي تأثيرٌ كبير، خاصة على الأمهات والرضع. **ثانياً**، لقد ارتفعت تكلفة أدوية الأمراض غير المعدية. ومنعت العقوبات دخول الإمدادات الطبية الأساسية إلى البلاد، بما في ذلك تلك المتعلقة بأمراض السرطان والسكري وأمراض القلب. حيث اضطرّ الكثيرون لمغادرة البلاد، سعياً وراء تلقي علاج عاجل. **ثالثاً**، إن انقطاع إمدادات الطاقة الكهربائية في جميع المجالات تقريباً (والذي تفاقم في كثير من الأحيان بسبب هجمات الجماعات المسلّحة على خطوط الكهرباء ومحطات الطاقة) يهدد حياة الناس المستضعفين في الشتاء والصيف القاسيين، حيث هناك حاجة ماسة للتدفئة والتبريد (al Faisal and Al Saleh , Sen 2012:3-4).

لكن، رغم هذه التحديّات الهائلة، لا تزال الخدمات الصحية في سورية، في معظمها، مجانية، مع عشرات الملايين من الاستشارات التي تُقدم بشكل مجاني في كل عام. وتعمل منظمة الصحة العالمية جاهدة مع الحكومة السورية،

والهلال الأحمر العربي السوري الذي تديره الحكومة، ومحافظي المدن، للمساعدة في الحفاظ على الخدمات. فعلى سبيل المثال، التقى محافظ درعا محمد خالد الهنوس في أواخر تشرين الأول/أكتوبر 2015 مع ممثل منظمة الصحة العالمية إليزابيث هوف (Elizabeth Hoff)، للتخطيط لبرامج دعم في مجال الصحة في تلك المحافظة التي مزقتها الحرب (SANA 2015a).

كما قدّمت كوبا ـ وهي شريك دولي لسورية، يتمتع بإمكانات كبيرة في مجال الصحة والأدوية ـ دعماً من خلال المساعدة في إعادة بناء الخدمات الصحية والقطاعات الصيدلانية والبيولوجية. ففي عام 2014 قدّم وزير الصحة السوري قائمة بالمستلزمات المطلوبة لكوبا، وقامت كوبا، هذا البلد الكاريبي، بالفعل، بتقديم مستلزمات مثل أجهزة غسيل الكلى ومجموعة من الأدوية (Ismael 2014). كما بدأت الصين أيضاً بتوفير الأدوية والمعدات الصحية للحكومة السورية (SANA 2015b).

إن بعض الدول التي تفرض العقوبات على سورية دون وجه حق تسمح ببرامج مساعدات انتقائية، غالباً ما تذهب إلى المناطق التي تقع تحت سيطرة الإسلامويين في البلاد. وعلينا أن نتذكر في هذا الصدد الضرر الكبير الذي وقع على الشعب العراقي في تسعينات القرن الماضي، عندما تضاعف معدّل وفيات الأطفال بسبب العقوبات (Alwan 2004:22). ولذا يجب أن تُرفع هذه التدابير القاسية [عن الشعب السوري] على الفور.

المراجع:

- Alwan, Ala'din (2004) 'Health in Iraq: the current situation, our vision for the future and areas of work', Ministry of Health, Baghdad, December, online: http://www.who.int/hac/crises/irq/background/Iraq_Health_in_Iraq_second_edition.pdf.

- Anderson, Tim (2013) 'Syria's hospitals targeted by NATO-backed armed groups', Oriental Review, 26 December, online: http://orientalreview.org/2013/12/26/syrias-hospitals-targeted-by-nato-backed-armed-groups/

- Baker, Aryn (2014) 'Syria's Health Crisis Spirals As Doctors Flee', Time, 4 February, online: http://time.com/3968/syrias-health-crisis-spirals-as-doctors-flee/

- BBC (2013) 'Syria rebels take back strategic hospital in Aleppo', 21 December, online: http://www.bbc.com/news/world-middle-east-25479725

- Dayoub, Bassel (2013) 'Suicide Bombing Leaves Historic Aleppo Hospital in Ruins', Al Akhbar, 24 December, online: http://english.al-akhbar.com/node/18016

- DFAT (2015) 'Sanctions Regimes: Syria', Department of Foreign Affairs and Trade, online: http://dfat.gov.au/international-relations/security/sanctions/sanctions-regimes/pages/syria.aspx

- EU (2015) 'Restrictive measures (sanctions) in force', European Union, updated to 30.09.2015, online: http://eeas.europa.eu/cfsp/sanctions/docs/measures_en.pdf

- Hamada, Abdullah (2013) 'The Syrian Crisis: repercussions of the pharmaceutical industry', Syrian Economic Forum, online: http://www.syrianef.org/En/the-syrian-crisis-repercussions-for-the-pharmaceutical-industry/

- Ismael, M. (2014) 'Syria, Cuba discuss health cooperation, Health Ministry receives 100 dialysis devices', SANA, 2 July, online: http://sana.sy/en/?p=5215

- Lewis, Dustin; Naz Modirzadeh, Gabriella Blum (2015) 'Medical Care in Armed Conflict: IHL and State Responses to

Terrorism', Lawfare, 8 September, online: https://www.lawfareblog.com/medical-care-armed-conflict-ihl-and-state-responses-terrorism

- Nayef al, Sa'ad (2013) Presentation to Australian Delegation in Solidarity with Syria, Damascus, 22 December (Dr al Nayef was, at that time, Syria's Minister for Health)

- OFAC (2015) 'Syria Sanctions Program', Office of Financial Assets Control, 2 August, online: http://www.treasury.gov/resource-center/sanctions/Programs/Documents/syria.txt

- OHCHR (2013) 'Assault on medical care in Syria', Office of the High Commissioner for Human Rights, 13 September, A/HRC/24/CRP.2, online: http://www.ohchr.org/EN/HRBodies/HRC/RegularSessions/Session24/Documents/A-HRC-24-CRP-2.doc.

- 0xTRX007 (2012) 'NATO FSA Mercenaries Bomb the Al Watani Hospital in Qusayr, Homs/Syria', YouTube, 5 September, online: https://www.youtube.com/watch?v=bL1xHEhzPKE

- PHR (2014) 'Anatomy of a Crisis: A Map of Attacks on Health Care in Syria', Physicians for Human Rights, online map: https://s3.amazonaws.com/PHR_syria_map/web/index.html

- SANA (2015a) 'Daraa Governor and WHO discuss means of enhancing cooperation to support health programs and services', Syrian Arab News Agency, 25 October, online: http://sana.sy/en/?p=59058

- SANA (2015b) 'China and Syria discuss means to enhance health cooperation', Syrian Arab News Agency, 30 November, online: http://sana.sy/en/?p=63051

- Sen, Kasturi, Waleed al Faisal and Yaser Al Saleh (2012) 'Syria: effects of conflict and sanctions on public health', Journal of Public Health, Jun; 35(2):195-9, online: http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/23179240

- Telegraph (2012) 'Syrian rebels claim to have blown up hospital in Homs', 4 September, online: http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/syria/9521312/Syrian-rebels-claim-to-have-blown-up-hospital-in-Homs.html

واشنطن والإرهاب و"داعش": الأدلة



اعترف كلٌّ من رئيس القوات المسلحة الأمريكية الجنرال مارتن ديمبسي (Martin Dempsey)، ورئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ السيناتور ليندسي غراهام (Lindsey Graham) ونائب الرئيس الأمريكي جو بايدن (Joe Biden) أنَّ حلفاءهم الإقليميين (خصوصاً السعودية وقطر وتركيا) يمولون "داعش".

«من الصعب أن تلعب لعبة مزدوجة: بأن تعلن الحرب ضد الإرهابيين وفي الوقت نفسه تحاول أن تستخدم بعضهم لتحريك الأحجار على رقعة الشطرنج في الشرق الأوسط لتحقيق مصالحهم الخاصة ... [ولكن] هل يُعدّ اعتدالاً قيام مَـنْ يُسمّون بقُطّاع الطُّرق المعتدلين بقطع رؤوس الناس؟»

Vladimir Putin (2015)

قوبلت التقارير التي تفيد عن أن القوات العراقية أسقطت طائرات بريطانية وأمريكية تحمل أسلحة إلى "داعش" (Iraqi News 2015) بالصدمة والإنكار في الدول الغربية. إلا أن هناك أشخاصاً قلائل في الشرق الأوسط ممن يشكون في أن واشنطن وجيوشها الوكيلة في سورية يلعبون "لعبة مزدوجة". و في هذا الصدد يقول قيادي في حركة أنصار الله اليمنية: «أينما تتدخل الولايات المتحدة، هناك القاعدة و"داعش" . فهذا شيء لصالحهم» (al Bukaiti 2015). لكن القصص الرئيسة لا تزال مهمة، خاصة للجمهور الغربي. إلا أن التعاطي مع تلك القصص يتطلب العمل بالمنطق والأدلة، وليس مجرد الركون إلى التأكيد عليها كلامياً.

ليس هناك من شك في أن الشعوب العربية والمسلمة في الشرق الأوسط تكره ذلك المسخ الإرهابي المسمى "داعش". إذ أظهر استطلاع للرأي لمركز بيو للأبحاث (Pew Research Center) ومقره واشنطن أن 99٪ من اللبنانيين، و 94٪ من الأردنيين و 84٪ من الفلسطينيين لديهم وجهة نظر "سلبية" حيال "داعش". وحيث إن النظام الدستوري في لبنان يحدد الهوية الطائفية، تبين أيضاً أن 98٪ من المسلمين السنة في لبنان يرفضون "داعش" (Poushter 2015). وهذه النتيجة الأخيرة تفضح زيف التأكيد الغربي السائد أن تنظيم "داعش" يخرج بطريقة أو بأخرى من المجتمعات السُّنية. إذ إن أقل من 1٪ في لبنان، و 3٪ في الأردن و 6٪ في فلسطين ينظر ون إلى هذا التنظيم الإرهابي المحظور نظرة إيجابية، في حين لم يعرب من تبقى عن رأيهم. ومن بين جميع دول جوار سورية، كانت تركيا هي الأقل في نسبة النظرة "السلبية" حول "داعش"، حيث 73% فيها ينظرون للتنظيم نظرة سلبية، و8% ينظرون له نظرة إيجابية (Poushter 2015).

هدفي من هذا الفصل هو المساعدة على توضيح الدور الذي لعبته واشنطن في خلق أو إطلاق وحش فرانكستاين(*) هذا، أعني: "تنظيم داعش".

(*) فرانكستاين (Frankenstein) هو شخصية خيالية ظهر في روايات الكاتبة ماري شيلي في الكتاب (فرانكستاين) ود. فرانكستاين هو "مخترع الوحش"، وهو مخلوق هائل الحجم ولكنه يرتكب خطأ ويتسبب المخلوق بجرائم. في هذا السياق يقصد أندرسون أن الولايات المتحدة خلقت "داعش" ومن ثم بات هذا المسخ الإرهابي سبباً في جرائم لاحقة، (المترجمة).

بداية، تواصل واشنطن توظيف أسطورتين متلازمتين بشكل وثيق فيما يتعلق بالإرهاب في الشرق الأوسط. وهناك أيضاً الأسطورة "الاحتياط". وبالنسبة "للأسطورة الوجودية" الأولى فتتلخص أنه، وبدءاً من عام 2014، أصبحت الولايات المتحدة في حرب ضد الإرهابيين المتطرفين، في كل من العراق وسورية. جاء ذلك بعد عدة سنوات من محاولة إسقاط الحكومة السورية من خلال دعم الجماعات المسلحة الخارجة على القانون، التي تصفها بأنها "معتدلة". تزعم الولايات المتحدة من خلال هذه الأسطورة أنها تلعب دوراً وقائياً لصالح شعوب المنطقة. أما الأسطورة الثانية فهي أن هناك فرقاً كبيراً بين "الثوار المعتدلين"، الذين تسلحهم الولايات المتحدة، وتمولهم، وتدربهم، والإرهابيين المتطرفين "داعش"، الذين تدعي أنها تقاتلهم. تمثل هذه الادعاءات تحولاً في مبررات الحرب على سورية، من حرب تقوم على أساس "التدخل الإنساني" لحرب تُحيي عقيدة "الحرب على الإرهاب" التي ظهرت في عهد بوش. أما القصة " الاحتياط"، التي تقدم بها بعض المنتقدين لواشنطن في الداخل الأمريكي، فهي أن ممارسة الولايات المتحدة في المنطقة خلقت مُناخاً من الاستياء في أوساط المجتمعات السنية المتشددة، فظهرت الجماعات المتطرفة كنوع من "رد الفعل العضوي" من قبل تلك المجتمعات على تدخلات الولايات المتحدة المتكررة. لكن هذه القصة تخفي الاستنتاج الأكثر خطورة عن أن واشنطن وحلفاءها خلقوا بشكل مباشر تلك الجماعات المتطرفة.

ولكن ليس هناك من جدوى في إطلاق التصريحات عن تلك النسخة الأخيرة (القصة الاحتياط) دون الحديث عن الأدلة التي تدعم ما نقول. إذ إن "الأسطورة الوجودية" عن الحرب الغربية على الإرهاب ملحة جداً ومنتشرة، ومدعومة بالالتزام برأس المال السياسي، والأسلحة والتمويل، ومن الصعب جداً على الجمهور الغربي قبول أن هذه "الحرب" الجديدة قد تكون تمثيلية. كما أن الدبلوماسية تتطلب أن يتم تعقُّب المواقف السياسية المعلنة إلى مداها من الاستنتاجات المنطقية، وأن يتم اختبار الأهداف. ولهذه الأسباب أقترح أننا يجب أن نوثّق العناصر الرئيسة من الأدلة فيما يتصل بعلاقة واشنطن مع الإرهابيين الطائفيين. ثم بعد ذلك يمكننا التوصل لاستنتاجات مستنيرة.

يُعَدُّ مؤكّداً أن قادة "داعش" البارزين كانوا محتجزين في سجون الولايات المتحدة. فالأفغاني عبد الرحيم مسلم دوست(*)، الذي كان يجنّد المقاتلين لصالح "داعش" قضى ثلاث سنوات في السجن الأمريكي في خليج غوانتانامو (Bienaimé 2015). ويقال إن زعيم "داعش"، إبراهيم البدري (والذي يعرف أيضاً باسم أبي بكر البغدادي)(**) قد تم اعتقاله لمدة تتراوح بين سنة وسنتين في معسكر بوكا في العراق (Giovanni 2014). وفي عام 2006 تم الإفراج عن البغدادي وغيره من المعتقلين، وأعلنت إدارة بوش عن خطتها لـ"الشرق الأوسط الجديد"، وهي الخطة التي تستخدم العنف الطائفي كجزء من عملية "التدمير الخلاق"(***) في المنطقة (Nazemroaya 2006). وفي حين كانت هناك ادعاءات بأن البغدادي هو عميل دربته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أو الموساد الإسرائيلي، لكن هذه الادعاءات لم يتم دعمها بعد بالأدلة.

ومع ذلك، وفقا لمقالة سيمور هيرش (Seymour Hersh)(****) "إعادة التوجيه"، خططت الولايات المتحدة للاستفادة من "الدول السُّنية المعتدلة"، وخصوصاً السعوديين، لاحتواء "المكاسب الشيعية" المزعومة في العراق التي أوجدها الغزو الأمريكي عام 2003. حيث ستقوم هذه القوى "المعتدلة السنية" بتنفيذ العمليات السرية لإضعاف إيران وحزب الله، وهما العدوان الرئيسان

(*) صحفي أفغاني اعتقل في غوانتانامو لمدة ثلاث سنوات، وهو من الأعضاء السابقين في حركة طالبان الأفغانية، ومن أول القياديين في الحركة الذين أعلنوا ولاءَهم لتنظيم "داعش" في أفغانستان وباكستان، (المترجمة).

(**) إبراهيم عواد إبراهيم علي محمد البدري السامرائي المعروف باسم " أبي بكر البغدادي" زعيم تنظيم "داعش" الإرهابي، (المترجمة).

(***) استخدم المؤلف هنا (Creative Destruction) وكأنه يريد أن يؤكد على أن مصطلح (Creative Chaos) الفوضى الخلاقة هو التدمير، (المترجمة).

(****) سيمور هيرش (Seymour Hersh) (1937-): صحفي أمريكي بارز، فائز بجائزة بولتزر للصحافة وقد اشتهر عام 1969 بعد كشفة مذبحة قرية ماي لاي التي قامت بها القوات الأمريكية خلال حرب فيتنام وفي العام 1991 أصدر هيرش كتابه "خيار شمشون، الترسانة النووية الإسرائيلية والسياسة الخارجية الأمريكية"، (المترجمة).

لإسرائيل (Hersh 2007). قرّبت هذه الخطة بين السعوديين وإسرائيل، حيث إن كلتا الدولتين تخشيان إيران لأسباب مختلفة إلى حد ما، ونقلت تقارير للمخابرات الأمريكية في منتصف عام 2012، حقيقتين هامتين عن العنف في سورية. أولاً، قادت الجماعات المتطرفة التابعة لتنظيم القاعدة غالبيّة عمليّات التمرّد المسلح، وثانياً، كان الهدف الطائفي لتلك الجماعات هو "بالضبط" الهدف نفسه الذي أرادته الولايات المتحدة وحلفاؤها. جاء في كتابات مخابرات الدفاع الأمريكية (DIA):

«إن السلفية والإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة في العراق هي القوى الرئيسة التي تقف وراء التمرد في سورية ... هناك إمكانية لإقامة إمارة سلفية بشكل معلن أو غير معلن في شرق سورية (الحسكة ودير الزور)، وهذا بالضبط ما تريده القوى الداعمة [الغرب، دول الخليج وتركيا] للمعارضة (السورية)، من أجل عزل النظام السوري» (DIA 2012).

لقد رصدت الولايات المتحدة المساعدات أيضاً -من دون توقف- من أجل تأمين تدفق الأسلحة من بنغازي في ليبيا إلى "جماعات تنظيم القاعدة" في سورية، في آب/أغسطس 2012. واشتملت تفاصيل هذه الأسلحة على خمسمئة بندقية قنص، ومئة قاذف آر بي جي (RPG)، وثلاثمئة طلقة وأربعمئة صاروخ من نوعي هاوتزر(howitzer) عيار مئة وخمسة وعشرين ملّمتراً، وكاليبر عيار مئة وخمسة وخمسين ملّمتراً، تم شحنها إلى موانئ بانياس وبرج إسلام*، في سورية (Judicial Watch 2015). ووفقاً لمايكل فلين (Michael Flynn)، الرئيس السابق لمخابرات الدفاع الأمريكية، قام الرئيس أوباما "بقرار متعمد" بدعم تنظيم القاعدة وجماعة الإخوان المسلمين وغيرها من الجماعات "الجهادية" (Newman 2015). كل هذا يؤكد الدافع والتواطؤ وتنسيق العملية، فمنذ الأيام الأولى للصراع السوري، وبناء على خطة الرئيس السابق بوش "الشرق الأوسط الجديد"، وافقت واشنطن سراً على تسليح جماعات مرتبطة بتنظيم القاعدة في سورية، حيث وجدت مصلحتها الخاصة في القيام بذلك.

ربما كان الإثبات الأكثر إقناعاً على تواطؤ الولايات المتحدة مع "عدوها" الإرهابي هو اعترافات عدد من كبار المسؤولين أن حلفاءهم الإقليميين الرئيسين مولوا "داعش". ومن بين هؤلاء المسؤولين الأمريكيين نائب الرئيس، ورئيس القوات المسلحة الأمريكية، ورئيس لجنة القوات المسلحة الأمريكية.

قال الجنرال مارتن ديمبسي، رئيس هيئة الأركان المسلحة الأمريكية، في جلسة استماع في الكونغرس في أيلول/ سبتمبر 2014، «أعرف الحلفاء العرب الرئيسين الذين يمولون ["داعش"] (Rothman 2014). أجاب السيناتور ليندسي غراهام، من لجنة الخدمات المسلحة، مقدماً تبريراً لذلك التمويل، قائلاً: «إنهم يمولونهم لأن 'الجيش السوري الحر' لا يمكنه محاربة [الرئيس] الأسد، إذ كانوا يحاولون هزيمة الأسد» (Rothman 2014; Washington's Blog 2014). كانت هذه اعترافات صادقة، ولو أنها تدينهم.

ثم في الشهر التالي، ذهب نائب الرئيس الأمريكي جو بايدن أبعد من ذلك، موضحاً أن تركيا، وقطر والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، «كانوا عازمين على إبعاد الأسد ... وأنفقوا مئات الملايين من الدولارات وعشرات آلاف الأطنان من الأسلحة لمن سيقاتل ضد الأسد ... [بما في ذلك] النصرة وتنظيم القاعدة والعناصر المتطرفة من الجهاديين القادمين من مناطق أخرى من العالم ... [ثم] هذه الأداة المسمّاة "داعش"» (RT; Usher 2014). مرة أخرى، كانت هذه اعترافات متسقة وجديرة بالتصديق والقبول، باستثناء أن بايدن سعى لإعفاء الولايات المتحدة من مسؤولية دعم الإرهابيين عن طريق إلقاء اللوم على الحلفاء الرئيسين. لكن تحذيره ببساطة ليس بذي صدقيّة. فالسعوديون يعتمدون سياسياً بشكل خاص على واشنطن ولا يمكنهم القيام بأي مبادرة كبرى من دون موافقة الولايات المتحدة. ليس ذلك فحسب، بل وتسيطر الولايات المتحدة بشكل منتظم، من خلال عقود الشراء ورخصة إعادة التصدير، على الطريقة التي تستخدم بها أسلحتها (Gov.Export 2015).

وكما ناقشنا في الفصل الخامس، فإنَّ علاقة واشنطن مع السعوديين، كقوة طائفية تقسيمية في المنطقة ضد القومية العربية، تعود إلى الخمسينات، عندما

قدّم ونستون تشرشل العاهل السعودي للرئيس أيزنهاور. وفي الآونة الأخيرة، اعترف الجنرال البريطاني جوناثان شو (Jonathan Shaw) بالدور الذي يمثله الفكر المتطرف في المملكة العربية السعودية: «هذه قنبلة موقوتة، فتحت ستار التعليم تشعل الوهابية السلفية العالم حقاً. ويتم تمويلها بالمال السعودي والقطري»، ذلك بحسب شو (Blair 2014). وهو محقٌّ.

كما تقوض أدلة أخرى محاولات الغرب، التمييز بين ما أصبح يسمى بـ "المتمردين المعتدلين"، الذين بحلول عام 2013، كانوا يتلقون تسليحاً وتدريباً من الولايات المتحدة، والجماعات التي من المفترض أنها أكثر تطرفاً مثل النصرة و"داعش". وفي حين هناك بالفعل بعض التنافس، فإن عدم وجود اختلاف أيديولوجي حقيقي بينها يتجلى بشكل أفضل عبر تعاونها واندماجها. فعلى سبيل المثال إن 'الجيش السوري الحر'، الذي يضم مجموعات تدعمها الولايات المتحدة، قاتل جنباً إلى جنب مع "داعش" ضد الجيش السوري لعدة أشهر في عام 2013، للسيطرة على قاعدة مينغ الجوية بالقرب من حلب في سورية، (Paraszczuk 2013). يشير هوف(*) إلى أن أحد قادة "داعش" في عملية مينغ، وهو الشيشاني أبو عمر الشيشاني، «تلقى تدريباً عسكرياً أمريكياً كونه من وحدة النخبة في الجيش الجورجي في عام 2006»، واستمر في تلقي دعم الولايات المتحدة في عام 2013، من خلال تحالفه مع 'الجيش السوري الحر' (Hoff 2015).

لقد ظهر التعاون، على المدى الطويل، بين هؤلاء "المتمردين المعتدلين" والنصرة التي لها قيادة أجنبية، في جميع أنحاء درعا في الجنوب، وعلى امتداد الحدود اللبنانية الجبلية، في حمص وإدلب، وعلى طول الحدود التركية وداخل وحول مدينة حلب. إن عبارة "النصرة" تعني في الواقع " جبهة الدعم"، وهذا يعني الدعم الخارجي للإسلامويين السوريين. ففي كانون الأول/ديسمبر 2012،

(*) براد هوف (Brad Hoff): صحفي أمريكي وجندي سابق في البحرية الأمريكية، درس وعاش في سورية وهو مدير موقع "ليفانت ريبورت"، (المترجمة).

وعندما كانت النـصرة محظـورة في مختلـف البلـدان، أعلنـت تـسع وعـشرون مجموعة من هذه الجماعات التضامن مـع النـصرة في إعلانهـا: «كلنـا النـصرة» (West 2012). وبعــد فتــرة وجيــزة أصــبح عــدد المــوقعين "أكثــر مــن مئــة" (Zelin 2012). هذا يعني أنه لم يكن هناك أي اختلاف أيديولوجي حقيقـي بـين هذه الجماعات الطائفية المناهضة للحكومة.

أسهم كلٌّ من تراجع شبكة 'الجيش الـسوري الحـر'، وتجـدد التعـاون بـين النصرة ومجموعة من الجماعات التي أعادت اختراعها الولايـات المتحـدة، والـتي تدعمها السعودية ("لواء داود"، والجبهة الإسلامية، وجبهة ثوار سورية، وحركة حزم)، أقول: أسهم في لفت الانتباه إلى الدعم الذي تقدمه إسرائيل للنـصرة في المنطقة المحيطة بمرتفعات الجولان المحتلة. فمنذ عام 2013 كانت هناك تقارير عديدة تفيد عن أن المقاتلين "المتمردين"، بما في ذلـك مقـاتلون مـن النـصرة، كانوا يُعالجون في المستشفيات الإسرائيلية (Zoabi 2014). كما أن رئيس الـوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو أعلن عن زيارتـه إلى "المتمـردين الجرحـى في أوائـل 2014. وقد قوبل ذلك بـ"شكرٍ" علني، من أحد قادة "المتمردين"، محمد بديع، الذين كان يتخذ من تركيا مقراً له (Israel Today 2014). هذا إلى أنّـه، وبـشكل سري تقريباً، دعمت إسرائيل كل الجماعات المسلحة ضد سورية، وسـاعدتهم أحياناً من خلال الهجمات الصاروخية التي شنتها ضد سورية (Kais 2013).

كما أبلغت قوة حفظ السلام الدولية ومقرها في الجولان المحتل مشاهداتها عن قيام قوات الدفاع الإسرائيلية بـ«التفاعل مع" مقاتلي النـصرة علـى الحـدود» (Fitzgerald 2014). وفي الوقت نفسه، استولت القوات الـسورية علـى أسـلحة إسرائيلية بحوزة الجماعات المتطرفـة (Kais 2012; Winer 2013). كمـا احـتج أفراد من "الأقلية" الدرزية في الجولان، في تشرين الثاني/نـوفمبر 2014، ضـد استخدام المستشفيات الإسرائيلية لمساعدة جرحـى النـصرة ومقـاتلي "داعـش" (Zoabi 2014). وأدى ذلك إلى تساؤلات في وسائل الإعلام الإسرائيلية، عمّـا إذا كانت «إسرائيل في الواقع، تعـالج في مستـشفياتها أفـراداً في تنظـيم النـصرة و"داعش"». ولا يكاد يكون ردُّ المتحدث العسكري إنكاراً لتلك الحقيقـة حيـث

قال: «لقد انخرطت قوات الدفاع الإسرائيلية في العامين الماضيين في تقديم مساعدات إنسانية و إنقاذ حياة جرحى سوريين، بغض النظر عن هويتهم» (Zoabi 2014). لكن في الواقع، لا يمكن حتى لأحد المزارعين المتواضعين أن يعبر حدود الجولان المحتلة، التي فيها قوات عسكرية كبيرة، لاسترداد ماعزٍ ضلت طريقها، لكن يبدو أن العلاج "الإنساني" لإرهابيي القاعدة مسألة مختلفة.

لقد سَخِرت تقارير متعددة من التمييز الزائف الذي يتم بين "الثوار" والجماعات المتطرفة، حيث تحدثت تلك التقارير عن الانشقاقات واسعة النطاق ونقل الأسلحة للمتطرفين. ففي تموز/يوليو 2014، انشق ألف من المسلحين في لواء داود وانضموا لـ"داعش" في الرقة (Ditz 2014; Hamadee and Gutman 2014). كما كانت هناك أخبار في تشرين الثاني/نوفمبر عن انشقاقات في جبهة ثوار سورية المدعومة من الولايات المتحدة لصالح النصرة (Newman 2014; 2014 Sly). وفي ديسمبر/كانون الأول، قال أديب الشيشكلي، ممثل "الائتلاف الوطني السوري" لدى مجلس التعاون الخليجي من المنفى إن "مقاتلي المعارضة" كانوا ينضمون بشكل متزايد لـ"داعش" «لأسباب مالية» (Zayabi 2014). في ذلك الشهر نفسه، كانت هناك تقارير عن انشقاق "لواء شهداء اليرموك"، الذي يدعمه ويدربه ضباط أمريكيون، وانضمامه لـ"داعش"، حيث كان بدأ التنظيم في ذلك الوقت بتثبيت حضوره في أقصى الجنوب من سورية (OSNet 2014). وبين عامي 2014 ـ 2015، انتقل ثلاثة آلاف من "المتمردين المعتدلين" المدعومين من الولايات المتحدة" من حركة حزم وانضموا إلى النصرة، وأخذوا معهم مخزوناً كبيراً من الأسلحة الأمريكية، بما في ذلك أسلحة مضادة للدبابات (2015a Fadel). كما أظهر شريط فيديو، نشرته النصرة، هذه الأسلحة التي تُستخدم للسيطرة على القواعد العسكرية السورية، في وادي الضيف والحميدية، في محافظة إدلب (Bacchi 2015). وبحسب ديبكا فايل (Debka File)، وهو موقع مرتبط بالمخابرات الإسرائيلية، فإن الأسلحة الثقيلة التي قَدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والسعودية والأردن وتركيا وقطر "للمعارضة" السورية تشمل الدبابات والعربات المدرعة والصواريخ والقاذفات والمدافع

الرشاشة، بالإضافة إلى أسلحة مضادة للطائرات، و«ما لا يقل عن أربعة أنواع من الأسلحة المضادة للدبابات» (Debka 2015). ويوحي كلّ من حجم واتساق "الانشقاقات" بقوة الإدارة لتوجيه هذه الأسلحة، جنباً إلى جنب مع المقاتلين، لجعل "داعش" التنظيم الأفضل من حيث التجهيز. وتوصّل السيناتور الأمريكي جون كيرياكو (John Kiriakou) إلى الاستنتاج ذاته (Sputnik 2015b).

لا شك أن تجنيد مقاتلين في تنظيم ـ "داعش" مسألة تطلبت التمويل الكبير، ولم يكن ذلك التجنيد مجرّد انحراف "عضوي"، نتيجة استياء الشباب "السُّنّة". ففي أواخر عام 2014، قيل: إنَّ عبد الرحيم مسلم دوست الأفغاني «كان يبذل جهوداً في شمال باكستان لتجنيد مقاتلين لصالح تنظيم ـ"داعش"» (Bienaimé 2015). وبعد فترة وجيزة من هذا التقرير، قال الجهادي السوري يوسف السلفي، الذي اعتقل في باكستان، إنه استُخدم لتجنيد الشبان في باكستان للقتال مع "داعش" في سورية. ويقول: إنه تلقى ستمئة دولار مقابل كل مقاتل يرسله، حيث كان يعمل مع شيخ باكستاني ويستخدم المال الأمريكي (Variyar 2015). ومن يدري ما الذي تقاضاه الوسطاء؟ إلا أن هذا المبلغ يعادل عدة أضعاف راتب الجندي السوري العادي. وكما هو الحال مع النصرة، جاء المُجنَّدون من مجموعة واسعة من البلدان. إذ قابل صحفيون كوبيون أربعة من الجهاديين في تنظيم "داعش" ألقي القبض عليهم، وهم من تركمانستان وقيرغيزستان. تم تجنيدهم في مجموعة أكبر انتقلت بحرية من تركيا وعبرت الحدود إلى سورية. وساعدهم على المشاركة في هذه "الحرب المقدسة" إغراءات، مثل: عروض السكن، والراتب الجيد، والإعراس. وقد تسببوا بمقتل أكثر من ثلاثمئة شخص، بسبب سيارتهم المفخخة (PL2015).

لقد حصل تنظيم "داعش" على الأسلحة الأمريكية بوسائل مختلفة في كل من العراق وسورية، ففي أواخر 2014 أفادت تقارير عن "اتفاق عدم اعتداء" في المنطقة الجنوبية من دمشق في الحجر الأسود بين "الثوار المعتدلين"و"داعش"، حيث أقرّ كلاهما أن العدو المشترك لهما في سورية هو: "النظام النصيري"، وهذا التعبير هو طريقة طائفية للإشارة إلى المسلمين العلويين. وكان هناك أيضاً بعض التقارير التي تفيد أن "داعش" قام بشراء الأسلحة من "المتمردين (AFP 2015).

ويلاحظ أنّه بوجود "حلفاء عرب رئيسين" يدعمون مباشرة "داعش"، وتدفقٍ مستمر من المقاتلين والأسلحة التي تنتقل إلى "داعش" من مجموعات "المتمردين المعتدلين" المنهارين، المدعومين من الولايات المتحدة، لن نألو جهداً في إدراك أن الولايات المتحدة ورحلات «الائتلاف» إلى مناطق "داعش" (التي من المفترض أنها كانت "لتقويض" المتطرفين) قد أصبحت أيضاً خطوط إمداد سريّة. وهذا هو بالضبط ما بدأت مصادر عراقية رفيعة قوله في أواخر عام 2014 وأوائل عام 2015 (Iraq News 2014). كما أنَّه في منتصف عام 2014، بدأ تنظيم "داعش" بالاستيلاء على أسلحة أمريكية، ولكن تم التقليل من أهمية هذه الأخبار، بالقول: إنَّ ما حدث يشير لعجز من جانب الجيش العراقي (Sharma and Nestel 2014). ومع ذلك، وبعد وقت قصير من ذلك، استولى "داعش" على ما كانت تلقيه القوات الجوية الأمريكية من أسلحة على الأرض. والسؤال هنا: هل كان هذا عجزاً من جانب الولايات المتحدة أم تخطيطاً من قبلها؟ وكما ذكرت وسائل إعلام عراقية وإيرانية، قال النائب العراقي ماجد الغراوي في كانون الثاني/يناير إن «طائرة أمريكية أسقطت شحنة من الأسلحة والمعدات لمقاتلين من "داعش" في منطقة الدور في محافظة صلاح الدين» (Sarhan 2015). ونُشرت صور تظهر استرداد "داعش" الأسلحة. اعترفت الولايات المتحدة بأنه تم الاستيلاء على الأسلحة، لكنها قالت: إن ذلك كان "غلطاً" (ll and ChulovMacAski 2014). ثم في شباط/فبراير قال النائب العراقي حاكم الزاملي: إن الجيش العراقي أسقط طائرتين بريطانيتين كانتا تحملان أسلحة إلى "داعش" في محافظة الأنبار. مرة أخرى ونشرت صوراً للطائرة المحطمة. وقال الزاملي: «لقد اكتشفنا أسلحة مصنعة في الولايات المتحدة والدول الأوروبية وإسرائيل من المناطق المحررة من سيطرة "داعش" في منطقة البغدادي» (FNA 2015a).

كما نقل موقع العهد الإخباري عن رئيس مجلس محافظة الأنبار خلف طرموز قوله: إن طائرة أمريكية زودت تنظيم "داعش" الإرهابي بالأسلحة والذخيرة في محافظة صلاح الدين (FNA 2015q). وقال رجال الحشد الشعبي:

إنهم أسقطوا طائرة هليكوبتر للجيش الأمريكي تحمل أسلحة لـ"داعش" في الأجزاء الغربية من منطقة البغدادي في محافظة الأنبار في شباط/فبراير، حيث نشرت الصور مرة أخرى (FNA 2015a). بعد ذلك، كانت هناك أخبار عن أن قوات مكافحة الإرهاب العراقية «اعتقلت أربعة أجانب كانوا يعملون كمستشارين عسكريين لمقاتلي "داعش"»، كان بينهم أمريكيين وإسرائيليين (Adl 2015). تبدو علاقة إسرائيل بـداعش" قد تجاوزت المناطق الحدودية. ففي أواخر عام 2015، قيل: إن العقيد الإسرائيلي يوسي أولن شاحاك (Yusi Oulen Shahak) قد اعتقل مع مجموعة من تنظيم "داعش" في العراق. وقالت الميليشيا العراقية المرتبطة بالحكومة: إن شاحاك، من لواء جولاني، كان عقيداً ضمن الذين «شاركوا في عمليات التنظيم الإرهابي التكفيري "داعش»» (FNA 2015c). وقد استشهد الموقع بستة من كبار المسؤولين العراقيين الذين قدموا تفاصيل دعم الولايات المتحدة بالأسلحة والمعلومات الاستخباراتية لـ"داعش". وقال مقاتلون "داعشيون" مأسورون: إن الولايات المتحدة تقدم «معلومات استخباراتية عن القوات العراقية ومواقعها وأهدافها» (FNA 2015d). لكن تجنّبت وسائل الإعلام الغربية هذه القصص تماماً، لأنها خطرة جداً على "الأسطورة الوجودية" لواشنطن عن "الحرب على "داعش". ولكن من المؤكد أن هذه الأخبار تساعدنا على تفسير السبب وراء عدم ثقة بغداد بالجيش الأمريكي.

أما في ليبيا في عام 2015 فقد أعلن أحد المتعاونين الرئيسين، مع الولايات المتحدة، في الإطاحة بحكومة القذافي، أقول: أعلن نفسه قائداً لـ"الدولة الإسلامية في شمال أفريقيا" (Sputnik 2015a). كان عبد الحكيم بلحاج معتقلاً في سجون الولايات المتحدة لعدة سنوات، ثم "أُعيد" إلى ليبيا القذافي، حيث كان مطلوباً بتهمة الأعمال الإرهابية. وكرئيس سابق للجماعة الإسلامية المقاتلة الليبية المرتبطة بتنظيم القاعدة، ثم مجموعة "فجر ليبيا" والتي مقرها طرابلس، دافعت واشنطن، في الماضي، عن بلحاج وأثنى عليه العضوان في الكونغرس الأمريكي جون ماكين وليندسي غراهام (Sputnik 2015a) .

إن الأدلة عن العلاقة السرية بين واشنطن و"داعش" كبيرة، ويساعدنا ذلك

على تفسير مـا دعـاه نائـب وزيـر الخارجيـة الـسوري فيـصل المقـداد بــ"الحـرب التجميلية" على "داعش" (SANA 2015). فلقد أبعـدت المجموعـة الإرهابيّـة عـن المناطق الكردية في شمال العراق، ولكن سمح لها بحرية الحركة في شرق سـورية (Fadel 2015b) ضد الجيش السوري. وهكذا كان يتم اسـتخدام التنظـيم المتطـرّف لإيجاد المسوّغ أن يكون هناك موطئ قدم لواشنطن في المنطقة، وإضعاف كل مـن سورية والعراق. لكن "حرب" واشنطن على "داعش" كانت غير فعالة. وأظهر مركـز جَين لدراسـات الإرهـاب والتمـرد (Jane's Terrorism and Insurgency Center) فيما يتعلق بقاعدة بيانات الإرهاب والمتمردين، أن هجمات "داعش" وعمليـات القتل في العراق ازدادت بشكلٍ كبير في الشهور التي تلت بدء الهجمات الجويـة الأمريكية (Lestch 2014). وقد كان القتال الـرئيس علـى أرض الواقـع للجـيش السوري، وحلفائه، والقوات المسلحة العراقية، بدعم من إيران (Lister 2015).

ظهر هذا على نحو مناقضٍ في تقارير وسائل الإعـلام الغربيـة. فقـد ادعـت القنوات نفسها التي تنشر أخباراً بارزة (و تبتـهج) بـسبب قتـل "داعـش" للجنـود السوريين، ادّعت أيضاً أن الجيش الـسوري تجنـب أو أنـه «لا يقاتـل» "داعـش" (Vinograd and Omar 2014 ;Richter 2014). كـان "عـدم الرغبـة" المزعـوم (عدم رغبة الجيش الـسوري في قتـال "داعـش") جـزءاً مـن مـبررات الولايـات المتحدة لتشن عمليات قصف داخل سورية، وذلك تحت ذريعة كاذبـة أخـرى. ولئن كان صحيحاً أن أولويـات سـورية تركـزت في منـاطق غـرب سـورية ذات الكثافة السكانية العالية، إلا أن تقارير وسائل الإعلام المتعددة توضح أنه، قبـل وقت كافٍ من الضربات التي قام بها سلاح الجـو الروسـي في أكتـوبر/ تـشرين الأول عام 2015، كان الجيش العـربي الـسوري قـوة كـبرى تحـارب "داعـش" (Reuters 2015 ;al Arabiya 2014 ;tYNe 2014)، وأنه كان يعـاني أيـضاً مـن خسائر كبيرة بسبب تلك المجموعة الإرهابية (Webb 2014). فعندما يتعلق الأمر بتجنب "داعش"، فـإن العكـس هـو الـصحيح، أي أن أمريكـا تتجنـب ضـرب "داعش". إذ تخبرنا الأدلة أن غياب الإرادة لدى واشنطن للقتـال ضـد "داعـش" مرده إلى حقيقة أن التنظيم الإرهابي لا يزال رأس حربة ضد الحكومـة الـسورية.

وهذا ما يفسّر أيضاً لماذا ترفض الولايات المتحدة التنسيق مع الجيش السوري ضد "داعش" (King 2015). وهذا يتفق مع الهدف الرئيس المستمر في "تغيير النظام" في دمشق أو إذا تعذر ذلك، تقطيع أوصال البلاد. لكن وإن قُوبِل هذا الهدف برفضِ الولايات المتحدة وأشياعها في مؤتمر فيينا (Daily Star 2015)؛ غير أن أفعال الولايات تكذّب أقوالها.

إن التناقض في موقف الولايات المتحدة، التي تدّعي أنها تقاتل "داعش"، بينما تحميها في السر، انفضح بشكل واضح جداً، عندما قررت روسيا في أواخر أيلول/سبتمبر 2015 أن تشارك بقوتها الجوية إلى جانب جهود الجيش السوري، ضد كل الجماعات الإرهابية. وعندما رفضت الولايات المتحدة التعاون مع روسيا، تحولت وسائل إعلام واشنطن وفرق المنظمات غير الحكومية من الجوقة التابعة لها فوراً من اتهام الحكومة السورية بقتل المدنيين "إلى القول إن من «يقتل المدنيين» هو روسيا. ومع وجود ذلك النفوذ الروسي القوي، تراجع تنظيم "داعش" وغيره في حين استعاد الجيش العربي السوري والقوات المتحالفة معه تدريجياً المناطق التي كانت محتلة لبعض الوقت (AFP 2015).

يهدد التعاون الوثيق بين كلٍّ من روسيا وإيران والعراق وسورية وحزب الله في لبنان، بتراجع هيمنة الولايات المتحدة في المنطقة. ففي هجوم للجيش العراقي في الآونة الأخيرة على تكريت، التي كانت يسيطر عليها تنظيم "داعش"، ظهر الجيش الإيراني، بوصفه شريكاً رئيساً للقوات العراقية في العراق. وغابت واشنطن، ما تسبب في ذعر في وسائل الإعلام الأمريكية. حيث قيل: إن الجنرال قاسم سليماني، قائد فيلق القدس الإيراني، كان لاعباً رئيساً في عملية تكريت (Rosen 2015). ولم يكن إنشاء مركز بغداد لتبادل المعلومات الاستخباراتية من قبل كلّ من روسيا وسورية والعراق وإيران بالإضافة إلى حزب الله، التطور الأخير بين التطورات الجديدة (4+1). هذا يشير إلى مستوى جديد من الاستقلالية لدى حكومة بغداد، التي كان ينظر إليها مدّة طويلة على أنها دمية بيد واشنطن (Boyer and Scarborough 2015).

لقد قدّم هذا الفصل لنا الأدلة الكافية للتوصل لهذه الاستنتاجات على نحوٍ سليم. فأولاً، لقد خططت واشنطن لموجة دامية من عمليات تغيير النظام لتحقيق مصالحها في الشرق الأوسط، حيث دفعت حلفاء، مثل: السعوديين لاستخدام القوى الطائفية في عملية "التدمير الخلاق". ثانياً، لقد مولت الولايات المتحدة مباشرة مجموعة مسلحين مما يسمى بالإرهابيين "المعتدلين" ضد الدولة السورية المتمتعة بالسيادة، بينما مول حلفاؤها الرئيسون، أعني: السعوديين وقطر وإسرائيل وتركيا، ودعموا بالسلاح والعلاج الطبي، كل مجموعة مسلحة مناهضة للحكومة السورية، سواء أكانت "معتدلة" أم متطرفة. ثالثاً، تم تجنيد "جهاديين" لصالح النصرة و"داعش"، على نحو فعال في العديد من البلدان، ما يعني أن صعود هذه الجماعات لم يكن نتيجة ردة فعل "السنة" المعادين للغرب في المنطقة. رابعاً، إن تركيا، العضو في الناتو، تؤدي دورها كـ"منطقة عبور حرة"، لكل شكل من أشكال الجماعات الإرهابية التي تعبر إلى سورية. خامساً، هناك شهادات من عدد من كبار المسؤولين العراقيين تفيد أنه تم تسليم الأسلحة الأمريكية مباشرة إلى "داعش". سادساً، إن حرب الولايات المتحدة غير الفعالة، أو في أحسن الأحوال، الانتقائية، ضد "داعش" تدعم وجهات النظر العراقية والسورية بأنَّ هناك علاقة تحكّم بين أمريكا و"داعش". وخلاصة القول يمكننا أن نستنتج أن الولايات المتحدة أقامت علاقة تحكم وارتباط مع كل من الجماعات الإرهابية المناهضة لسورية، بما في ذلك النصرة و"داعش"، إما مباشرة أو من خلال حلفائها الإقليميين المقربين، أعني: السعوديين وقطر وإسرائيل وتركيا. وقد حاولت واشنطن أن تلعب "لعبة مزدوجة" في سورية والعراق، وذلك باستخدام عقيدتها القديمة التي تقوم على مبدأ «سياسة الإنكار المنطقي» للإبقاء على قصة "الحرب على الإرهاب " طالما كان ذلك ممكناً.

المراجع:

- Adl, Carol (2015) ‘US, Israeli Military Advisors Arrested In Iraq, Accused Of Aiding ISIS’, Your News Wire, 7 March, online: http://yournewswire.com/us-israeli-military-advisors-arrested-in-iraq-accused-of-aiding-isis/

- AFP (2014) ‘Syria rebels, IS in ‘non-aggression’ pact near Damascus’, Global Post, 13 September, online: http://www.globalpost.com/dispatch/news/afp/140912/syria-rebels-non-aggression-pact-near-damascus

- AFP (2015) ‘Syria gaining ground in 'nearly every front'’, The Daily Star, 23 November, online: http://www.thedailystar.net/world/syria-gaining-ground-nearly-every-front-176662

- Anderson, Tim (2015) ‘Daraa 2011: Syria’s Islamist Insurrection in Disguise’, Global Research, 5 July, online: http://www.globalresearch.ca/daraa-2011-syrias-islamist-insurrection-in-disguise/5460547

- Arabiya al (2014) ‘Syrian Govt. bombs ISIS stronghold of Raqqa, 63 killed’, 25 November, online: http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2014/11/26/-Syrian-government-airstrikes-kill-63-in-Raqqa-monitor.html

- Bacchi, Umberto (2015) ‘Syria: al-Qaeda Nusra Front shows off huge cache of US weapons seized from moderate Harakat Hazm rebels’, International Business Times, 4 March, online: http://www.ibtimes.co.uk/syria-al-qaeda-nusra-front-shows-off-us-weapons-seized-moderate-harakat-hazm-rebels-1490378

- Bienaimé, Pierre (2014) ‘ISIS Now Has A Point Man Recruiting Fighters In Pakistan’, Business Insider, 20 November, online: http://www.businessinsider.com.au/isis-now-has-a-point-man-recruiting-fighters-in-pakistan-2014-11

- Blair, David (2014) ‘Qatar and Saudi Arabia ‘have ignited time bomb by funding global spread of radical Islam’, Telegraph, 4 October, online: http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/iraq/11140860/Qatar-and-Saudi-Arabia-have-ignited-time-bomb-by-funding-global-spread-of-radical-Islam.html

- Blanford, Nicholas (2011) 'Assad regime may be gaining upper hand in Syria', Christina Science Monitor, 13 May, online: http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2011/0513/Assad-regime-may-be-gaining-upper-hand-in-Syria

- Boyer, Dave and Rowan Scarborough (2015) 'White House alarmed as Iraq uses intelligence center operated by Russia, Iran, Syria', Washington Times, 13 October, online: http://www.washingtontimes.com/news/2015/oct/13/iraq-uses-intelligence-center-operated-by-russia-i/?page=all

- Bukaiti al, Mohammed (2015) 'Yemen's Hidden War', Rolling Stone, October, Issue 767, p.82; also online: http://www.rollingstone.com/politics/news/yemens-hidden-war-20150730

- Curtis, Mark (2012) Secret Affairs: Britain's collusion with radical Islam, Serpent's Tail, London

- Daily Star (2015) 'Moallem welcomes Vienna statement on Syria', 2 November, online: https://www.dailystar.com.lb/News/Middle-East/2015/Nov-02/321197-moallem-welcomes-vienna-statement-on-syria.ashx

- Debka (2015) 'Assad loses battles as US, Israel, Turkey, Jordan, Qatar and UAE arm Al Qaeda's Syrian branches', 4 May, online: http://www.debka.com/article/24578/Assad-loses-battles-as-US-Israel-Turkey-Jordan-Qatar-and-UAE-arm-Al-Qaeda%E2%80%99s-Syrian-branches

- DIA (2012) Intelligence Report 'R 050839Z Aug 2012' in Judicial Watch, Pgs. 287-293 (291) JW v DOD and State 14-812, 18 May, online: http://www.judicialwatch.org/document-archive/pgs-287-293-291-jw-v-dod-and-state-14-812-2/

- Ditz, Jason (2014) '1,000-Strong Syrian Rebel Brigade Defects to ISIS: FSA Rebels Demand US Arms, Threaten to Quit War', Anti-War.Com, 8 July, online: http://news.antiwar.com/2014/07/08/1000-strong-syrian-rebel-brigade-defects-to-isis/

- Export.Gov (2015) 'Dual Use Export Licenses', US Export Agency, online: http://www.export.gov/regulation/eg_main_018229.asp

- Fadel, Leith (2015a) ‘The Last of the “Moderates” – Harakat Hazzm Disbands to Join Islamists’, Al Masdar, 2 march, online: http://www.almasdarnews.com/article/last-moderates-harakat-hazzm-disbands-join-islamists/

- Fadel, Leith (2015b) ‘Anti-ISIS Coalition Uses ISIS to Fight Assad in Favor of the Rebels’, Al Masdar, 2 October, online: http://www.almasdarnews.com/article/anti-isis-coalition-uses-isis-to-fight-assad-in-favor-of-the-rebels/

- Fitzgerald, Denis (2014) ‘UN peacekeepers observe IDF interacting with al Nusra in Golan’, UN Tribune, 4 December, online: http://untribune.com/un-peacekeepers-observe-idf-interacting-al-nusra-golan/

- FNA (2015a) ‘Iraq’s Popular Forces Release Photo of Downed US Chopper Carrying Arms for ISIL’, Fars News Agency, 28 February, online: http://english.farsnews.com/newstext.aspx?nn=13931209001345

- FNA (2015b) ‘Iraqi Army Downs Two British Planes Carrying Weapons for ISIL Terrorists’, Global research, 24 February, online: http://www.globalresearch.ca/iraqi-army-downs-two-british-planes-carrying-weapons-for-isil-terrorists/5433089

- FNA (2015c) ‘Israeli Colonel Leading ISIL Terrorists Captured in Iraq’, Fars News Agency, 22 October, online: http://english.farsnews.com/newstext.aspx?nn=13940730000210

- FNA (2015d) ‘Captured ISIL leaders in Iraq confess receiving intelligence support from US’, Fars New Agency, SOTT, 25 October, online: http://www.sott.net/article/304825-Captured-ISIL-leaders-in-Iraq-confess-receiving-intelligence-support-from-US

- Giovanni di, Janine (2014) ‘Who Is ISIS Leader Abu Bakr al-Baghdadi?’ Newsweek, 8 December, online: http://www.newsweek.com/2014/12/19/who-isis-leader-abu-bakr-al-baghdadi-290081.html

- Hamadee al, Mousab and Roy Gutman (2014) ‘1,000 Syrian rebels defect to Islamic State in sign it’s still strengthening’, McClatchy, 8 July, online: http://www.mcclatchydc.com/news/nation-world/world/middle-east/article24770164.html

- Hersh, Seymour (2007) The Redirection', The New Yorker, 5 March, online: http://www.newyorker.com/magazine/2007/03/05/the-redirection

- Hoff, Brad (2015) 'ISIS Leader Omar al-Shishani Fought Under U.S. Umbrella as Late as 2013', Levant Report, 18 September, online: http://levantreport.com/tag/menagh-airbase/

- Iraqi News (2015) American aircraft dropped weapons to ISIS, says MP, 4 January, online: http://www.iraqinews.com/iraq-war/american-aircraft-airdropped-weapons-to-isis-says-mp /

- Israel Today (2014) 'Syrian Rebels Thank Netanyahu for Israel's Compassion', 23 February, online: http://www.israeltoday.co.il/NewsItem/tabid/178/nid/24453/Default.aspx

- Judicial Watch (2015) 'Judicial Watch: Defense, State Department Documents Reveal Obama Administration Knew that al Qaeda Terrorists Had Planned Benghazi Attack 10 Days in Advance', 18 May, online: http://www.judicialwatch.org/press-room/press-releases/judicial-watch-defense-state-department-documents-reveal-obama-administration-knew-that-al-qaeda-terrorists-had-planned-benghazi-attack-10-days-in-advance/

- Kais, Roi (2012) 'Syria: Rebels use Israeli arms', YNet, 27 January, online: http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4181733,00.html

- Kais, Roi (2013) 'US confirms: Israel attacked Syrian missile base', YNet, 31 October, online: http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4448123,00.html

- King, Justin (2015) 'Mounting Evidence Shows US Does Not Want ISIS Defeated', Mint Press, 24 February, online: http://www.mintpressnews.com/mounting-evidence-shows-us-does-not-want-isis-defeated/202479/

- Lestch, Corrinne (2014) 'U.S. airstrikes fail to slow down brutal ISIS attacks: report', Daily News, 14 November, online: http://www.nydailynews.com/news/world/u-s-airstrikes-fail-reduce-brutal-isis-attacks-report-article-1.2011021

- Lister, Tim (2015) ‘Battle for Tikrit: Despite billions in aid, Iraqi army relies on militia, and Iran’, CNN, 11 March, online: http://edition.cnn.com/2015/03/11/middleeast/lister-iraq-iran/

- MacAskill, Ewen and Martin Chulov (2014) ‘Isis apparently takes control of US weapons airdrop intended for Kurds’, Guardian, 22 October, online: http://www.theguardian.com/world/2014/oct/22/isis-us-airdrop-weapons-pentagon

- Nazemroaya, Mahdi Darius (2006) Plans for Redrawing the Middle East: The Project for a ‘New Middle East’, Global Research, 18 November, online: http://www.globalresearch.ca/plans-for-redrawing-the-middle-east-the-project-for-a-new-middle-east/3882

- Newman, Alex (2014) ‘“Moderate” Rebels Armed by Obama Join al-Qaeda, ISIS’, New American, 21 November, online: http://www.thenewamerican.com/world-news/asia/item/19583-moderate-rebels-armed-by-obama-join-al-qaeda-isis

- Newman, Alex (2015) ‘U.S. Defense Intel Chief: Obama Gave “Wilful” Aid to Al-Qaeda’, New American, 11 August, online: http://www.thenewamerican.com/usnews/foreign-policy/item/21384-u-s-defense-intel-chief-obama-gave-willful-aid-to-al-qaeda

- Paraszczuk, Joanna (2013) ‘Syria Analysis: Which Insurgents Captured Menagh Airbase — & Who Led Them? EA Worldview, 7 August, online: http://eaworldview.com/2013/08/syria-feature-which-insurgents-captured-the-menagh-airbase/

- PL (2015) ‘Yihadistas revelan cómo se reclutan militantes para el Estado Islámico’, CubaDebate, 25 June, online: http://www.cubadebate.cu/noticias/2015/06/25/yihadistas-arrestados-en-siria-revelan-como-ee-uu-recluta/#.ViwjaSv9iF_

- Poushter, Jacob (2015) ‘In nations with significant Muslim populations, much disdain for ISIS’, Pew Research Centre, 17 November, online: http://www.pewresearch.org/fact-tank/2015/11/17/in-nations-with-significant-muslim-populations-much-disdain-for-isis/

- Putin, Vladimir (2015) ‘Who are Syria’s moderate rebels?’ Daily Star, 24 October, online: http://www.thedailystar.net/world/who-are-syrias-moderate-rebels-161989

- OSNet (2014) ‘Syrian rebels in the Golan defect to ISIS’, OS Net daily, December, online: http://osnetdaily.com/2014/12/syrian-rebels-golan-defect-isis/

- Reuters (2015) ‘Syrian air strike kills two Islamic State commanders’, 7 March, online: http://uk.reuters.com/article/2015/03/07/uk-mideast-crisis-syria-islamicstate-idUKKBN0M30F320150307

- Richter, Greg (2014) ‘Syrian National Coalition President: Assad, ISIS Not Fighting Each Other’, NewsMax, 30 September, online: http://www.newsmax.com/Newsmax-Tv/syrian-coalition-assad-isis/2014/09/30/id/597645/

- Rosen, James (2015) ‘Quds force leader, commanding Iraqi forces against ISIS, alarms Washington’, Fox News, 5 March, online: http://www.foxnews.com/politics/2015/03/05/iran-quds-force-leader-commanding-iraqi-forces-against-isis-alarms-americans/

- Rothman, Noah (2014) ‘Dempsey: I know of Arab allies who fund ISIS’, YouTube, 16 September, online: https://www.youtube.com/watch?v=nA39iVSo7XE

- RT (2014) ‘Anyone but US! Biden blames allies for ISIS rise’, 3 October, online: https://www.youtube.com/watch?v=11l8nLZNPSY

- SANA (2015) ‘Mikdad: US Turkish agreement to arm and train terrorists means failure of de Mistura initiative’, Syrian Arab News Agency, 21 February, online: http://www.sana.sy/en/?p=29385

- Sarhan, Amre (2015) ‘American aircraft dropped weapons to ISIS, says MP’, Iraqi News, 4 January, online: http://www.iraqinews.com/iraq-war/american-aircraft-airdropped-weapons-to-isis-says-mp/

- Sharma, Versha and M.L. Nestel (2014) ‘Terrorists Seize U.S. Weapons in Iraq’, Vocativ, 16 June, online: http://www.vocativ.com/world/iraq-world/terrorists-seize-u-s-weapons-iraq/

- Sly, Liz (2014) ‘U.S.-backed Syria rebels routed by fighters linked to al-Qaeda’, Washington Post, 2 November, online: https://www.washingtonpost.com/world/us-backed-syria-rebels-routed-by-fighters-linked-to-al-qaeda/2014/11/02/7a8b1351-8fb7-4f7e-a477-66ec0a0aaf34_story.html

- Sputnik (2015a) ‘US Ally in Libya Joins ISIL and Leads Its Forces in the Country – Reports’, 3 May, online: http://sputniknews.com/news/20150305/1019074958.html

- Sputnik (2015b) ‘US Congress Arms ISIL in Syria Via ‘Moderate’ Opposition - ex-CIA Officer’, 7 October, online: http://sputniknews.com/middleeast/20151007/1028130762/US-congress-arms-ISIL-in-syria-via-moderate-opposition.html

- Usher, Barbara Plett (2014) ‘Joe Biden apologised over IS remarks, but was he right?’ BBC News, 7 October, online: http://www.bbc.com/news/world-us-canada-29528482

- Variyar, Mugdha (2015) ‘Funds for ISIS Recruitment Came From US, Says Pakistani ISIS Commander’, IB Times, 29 January, online: http://www.ibtimes.co.in/funds-isis-recruitment-came-us-says-pakistani-isis-commander-621906

- Vinograd, Cassandra and Ammar Cheikh Omar (2014) ‘Syria, ISIS Have Been ‘Ignoring’ Each Other on Battlefield, Data Suggests’, NBC News, 11 December, online: http://www.nbcnews.com/storyline/isis-terror/syria-isis-have-been-ignoring-each-other-battlefield-data-suggests-n264551

- Washington’s Blog (2014) ‘Top U.S. Military Official: Our Arab “Allies” Support ISIS’, 16 September, online: http://www.washingtonsblog.com/2014/09/top-u-s-military-official-arab-allies-support-isis.html

- Webb, Sam (2014) ‘Up to 70 Syrian army chiefs beheaded by ISIS after jihadis make advance on second city of Idlib that has been held by Assad’s forces for more than a year’, Daily Mail, 28 October, online: http://www.dailymail.co.uk/news/article-2810598/Up-70-Syrian-army-chiefs-beheaded-Isis-jihadis-make-advance-second-city-Idlib-held-Assad-s-forces-year.html

- West, Diana (2012) ‘Syrian Rebels: We Are All Jabhat Al Nusra (Al Qaeda)’, Free Republic, 12 December, online: http://www.freerepublic.com/focus/news/2967671/posts

- Winer, Stuart (2013) ‘Syria says it captured Israeli weapons from rebels’, Times of Israel, 21 August, online: http://www.timesofisrael.com/syria-says-it-captured-israeli-weapons-from-rebels/

- YNet (2014) ‘Syrian strikes on ISIS stronghold kill 29’, 6 September, online: http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4568098,00.html

- Zayabi al, Adib (2014) ‘Syrian rebels increasingly joining ISIS: Coalition ambassador’, Asharq al-Awsat, 25 December, online: http://english.aawsat.com/2014/12/article55339780/syrian-rebels-increasingly-joining-isis-syrian-national-coalition-ambassador

- Zelin, Aaron Y. (2012) ‘Rally ‘Round the Jihadist’, Washington Institute, 11 December, online: http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/rally-round-the-jihadist

- Zoabi, Hiba (2014) ‘Israel said to treat wounded members of IS and radical Syrian groups’, i24News, 10 November, online: http://www.i24news.tv/app.php/en/news/israel/diplomacy-defense/50457-141110-israel-said-to-treat-wounded-members-of-is-and-radical-syrian-groups

التدخل الغربي والعقلية الاستعمارية



عقدة المخلص ـ ينضم الليبراليون إلى "الواقعيين" في المجتمعات الغربية عندما يتعلق الأمر بمهمات جديدة تنطوي على تقديم المساعدات أو التدخل من أجل إنقاذ الشعوب الأخرى. فيما يبدو أنه استمرار للمهمات الحضارية الكبرى في الحقبة الاستعمارية.

لقد انقلبت اللغة رأساً على عقب في زمن "الثورات الملونة". فأصبحت البنوك هي التي تحرس البيئة، والمتعصبون طائفياً هم "النشطاء"، والإمبراطوريات هي التي تحمي العالم من الجرائم الكبيرة، بعد أن كانت هي التي ترتكبها.

ينتشر الاستعمار اللغوي في كل مكان، حتى بين السكان المتعلمين تعليماً عالياً، لكنه خطيرٌ على نحو غريب في الثقافات الاستعمارية. إذ أنَّ "الغرب"، الذي يقدم نموذجه الخاص على أنه نموذج للتقدم الحضاري، يعيد إنتاج تاريخه على نحو نشيط، للإبقاء على العقلية الاستعمارية.

يـــشير كُتّـــاب مثـــل فرانتـــز فـــانون (Frantz Fanon)(*) وبـــاولو فريـــري (Paolo Freire)(**) إلى أن الشعوب المستعمَرة تعاني من أضـرار نفـسية وتحتـاج إلى تحرير عقولها من الاستعمار، بحيث تصبح أقل اكتراثاً بالثقافـة الإمبرياليـة، وأن تؤكد بشكل أكبر على القيم الخاصة بمجتمعاتها. أما الجانب الآخـر لعمليـة التحرير هذه فيتعلق بتأثير التركة الاستعمارية علـى الثقافـات الإمبرياليـة. حيـث تحافظ الشعوب الغربية على ثقافتها الخاصة بوصفها الثقافة المركزية، إن لم نقل العالمية، ويجدون صعوبة في الإصغاء إلى الثقافات الأخـرى، أو الـتعلم منـها. إذ يتطلب تغيير تلك العقلية بعض الجهد.

تدرك النخـب القويـة ذلـك جيـداً، وتـسعى إلى اسـتمالة القـوى المـؤثرة في مجتمعاتها، والقيم المستعمِرة واللغة التقدمية، مهمشةً دور الشعوب الأخرى. فعلى سبيل المثال، بعد غزو أفغانستان في عام 2001، تم الترويج لفكرة أن قـوات النـاتو كانت تحمي النساء الأفغانيات واكتـسبت هـذه الفكـرة انتـشاراً. وعلـى الـرغم مـن المعارضة الواسعة للغزو والاحتلال، فإن هذا الهدف "الإنساني" انسجم مع الجانب التبشيري من الثقافة الغربية، أي ما يمكن أن نسميه بـ "عقدة المخلّص".

وعرضت منظمة العفو الدولية في عام 2012، ملصقات تقول: «أيهـا النـاتو حـافظ علـى اسـتمرار التقـدم»، فيمـا يخـص حقـوق المـرأة في أفغانـستان (Wright and Rowley 2012)، بينما جمع معهـد جـورج دبليـو بـوش المـال لتعزيز حقوق المرأة الأفغانيـة (Bush Center 2013). لكـن الميزانيـة العموميـة المؤسفة لاحتلال الناتو الطويل ليست مشجعة جداً. حيث يظهـر تقريـر برنـامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام 2013 أن فقط 5.8% امرأة أفغانية حصلن على بعض التعليم الثانوي، وهو سابع أدنى مستوى في العالم؛ وأن المرأة الأفغانية تنجـب

(*) فرانتز فانون (Frantz Fanon) (1925ـ1961): طبيب نفساني وفيلسوف فرنسي مـن مواليـد المارتينيـك. انشغل فانون بالكتابات المناهضة للاستعمار، كمـا انـضم كطبيـب إلى جبهـة التحريـر الجزائريـة، ونـاهض الاحتلال الفرنسي للجزائر. من مؤلفاته **المعذبون في الأرض**، و**بشرة سوداء وأقنعة بيضاء**، (المترجمة).

(**) باولو فريري (Paolo Freire) (1921ـ1997): معلم برازيلي لـه نظريـات هامـة ومـؤثرة في مجال التعليم، (المترجمة).

ما معدله ستة أطفـال، وهـو ثالـث أعلـى معـدل في العـالم، ويـرتبط بـالتعليم المنخفض (UNDP 2013). فالجيوش المحتلة لا ترسل الأطفال إلى المدارس.

اعتمدت "الحرب النسوية"(*) في أفغانستان ـ في نواحٍ كـثيرة ـ علـى الإرث البريطاني في مستعمرة الهند. وكجزء مـن "مهمتـها الحـضارية" العظيمـة تلـك، ادعت الإمبراطورية أنها تحمي النساء الهنديات من عادة "ساتي" (sati) ، وهـي عادة تقوم الأرامل بموجبها برمي أنفسهن (أو هناك من يرميهن) في محرقة جنازة أزواجهن. لكن في الواقع، لم يجلب الحكم الاستعماري تغييراً يذكر على هـذه الممارسة الجانبية (Barangeer 2014c). على العكس من ذلـك، فـإن الـتمكين المزعوم للفتيات والنساء في ظل الحكم البريطاني كـان نكتـة سمجـة. إذ بلغـت نسبة محو أمية الكبار قبل الاستقلال في الهند 12٪ فقط، وبالنسبة للنساء كانـت النسبة أقل من ذلك بكثير. وبينما لا تزال الهند متخلفـة في كـثير مـن النـواحي، لكن سير العملية التعليمية بات يسير بشكل أسرع بعد الاستقلال في عام 1947.

بيـد أن هـذه الحقـائق لم تـستوقف المـؤرخين، مثـل: نيـال فيرغـسون (Ferguson Niall) ولـورانس جـيمس (Lawrence James)(**) اللـذين حـاولا تنظيف التاريخ الاستعماري البريطاني، على الأقل للدفاع عـن التـدخلات الـتي حدثت مؤخراً. قد يبدو من الصعب تبرير الاستعمار، لكن يبدو أن هناك فرصـة أفضل للخوض في هذا الجدل بـين الـشعوب ذات الماضـي الاسـتعماري الـتي تسعى لتسويغ الاستعمار استناداً إلى تجاربها (تاريخها وثقافتها).

إن الخطاب في أمريكا الشمالية مختلف بعض الشيء، إذ تـدّعي الولايـات المتحدة الأمريكية أنها لم تكن أبداً قوة استعمارية. بما أنَّ أسطورة المنارة الكبيرة للحريـة، و"الـضوء علـى أعلـى الهـضبة"، مهمـان لتـصورها عـن نفـسها (Gamble 2012). وحقيقة أن مالكي العبيد ومن قاموا بالتطهير العرقي هـم مـن كتبوا الإعلان الأمريكي عن الحرية والمساواة (ينتقد إعلان استقلال الولايات المتحـدة

(*) "الحرب النسوية" بمعنى الحرب التي كانت ترفع شعار تحرير المرأة، (المترجمة).

(**) نيال فيرغسون (gusonNiall Fer) (1964): مؤرخ بريطاني، (المترجمة) .

على نحو معروف بريطانيا لفرضها قيوداً على الاستيلاء على الأراضي التي تعود للسكان الأصليين) لم يقلل الحماس لتلك المثل الجميلة. فهذا الإرث المجيد يؤثر بالتأكيد في خطاب واشنطن وكيفية عرضها لتدخلاتها في الآونة الأخيرة.

لكن بعد غزو أفغانستان والعراق رأينا تغييراً في النهج، حيث قامت القوى الكبرى بتجنيد المتعصبين طائفياً ضد الدول المستقلة في المنطقة. حتى الدولة العراقية الجديدة، الخارجة من من تحت أنقاض غزو 2003، كانت مستهدفة من قبل هؤلاء المتعصبين الذين توجههم واشنطن. وشهد ما سمي بـ"الربيع العربي" اجتياح ثورة إسلاموية مزيفة لليبيا، مدعومةً بقصف حلف الناتو، ثم تم تسليمها إلى زمرة من الجماعات المتناحرة المرتبطة بتنظيم القاعدة والمتعاونين الغربيين. وعاد هذا البلد الصغير، الذي كان يتمتع بأعلى مستويات المعيشة في أفريقيا، إلى الوراء عشرات السنين.

ثم جاء دور سورية الشجاعة، التي قاومت بتكلفة باهظة جداً. وكانت الحرب الدعائية شديدة. حتى أنَّ قلة في الغرب بدت قادرةً على مقاومتها. إذا أنَّ جزءاً كبيراً من اليسار الغربي يتشارك الأوهام مع اليمين. فما كان في البداية يقال عنه: إنَّه "ثورة" وطنية وعلمانية ـ انتفاضة ضد "الدكتاتور" الذي كان يقتل شعبه ـ قيل في وقت لاحق عنه نفسه" إنّه "ثورة" يقودها "الثوار المعتدلون" أو "الإسلامويون المعتدلون". ثم قيل: إنَّ الإسلامويين المتطرفين، الذين ينشرون علناً ومراراً الفظائع التي يرتكبونها، فئات مختلفة، قررت واشنطن وحلفاؤها أخيراً أن تقاتلهم. قد يبدو الكثير من النقاش سخيفاً بالنسبة للمثقفين على نحوٍ متوسط في العالم العربي، أو أمريكا اللاتينية، لكنه يلقى بعض القبول في الغرب.

هذا، إلى أنَّ أحد أسباب هذا الاختلاف في فهم ما يحدث هو الاختلاف في معنى القومية والدولة في الغرب. فاليسار الغربي كان يرى دائماً الدولة على أنها متجانسة والقومية بوصفها شيئا أقرب إلى الفاشية. لكن في المستعمرات السابقة يبقى الأمل في الدولة ـ القومية. فليس هناك لدى الشعوب الغربية أبداً ما يقابل هوشي منه، جمال عبد الناصر، نيلسون مانديلا، سلفادور لندي، هوغو تشافيز أو فيدل كاسترو. وإحدى نتائج ذلك أنه، بقدر ما ينتقد المفكرون الغربيون

دولهم، فهم مترددون في الدفاع عن الدول الأخرى. والعديد من الذين ينتقدون واشنطن أو إسرائيل لن يدافعوا عن كوبا أو سورية.

يجعل هذا كلّه الحروب بالوكالة التي تدعي أهدافاً تبشيرية أكثر قابلية للتسويق في الغرب. يمكن أن نقول حتى أنها كانت تكتيكاً ناجحاً نسبياً في التدخل الاستعماري، من حرب الكونترا (Contra)(*) في نيكاراغوا إلى الجيوش بالوكالة في سورية. وطالما أن القوى الكبرى لا تشارك مباشرةً، فإن الجمهور الغربي يجدها فكرة جذّابة جداً، من حيث إنه يساعد شعباً آخر ينتفض ويحصل على "الحرية".

وقد تبنّى حتى نعوم تشومسكي، مؤلف العديد من الكتب حول الإمبريالية الأمريكية والدعاية الغربية، الكثير من النزعة التبريرية للتدخل. ففي حالة ليبيا قال: إنه يمكن دعم التدخل حتى دون موافقة الأمم المتحدة، لأن «منع حدوث مذبحة محتملة في بنغازي ليس بالمسألة الصغيرة، مهما كان الرأي عن الدوافع» (Chomsky 2011). وبعد وقوع الكارثة الليبية، وفي مقابلة مع جريدة تابعة للمعارضة السورية في عام 2013 ادعى أن تمرد الاسلامويين المدعومين من الخارج في سورية كان «حركة احتجاجية» مكبوتة اضطرت إلى العسكرة. وادعى أن أمريكا وإسرائيل لم تكن لهما مصلحة في إسقاط الحكومة السورية. واعترف بأنه كان "متحمساً" "للانتفاضة" في سورية، لكنه رفض فكرة "مسؤولية الحماية"، قائلاً: إنه يعارض التدخل الأمريكي المباشر دون تفويض من الأمم المتحدة. ومع ذلك، ذهب لدعم أولئك الذين يريدون أن "يجبروا" الحكومة السورية على الاستقالة، مشيراً إلى أنه «لا يوجد شيء يمكن أن يبرر تورط حزب الله في سورية» (Chomsky 2013). جاء هذا بعد دعم حزب الله لسورية، لمساعدتها في صد "الجهاديين" المدعومين من الناتو.

(*) (contra) مصطلح يطلق على مجموعة من حركات التمرد اليمينية المدعومة والممولة من أمريكا والتي نشطت في نهاية السبعينات حتى بداية التسعينات وكانت تقاتل ضد اليسار، (المترجمة).

لكن كيف يحدث أن يتوصل مثقف غربي مناهض للإمبريالية إلى استنتاجات مماثلة لتلك التي في البيت الأبيض؟ أولاً، هناك فكرة فوضوية أو فكـرة يـسارية متطرفة معارضة لكـل سـلطات الدولـة. وهـذا يـؤدي إلى الهجـوم علـى القـوة الإمبريالية ولكن، في الوقت نفسه، اللامبالاة أو المعارضة شبه التلقائية للـدول المستقلة. كثير من اليساريين الغربيين يعبرون عن الحماس لفكرة الإطاحة بدولـة مستقلة، رغم علمهم بأن البدائل، كما هـو الحـال في ليبيـا، سـيكون المـذابح الجماعية والتقسيم المرير وتدمير المؤسسات الوطنية الهامة.

ثانياً، أدى الاعتماد على مصادر وسائل الإعلام الغربية إلى أن يعتقد الكـثيرون أن المجازر المرتكبة بحق المدنيين في سورية كانت من عمل الحكومة السورية. لكن لا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة من هذا الادعاء. فقراءة متأنية للأدلة تُظهر أن معظم المجازر المرتكبة بحق المدنيين، والتي حظيـت بتغطيـة إعلاميـة في سـورية (الحولة، داريا، عقرب، الغوطة الشرقية) نفذتها جماعات إسلاموية طائفية، في كثير من الأحيان من أجل توجيه اللـوم زوراً إلى الحكومـة. وحـتى عنـدما كـان الـدليل موضوعياً وقاطعاً، كما في حالة حادثـة الأسـلحة الكيمياويـة في الغوطـة الـشرقية (علـى سـبيل المثـال ISTEAMS 2013; Lloyd and Postol 2014; Hersh 2013)، فإن الرواية الغربية لم تتغير وكانت هناك بعد الادعاءات عن الأسلحة الكيماويـة اتهامات حرفت الحقيقة بالقول: إن قصف الجماعات الإرهابيـة المدعومـة مـن الغرب كان بـ«استخدام البراميل المتفجرة ضد المدنيين». وكان ذلك جـزءاً مـن تقليدٍ طويل تقوم به الجماعات الطائفية عبر التظاهر بكون ضحاياها من المدنيين. لا يبدو أن هناك أي حد لهذه القصص. لقد أشـار الـرئيس بـشار الأسـد بـشكل منطقي إلى أن: «كل الحروبِ سيئة... [لكن] لا يمكننـا وقـف قتـال الإرهـابيين الذين يقتلون المدنيين خوفـاً مـن اتهامنـا مـن قبـل الغـرب باسـتخدام القـوة!» (Assad 2015).

أما العنصر الثالث الذي يشوه الأفكار الغربية المعادية للإمبريالية، يبدو أنـه الطبيعة المقيدة (المقيدة بالتاريخ الغربي الخـاص) والمرجعيـة الذاتيـة للنقـاش. فالمعايير بات يحميها حراس الشركات، ومعززة أيضاً بأوهام الغرب الكبيرة فيما يخص النفوذ الحضاري الخاص به.

لقد نقل عدد قليل من الصحفيين الغربيين تفاصيل كافية للمساعدة في توضيح أجزاء من قصة الصراع السوري، ولكن كانت وجهات نظرهم محكومة دائما تقريباً بالروايات "الإنسانية" الغربية "الليبرالية". في الواقع، لقد كان التبني الأكثر حماسةً لفكرة "التدخل الإنساني" في السنوات الأخيرة يأتي من وسائل الإعلام الليبرالية، مثل: صحيفة الجارديان البريطانية، والبي بي سي والمنظمات غير الحكومية مثل آفاز، ومنظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش. أما القلة من الصحفيين الذين يحافظون على وجهة نظر مستقلة، مثل: الصحفية العربية ـ الأمريكية شارمين نارواني، فقد نشروا معظم كتاباتهم خارج قنوات الإعلام الغربي المعروف.

تتحكم الثقافة الإمبريالية أيضاً بصناعة المساعدات الإنسانية. حيث إن الضغط الأيديولوجي لا يأتي فقط من بنوك التنمية، ولكن أيضاً من قطاع المنظمات غير الحكومية، التي تحافظ على شعور قوي من العمل التبشيري، أي "عقدة المخلص" في علاقاتها مع بقية العالم. وفي حين كان "التعاون الإنمائي" يشمل أفكاراً عن التعويض عن الحكم الاستعماري، أو المساعدة في أثناء مدّة الانتقال إلى الاستقلال، فإنه اليوم أصبح صناعة تحقق مكاسب بـ مئة مليار دولار أمريكي، حيث يكون اتخاذ القرارات بشكل محكم بأيدي الوكالات المالية الغربية.

وبصرف النظر عن الضعف العملي للعديد من برامج المساعدات، فهذه الصناعة غير ديمقراطية على نحو عميق، مع وجود إيحاءات استعمارية قوية. فبرامج المساعدات ليست أبداً مسؤولة أمام الشعوب المحلية. ومع ذلك، يعتقد كثير من عمال الإغاثة الغربيين أنهم حقّاً يستطيعون أن "ينقذوا" الشعوب الفقيرة في العالم. إن الغرور الثقافي عميق. فالوكالات لا تسعى فقط لتحديد السياسة الاقتصادية، بل إنهم غالباً ما يتدخلون في العمليات السياسية وحتى الدستورية. ويتم ذلك باسم "الحكم الرشيد"، ومكافحة الفساد، أو "تعزيز الديمقراطية". وبغض النظر عن مشاكل الهيئات المحلية، نادراً ما يتم الاعتراف أن وكالات الإغاثة الأجنبية هي أقل اللاعبين ديمقراطيةً من بين الجميع.

على سبيل المثال، في مطلع هذا القرن، وعندما حصلت تيمور الشرقية على استقلالها، استخدمت هيئات المساعدات القوة المالية لمنع تطور المؤسسات العامة في مجال الزراعة والأمن الغذائي، ودفعت هذا البلد الجديد إلى خلق أحزاب سياسية منافسة، بعيداً عن حكومة وحدة وطنية، في مسعى للحصول على اليد العليا بين "الجهات المانحة"، وفاقمت أستراليا الانقسام السياسي اللاحق وأزمة 2006 (Anderson 2006). مع استمرار النزاعات على الحدود البحرية والموارد البترولية. كان الأكاديميون والمستشارون الأستراليون سريعين في استغلال تلك اللحظة من الضعف للحث على أن الحزب الرئيس في تيمور الشرقية يجب أن يتم "إصلاحه"، وأن الجيش الوطني يجوز تهميشه أو إلغاؤه، وبأن تعتمد البلاد الإنكليزية لغة وطنية. ورغم أنه تمت مقاومة كل هذه الضغوط، بدا في تلك اللحظة أن العديد من "الأصدقاء" الأستراليين لتيمور الشرقية يتصورون أنهم "ورثوا" ذلك البلد الصغير من الحكم الاستعماري السابق. يبدو هذا غالباً الشعور الغربي الغريب عن فكرة "التضامن".

لقد خلقت الثقافات الإمبريالية مجموعة كبيرة ومتنوعة من ذرائع جوفاء للتدخل في المستعمرات السابقة والبلدان المستقلة حديثاً. وتشمل هذه الذرائع حماية حقوق المرأة، وضمان الحكم الرشيد والمساعدة في تعزيز "الثورات". حيث يُعدُّ مستوى اللغة الغامضة حيال تلك المفاهيم جوهريّاً. لكن التدخلات تخلق مشكلات لجميع الأطراف. وعلى الشعوب المستقلة أن تتعلم أشكالاً جديدة من المقاومة. فأصحاب النوايا الحسنة في الثقافات الإمبريالية قد يرغبون في التفكير في الطرق التي يمكننا من خلالها "تفكيك" العقلية الاستعمارية.

إنّها تُعدُّ عملية بسيطة نسبياً، وتعتمد على المستوى الأخلاقي، والمبادئ الأساسية في المساواة بين البشر، والاحترام المتبادل والصداقة. لكن على المستوى السياسي والفكري أقترح أنه يمكن أن تشمل التفكُّر في (أ) وجهات النظر المختلفة تاريخياً بين الدولة ـ القومية، (ب)، الوظائف الخاصة والمهمة لدول ما بعد الاستعمار، (ج) الأهمية المستمرة لمبدأ تقرير المصير (د) ضرورة

تجاهل وسائل الإعلام المرافقة(*) التي تعتمد على الخداع على نحو ممنهج و(هـ) التحدي الذي تفرضه مواجهة الأوهام الكبيرة فيما يخص التأثير الحضاري الغربي المفترض. حيث إن هذه الأوهام تشكّل جزءاً من عقلية استعمارية جديدة (neo-colonialism)، متأصلة في جذور العمى الغربي الاستثنائي حيال الأضرار التي سببها التدخل الغربي المفروض عنوة على الشعوب الأخرى.

(*) بمعنى المرافقة للخطاب الاستعماري والمتغلغلة في مشروعه بحيث أصبحت بوقاً له، وهذا ينسجم مع الكيفية التي شرحها المؤلف في الفصل السادس، (المترجمة).

المراجع:

- Anderson, Tim (2006) 'Timor Leste: the Second Australian Intervention', Journal of Australian Political Economy, No 58, December, pp.62-93

- Assad, Bashar al (2015) '"Britain and France were the Spearheads in Supporting the Terrorists in Syria:" President al-Assad', Information Clearing House, 6 December, online: http://www.informationclearinghouse.info/article43628.htm

- Banerjee, Jacqueline (c.2014) 'Cultural Imperialism or Rescue? The British and Suttee', The Victorian Web, online: http://www.victorianweb.org/history/empire/india/suttee.html

- Bush Center (2015) 'Afghan Women's Project', George W, Bush Center, online: http://www.bushcenter.org/womens-initiative/afghan-womens-project

- Chomsky, Noam (2011) 'On Libya and the Unfolding Crises', ZNet, 30 March, online: chomsky.info/20110330 /

- Chomsky, Noam (2013) 'Noam Chomsky: The Arab World And The Supernatural Power of the United States', Information Clearing House, 16 June, online: http://www.informationclearinghouse.info/article35527.htm

- Gamble, Richard M. (2012) In Search of the City on a Hill: The Making and Unmaking of an American Myth, Bloomsbury Academic, London

- ISTEAMS (2013) 'Independent Investigation of Syria Chemical Attack Videos and Child Abductions', 15 September, online: http://www.globalresearch.ca/STUDY_THE_VIDEOS_THAT_SPEAKS_ABOUT_CHEMICALS_BETA_VERSION.pdf

- Hersh, Seymour (2013) 'Whose Sarin?' LRB, 19 December, online: http://www.lrb.co.uk/v35/n24/seymour-m-hersh/whose-sarin

- Lloyd, Richard and Theodore A. Postol (2014) 'Possible Implications of Faulty US Technical Intelligence in the Damascus Nerve Agent Attack of August 21, 2013', MIT, January 14, Washington DC, online:

https://www.documentcloud.org/documents/1006045-possible-implications-of-bad-intelligence.html#storylink=relast

- UNDP (2013) Human Development Report 2013, United Nations Development Programme, New York, online: http://hdr.undp.org/en/2013-report

- Wright, Ann and Coleen Rowley (2012) ‘Ann Wright and Coleen Rowley’, Consortium News, June 18, online: https://consortiumnews.com/2012/06/18/amnestys-shilling-for-us-wars/

نحو شرق أوسط مستقل



«علينا أن نتكاتف لنمنع المحتل من المرور!» ـ البطل القومي الكوبي خوسيه مارتي (1881)، متحدثاً عن ضرورة الوحدة الإقليمية.

«لا يحق لأي مسؤول أجنبي أن يحدِّدَ مستقبل سورية.. أو مستقبل النظام السياسي فيها .. ومن هم الأشخاص الذين يحكمون أو غيرهم.. هذا قرار الشعب السوري».

(الرئيس بشار الأسد، 2015)

اصطدمت خطّةُ واشنطن لشرق أوسط جديد بصخرة اسمها سورية. ورغم استمرار سفك الدماء، والضغوط الاقتصادية الشديدة، إلا أن سورية تتقدم بثبات نحو تحقيق نصرٍ عسكري واستراتيجي من شأنه أن يُحدث تحولاً في الشرق الأوسط. وهناكَ أدلة واضحة على أن خُطط واشنطن، سواء لجهة "تغيير النظام"، أو جعل الدولة دولة عاجزة، أو تقطيع أوصال البلاد، على أسس طائفية، هناك أدلة على أنها جميعها باءت بالفشل. حيث نشهد بدلاً من ذلك صعوداً أقوى لمحور المقاومة، وفي القلب منه سورية وإيران وفلسطين وحزب الله، مدعوماً من روسيا، ويستميل نحوه العراق.

سيستند هذا الانتصار السوري إلى الدعم الشعبي، القوي والمتماسك، الذي يحظى به الجيش الوطني في سورية، في تصديه للهجمات الطائفية الشريرة، وكذلك على الدعم القوي من حلفاء سورية الرئيسين. كما أنَّ تشرذم المعارضة الدولية، التي تضم الدول المناهضة لهذا الحلف. سيسهم في هذا الانتصار. يضاف إلى ذلك أهمية الاصطفافات والتحالفات الإقليمية التي أعيد تشكيلها. حيث إن مصر، وفي وقت مبكر نسبياً من عمر الأزمة السورية، كانت قد استبعدت، في ظل حكومة الإخوان المسلمين التي لم تدم طويلا، كخصم لمحور المقاومة. وكان الأهم فيما يخص تلك المتغيرات الدولية، اتفاقية السلام (الاتفاق النووي) بين واشنطن وإيران، التي عارضتها السعودية وإسرائيل، إذ تدركان أن هذا الاتفاقية ستقوي يد حلفاء سورية الرئيسين في الإقليم. كما أنَّ المبادرة الروسية في أواخر أيلول/سبتمبر 2015، وما وفرّته من قوة جوية بالتنسيق مع الجيش السوري، لم تكن حاسمة عسكرياً فقط، ولكنها تسببت أيضاً بضم العراق كلاعب كامل العضوية في محور المقاومة. حيث إنّ القرار الذي اتخذته روسيا وإيران والعراق وسورية، بإقامة مركز المعلومات المشترك في بغداد لمكافحة الإرهاب، لم يأتِ من قبيل الصدفة. إذ أنَّ التحول البطيء، ولكن المُطّرد، للعراق من دولة تابعة للولايات المتحدة إلى دولة في معسكر المقاومة، يشير إلى عمق التغيرات التي تحدث.

لقد كان الوضع الاقتصادي في سورية، قبل المبادرة الروسية، وبعد أكثر من خمس سنوات من الحرب. سيئاً لكن كان هناك ترسيخ للأمن. هذا إلى جانب وجود مناطق محددة خارجة على سيطرة الدولة، بصورة مستعصية على الحل، مثل: شمال شرق حلب، والرقة في شرق البلاد، وجوبر ودوما في شمال دمشق، وجميعها مناطق كانت محتلة لسنوات من قبل الآلاف من المسلحين الطائفيين. ولكن لم يكن للجماعات المسلحة في أماكن أخرى أية مكاسب حقيقية على المدى الطويل، حيث تعرضوا للهزيمة. وانتقل الملايين إلى المدن الغربية في سورية.

وفي هذا الصدد ذكر محافظ اللاذقية لي في تموز/يوليو 2015 أن المحافظة ازداد عدد سكانها من مليون وثلاثمئة ألف إلى ثلاثة ملايين نسمة. كما أن السويداء التي استقبلت مئة وثلاثين ألف أسرة من درعا، تضاعف عدد سكانها. وحدث الشيء ذاته في طرطوس، في حين يقال: إنَّ عدد سكان دمشق ازداد ليصل إلى. ثمانية ملايين وخمسمئة ألف نسمة. كما كان النزوح داخل العاصمة كبيراً أيضاً. على سبيل المثال، فبعد الاقتحامات المتكررة التي شنتها النصرة و"داعش"، انتقل معظم سكان مخيم اليرموك الفلسطيني المحاصر إلى أجزاء أخرى من دمشق، مثل جرمانا. حيث يعيش عددٌ قليل جداً من هذه العائلات المهجّرة في الخيام، بينما تعيش الغالبية العظمى منهم في المدارس وغيرها من المؤسسات ومنازل عائلية، وأشكال أخرى من الأبنية المسقوفة.

تغفل "حربُ الخرائط" التي تدور على الإنترنت هذه الحقيقة. فعندما يتحدث المعلقون عن مساحة "الأرض" التي تسيطر عليها جماعات إسلاموية معينة، فإنهم لا يلاحظون عادة أن الحكومة حافظت على سيطرتها على الغالبية العظمى من المناطق المأهولة بالسكان، وأن معظم المهجّرين التجأوا إلى تلك المدن التي تسيطر عليها. فبحلول عام 2015 كان انقطاع التيار الكهربائي والنقص في الطاقة الكهربائية في غاية السوء، ولكن المدارس، والمراكز الصحية، والمرافق الرياضة كانت لا تزال تعمل. ولئن لم تصل الحياة إلى المستوى الطبيعيّ إلا بشق الأنفس؛ غير أنها استمرت. حيث كان الناس يتابعون حياتهم اليومية

ويقاومون. لكن هذه الحقيقة لم تكدْ تظهر في وسائل الإعلام الغربية، التي بثّت بشكل مستمر الأكاذيب عن طبيعة الصراع. وقد كانت تحاول، على وجه الخصوص، إخفاء حقيقة دعم الناتو للجماعات المتطرفة، في حين كانت تعمل كأبواق لتلك الجماعات، متجاهلةً الموقف الدفاعي الذي اتخذه الجيش السوري إزاء تلك الجماعات.

أظهر هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ على أساس التثبّت من الحقائق، أولاً، أنه لم يكن هناك البتة أي "متمردين معتدلين"، فقد حل التمرد الإسلاموي الذي تدعمه السعودية مكان حركة الإصلاح السياسي الحقيقية في خلال مارس/آذار ونيسان/أبريل 2011، وكان منذ بدايته عصياناً إسلامويّاً طائفيّاً مسلحاً. ثم في السنوات اللاحقة أطلق السوريون العاديون على كل هذه الجماعات اسم "داعش"، أو "الإرهابيين" أو "المرتزقة"، دون أن يشغلوا أنفسهم بالأسماء المختلفة. وفقط الوكالات التي كانت تتواصل مع الجماعات المسلحة التي على سبيل المثال تسعى لاستعادة مختطفين، تولي اهتماماً كبيراً لمختلف هذه التسميات. فالتصريحات ذات الطبيعة الإبادية من قبل القادة المتمردين "المعتدلين"، تؤكد على أن الفرق محدود بين «المعتدلين »الإباديين والمتطرفين الإباديين. كتبت القيادية في 'الجيش السوري الحر' لمياء نحاس(*): «كلما ازدادت غطرسة الأقليات في سورية كلما زاد يقيني أنه لا بد من أن يكون هناك محرقة تلغيهم من الوجود، إنني أترحم على هتلر الذي أحرق يهود عصره، والسلطان عبد الحميد الذي أباد الأرمن» (The Angry Arab 2015).

وبالمثل، قال المعارض السوري عبد الله العلي لأصدقائه في وسائل التواصل الاجتماعية ما يلي: «إن إبادة القرى "النصيرية" [العلوية] أكثر أهمية من تحرير العاصمة السورية» (Fadel 2015). إن الحماس لفكرة الإبادة الجماعية عند هؤلاء «المعتدلين» لا تختلف عن تلك التي لدى النصرة أو "داعش". لقد كان

(*) الصحيح أنها قيادية في "الائتلاف الوطني السوري" وليس "الجيش السوري الحر"، وهي مرشحة سابقة لما يسمى بـ"الحكومة السورية المؤقتة"، (المترجمة).

طابع الصراع المسلح دائماً بين دولة سلطوية، ولكنها تعددية وشاملة من الناحية الاجتماعية من جهة، وإسلامويين طائفيين على النمط السعودي يقومون مقام الجيوش الوكيلة للقوى الكبرى من جهة أخرى.

يدلّ التثبت من الحقائق (ثانياً): على أنَّ كل الفظائع تقريباً التي اتّهم بها الجيش السوري قد ارتكبها الإسلامويون المدعومون من الغرب، وذلك كجزء من استراتيجيتهم لاستقطاب المزيد من الدعم العسكري الأجنبي. ثم قامت وسائل الإعلام الغربية بترداد تلك الادعاءات، وغذّتها مصادر إسلاموية متحزبة، وضُخِّمت من قبل "مؤسسات مراقبة حقوق الإنسان" المرافقة (المنخرطة)، ومن بين تلك المنظمات منظمة العفو الدولية وهيومان رايتس ووتش. لقد قام الجيش السوري بالفعل بمعاقبة الإرهابيين الذين ألقى القبض عليهم، وتستمر الشرطة في التحقيق مع المشتبه في تعاونهم مع الإرهابيين. ولكن هذا الجيش يتمتع بدعم شعبي قوي جداً. كما أن الشعب السوري يعرف عدوه، ولذا يدعم جيشه. في حين تتبجّح العصابات المسلحة علناً بالفظائع التي ارتكبتها.

ولم تعدْ تنطلي على أيّ مراقب ذكيّ الأكاذيب المستمرة على الجيش، بسبب حقيقة بسيطة أنه بعد عدة سنوات، لم تلجأ الطائرات أو المدفعية السورية إلى تدمير مناطق مستعصية مثل جوبر ودوما، أو الرقة وشمال شرق حلب. إذ يمكننا أن نكون شبه متأكدين أنه حين تذكر وكالات غربية في مرات قادمة، بالاعتماد على مصادر الإسلامويين، أن «المدنيين يُقتلون جراء القصف الحكومي العشوائي» السوري أو الروسي، فإنَّ ذلك يعني أن تلك المصادر الإسلاموية هي نفسها التي تتعرض للهجوم.

هناك نسختان مختلفتان جداً فيما يتعلق بقصص "نهاية اللعبة"، في سورية، يتم تداولهما. لقد كانت واشنطن وأتباعها مهووسين ومتعنتين في هدفهم لعزل واستبعاد الرئيس بشار الأسد من أية حكومة سورية في المستقبل. ويُعدُّ هذا على أيّ حال دليلاً على استقلالية الرجل. ومع ذلك تفترض الغطرسة الغربية أنهم نجحوا في إخضاع سورية. لكن هذا المطلب الباطل، في عزل واستبعاد الرئيس الأسد، يوضح بالفعل كم تزدري واشنطن القانون الدولي.

وقالت في هذا الصدد المتحدثة باسم وزارة الخارجية الروسية ماريا زاخاروفا (Maria Zakharova): ربما ينبغي على الولايات المتحدة الانسحاب من اتفاقيات جنيف عام 2012 [حول سورية]، ذلك لأن هذه الاتفاقيات لا تستوجب إبعاد الرئيس بشار الأسد، بل عوضاً من ذلك تؤكد على أن «الأمر متروك للشعب السوري في تحديد مستقبل بلاده» (TASS 2015; UN 2012). وهذه نقطة بسيطة ولكنها أساسية، لأن واشنطن لا تريد أن تفهم ذلك. وأما الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، الذي يتحدث عموماً بدبلوماسية مع "شركائه" الغربيين، قال في إحدى المرات: «اسموا فوق الرغبة المستمرة بالسيطرة. يجب التوقف عن التصرف انطلاقاً من الطموحات الإمبريالية. لا تسمموا وعي الملايين من الناس بالقول: إنه لا يمكن أن يكون هناك أي وسيلة أخرى سوى السياسات الاستعمارية» (Putin 2015). فبينما تتحدث الولايات المتحدة بلغة الديمقراطية والحقوق، لا تزال تتظاهر بأنها تقرر مستقبل بلدان أخرى.

كانت «الخطة باء» بالنسبة لواشنطن في سورية، تقوم على إضعاف وفي نهاية المطاف تمزيق البلاد. توضحت هذه الخطة في ورقة لمعهد بروكينغز في حزيران/يونيو 2015 (O Hanlon 2015). دعت هذه الخطة بكل صفاقة واشنطن لتجزئة "القضية السورية" إلى «عددٍ من المكونات المحلية ... واضعة تصوراً يجعل من سورية في نهاية المطاف دولة كونفدرالية، تضم مناطق حكم ذاتي عوضاً من أن تحكمها حكومة مركزية قوية» (O Hanlon 2015:3). وكانت الذريعة الكاذبة وراء هذا المقترح هي التهديد المفترض الذي يمثله تنظيم "داعش" على الولايات المتحدة الأمريكية، غير أن ذلك التنظيم، كما أظهر هذا الكتاب، هو صنيعة الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها. يحث تقرير بروكينغز (ورقة أوهانلون) على إقامة منطقتين مستقلتين أوليتين بالقرب من حدود الأردن وتركيا، للسماح بـ"خطوط نقل آمنة للإمدادات الإنسانية، والإمدادات العسكرية».

حيث من الممكن أن يشمل المتعاونون في هذه المؤامرة غير القانونية: "جيش الإسلام"، الموجود حول دمشق، و" القوى الكردية المختلفة"، و هي ائتلاف من المتمردين يتركز وجوده في حلب و"جيش الفتح" (بقيادة النصرة)

الموجود حول إدلب، وآخرين (O Hanlon 2015: 9, 15). كل هؤلاء الشركاء تقريباً، باستثناء الأكراد، هم جماعات مختلفة مرتبطة بتنظيم القاعدة وتلك التي تعمل معها. يعترف مقترح بروكينغز المشار إليه بقوة دمشق، من خلال التظاهر بأنه يعمل في المناطق التي حولها. لكن تقطيع أوصال دولة ذات سيادة سيكون ممكناً فقط إذا كانت سورية دولة مشلولة عسكرياً، ودون حلفاء أقوياء.

لم تركع سورية ولديها حلفاء أقوياء. كما أن الاصطفافات الإقليمية تسير لصالحها. وفي حين لا يزال هناك "تهديد بالحرب"، إلا أن الكثيرين يدركون أن واشنطن فقدت الشهية لأي تصعيد كبير، ناهيك عن المواجهة مع روسيا. حيث بدأت دول إقليميّة باستشفاف ما هو آتٍ، وبدأت في إعادة بناء العلاقات مع دمشق. فقامت مصر والإمارات العربية المتحدة، ـ وكانتا في موقف الخصام مع سورية لوقت قريب ـ بتطبيع العلاقات الدبلوماسية معها.

ويجدر بالذكر أنَّ دولة الإمارات العربية المتحدة، وهي ربما الدولة الأكثر "مرونة" في دول الخليج، ولكن المرتبطة بحسب نائب الرئيس الأمريكي جو بايدن بدعم "داعش"، لديها مخاوفها الخاصة. حيث اعتقلت مؤخراً العشرات من الإسلامويين على خلفية مؤامرة لتحويل النظام الملكي المطلق إلى الخلافة المطلقة (Bloomberg 2015). كما أن مصر، التي عادت إلى حكم العسكر بعد حكومة الإخوان المسلمين التي لم تدم طويلاً، تتعامل الآن مع الإرهاب الطائفي الذي يتهددها، والذي مصدره الإخوان. أي أن أكبر الدول العربية تدافع الآن عن سلامة الأراضي السورية، وتدعم، على الأقل لفظياً، حملات سورية ضد الإرهاب. يسمي المحلل المصري حسن أبو طالب هذه الرسالة بـ «إدانة ورفض للتحركات التي تقوم بها تركيا من جانب واحد ضد سورية» (Reuters 2015).

ويمكن النظر إلى حكومة أردوغان، التي حاولت وضع تركيا في زعامة منطقة يحكمها الإخوان المسلمون، بوصفها ـ في كثير من الأحيان ـ على خلاف مع شركائها المناهضين لسورية وتواجه مشاكلها الداخلية، ليس أقلها من الأقلية الكردية الكبيرة. لقد حاولت واشنطن استخدام الأكراد الانفصاليين ضد كل من

بغداد ودمشق، في حين تراهم تركيا أعداءها الرئيسين، كما تذبحهم المجموعات المتطرفة بوصفهم مسلمين "مرتدين". لكن المجتمعات الكردية تمتعت تاريخياً بشكل أكبر من الحكم الذاتي في إيران وسورية.

كانت الاتفاقية التي أبرمت مؤخراً بين واشنطن وإيران بمثابة تطور مهم، بعد أربعة عشر عاماً من التوتر، كانت فيها الجمهورية الإسلامية الحليف الإقليمي الأهم لسورية العلمانية وأيضاً الخصم القوي للطائفيين الذين يسيرون على النموذج السعودي. وإن التأكيد على دور إيران في المنطقة يزعج السعوديين وإسرائيل، ولكن يبشّر بالخير بالنسبة لسورية. كان هناك مناورات دبلوماسية جدّية بعد اتفاق إيران وليس هناك من شك في أن الاتفاقية رفعت من دور إيران كثيراً في الشؤون الإقليمية. وبعد مرور عقد على خطط واشنطن في "التدمير الخلاق"، والذي كان يهدف إلى الحد من النفوذ الإيراني في العراق، وقبل عدة أشهر من المبادرة العسكرية الروسية في سورية، كان هناك في واشنطن من يعبر عن اليأس من أن النفوذ الإيراني في المنطقة «هو في أعلى مستوياته في خلال ما يقرب من أربعة قرون» (Kenner 2015).

لقد كان القرار الذي اتخذته روسيا في أواخر أيلول/سبتمبر 2015 بإرسال قوتها الجوية الضخمة لدعم الجيش السوري حاسماً. طلبت روسيا، التي دخلت بقوتها العسكرية إلى سورية قانونياً، مراراً من الولايات المتحدة التعاون، ما أحرج واشنطن وأظهر خداعها، إذ كانت محاصرة بكلامها المخادع. وقد تظاهرت ألا علاقة لها بـ"داعش"، وفشلت في مهاجمة التنظيم الإرهابي "داعش" عندما هاجم المدن السورية، وتدعي كذباً أن هناك فرقاً جوهريّاً بين "داعش" وغيره من "الثوار المعتدلين". غير أن روسيا اتفقت مع سورية أن جميع الجماعات المسلحة المناهضة للحكومة هي جماعات من الإرهابيين الطائفيين.

لقد رفضت الولايات المتحدة تحديد أي من الجماعات "المتمردة المعتدلة"، لذلك عملت روسيا وفقاً لوجهة النظر السورية واستهدفتها جميعاً. في مواجهة ذلك، احتجت الولايات المتحدة بأن «المعتدلين» تم استهدافهم، وأن الروس كانوا «يقتلون المدنيين»، لكنها لم تتمكن فعلياً من القيام بأي إجراء.

كما لم تكن واشنطن أو أي من حلفائها محضّرين لمواجهة مباشرة مع الجبهة التي تضم سورية والعراق وحزب الله وإيران وروسيا. ورغم أنه لم يكن هناك أية قوات رسمية برية إيرانية أو روسية. لكن القادة العسكريين الإيرانيين حشدوا قوات من مختلف أنحاء المنطقة لتعزيز قوة الجيش السوري، حيث يتحركون لاستعادة المناطق التي كانت سيطرت عليها العصابات المدعومة من الغرب لسنوات.

لقد شبّه البعض المبادرة الروسية في سورية بالتدخل الفاشل للاتحاد السوفييتي في أفغانستان خلال الأعوام 1979ـ1989. لكن هناك اختلافات رئيسة. أولاً، لقد قاوم الجيش العربي السوري والشعب السوري أكبر حرب إرهابية واسعة النطاق تتم بالوكالة في التاريخ الحديث على مدى أربع سنوات ونصف، في حين، في الحالة الأفغانية، استدعت الحكومة في أواخر سبعينات القرن الماضي الدبابات والقوات السوفياتية بشكل سريع جداً. ثانياً، تحتفظ سورية بتحالفات إقليمية قوية، مع إيران وحزب الله، ومؤخراً العراق، بينما كانت الحكومة الأفغانية في عام 1979 محاطة بالأعداء. ثالثاً، إن مساعدة القوة الجوية الروسية، وإن كانت مهمة جداً، لكنها تترك القتال على الأرض للجيش السوري، مدعوماً من القوى المحلية وقوى من دول الجوار. فلقد كان فلاديمير بوتين مدركاً لإمكان إجراء هذه المقارنة التاريخية. لكن يبدو أن قوة المقاومة السورية كانت حاسمة. فلو لم يقاوم الشعب السوري لسنوات، ولو كان الرئيس الأسد قد تراجع تاركاً البلاد، كما فعل الرئيس يانكوفيتش في أوكرانيا، لما كانت سورية لتتلقى هذه المساعدة الروسية المباشرة.

سوف تنتصر سورية لأن الشعب السوري أيد جيشه ضد الاستفزازات الطائفية، حيث قاتل السوريون في معظم معاركهم، ضد الإرهاب متعدد الجنسيات الممول من حلف الناتو وملكيات الخليج. وإن السوريين، بكل أطيافهم ومن بينهم الذين ينتمون إلى المذهب السُّني المعتدل، يرفضون قطع الرؤوس، والتحريف الشرير والطائفي للإسلام كما يُروج له من قبل دول الخليج. فالحرب في سورية ليست حرباً طائفية، ولا حرباً سنية ـ شيعة، وإنما هي حرب إمبريالية كلاسيكية باستخدام الجيوش الوكيلة. وفي سورية ما بعد

الصراع، لن يكون هناك دور لواشنطن، للسبب نفسه الـذي يجعـل المغتـصبين والقتلة غير مرحب بهم من قبل العائلات الـتي عانـت جـرائمهم، مـا يعـني أن واشنطن وأولئك القتلة لن يكون لهم دور بسبب ما فعلوه.

ويُلاحظ بما أنَّ الملابسات الإقليمية عميقة. فانتـصار سـورية سـوف يعـني نهاية لفورة واشنطن الدامية في "تغيير الأنظمة" في جميـع أنحـاء المنطقـة، مـن أفغانستان إلى العراق إلى ليبيا فسورية، وإننا نشهد ظهور "محور مقاومة" أقـوى. فقد نجت سورية، وباتت إيران أقوى، وانضم العراق إليهما، وتحركت وروسيا بشكل حاسم وشكلت الثقل المضاد، المناسـب لـدعمهم. وسـوف تمهـر هـذه المجموعة بالهزيمة المذلة خطط الـشرق الأوسـط الجديـد الـذي تـسيطر عليـه الولايات المتحدة وإسرائيل والسعودية وتركيا. فالوحـدة الإقليميـة والاسـتقلال آتيان، وإن كان بتكلفة باهظة، لكنهما آتيان لا محالة.

المراجع:

- Angry Arab, The (2015) 'This is what the candidate for Syria's provisional (opposition) government wrote on Facebook: a holocaust', 4 August, online: http://angryarab.blogspot.fr/2015/08/this-is-what-candidate-for-syrias.html

- Assad al, Bashar (2015) 'President al-Assad: New anti-terrorism coalition must succeed, otherwise the whole region will be destroyed', Interview with Iranian Khabar TV, Transcript at SANA, 4 October, online: http://sana.sy/en/?p=56697

- Bloomberg (2015) 'U.A.E. to Prosecute 41 Accused of Trying to Establish Caliphate', 2 August, online: http://www.bloomberg.com/news/articles/2015-08-02/u-a-e-to-prosecute-41-accused-of-trying-to-establish-caliphate

- Fadel, Leith (2015) 'U.S. Backed Syrian Opposition Official Calls for the Extermination of Alawites', Al Masdar, 7 December, online: http://www.almasdarnews.com/article/u-s-backed-syrian-opposition-official-calls-for-the-extermination-of-alawites/

- Karam, Zeina and Adam Schreck (2015) 'Iran nuclear deal opens diplomatic channels for Syria', AP, 6 August, online: http://news.yahoo.com/iran-nuclear-deal-opens-diplomatic-channels-syria-161740195.html

- Kenner, David (2015) 'For God and Country, and Iran', Foreign Policy, 5 March, online: http://foreignpolicy.com/2015/03/05/for-god-and-country-and-iran/

- O'Hanlon, Michael (2015) 'Deconstructing Syria: towards a regionalized strategy for a confederal country', Center for 21st century Security and Intelligence, Brookings, 23 June, online: http://www.brookings.edu/research/papers/2015/06/23-syria-strategy-ohanlon

- Putin, Vladimir (2015) 'Banned In USA Putin Explains Who Supports ISIS', Lybio, 2 October, online: http://lybio.net/banned-in-usa-putin-explains-who-supports-isis/people/

- Reuters (2015) Egypt defends Syria's territorial unity after Turkey moves against IS', 2 July, online: http://uk.reuters.com/article/2015/07/29/uk-mideast-crisis-syria-egypt-idUKKCN0Q31AY20150729

- TASS (2015) ‘Moscow: US should retract signature to Geneva communique if it wants Syria regime change’, 23 September, online: http://tass.ru/en/politics/823017

- UN (2012) ‘Action Group for Syria, Final Communiqué, 30.06.2012’, United Nations, 30 June, online: http://www.un.org/News/dh/infocus/Syria/FinalCommuniqueActionGroupforSyria.pdf

ملحق

ملاحظة المؤلف حول المصادر المستخدمة:

سيلاحظ القارئ المهتم أنني استخدام مجموعة واسعة من مصادر اللغة الإنكليزية في الغالب. وهذا لا يعود لأنني أتحدث الإنكليزية ولكن أيضاً لأنني أفكر بالمتحدثين بها من الآخرين، فهذا الكتاب موجه لهم أساساً. وأريدهم أن يكونوا قادرين على الوصول إلى المصادر ذات الصلة. فأنا أدرك أيضاً التحيز الغربي واسع النطاق ضد المصادر الروسية والإيرانية والسورية وتلك التي من أمريكا اللاتينية. كما هناك حاجة في بعض الأحيان للترجمة، بما في ذلك المقابلات في سورية. لقد استخدمت أيضاً مصادر غربية حيثما كان ذلك ممكنا، وهذا لا يعود لأنها أكثر صدقية، ولكن لتجنب أي ادعاء ضدي أنني ربما بالغت باعتمادي على مصادر موالية لسورية. إذ كانت وسائل الإعلام الغربية بشكل عام سيئة في تغطيتها لهذه الحرب، حيث كانت "منخرطة" في التزام حكوماتها بالتدخل في سورية. لهذا السبب لا أستند على المصادر الغربية. بيدَ أنني استخدامها لتوصيف الحالات، وإيجاد ما يثبت الاعترافات ضد مصالح الحكومات المعتدية. كما وضعت ملاحظة في نهاية الكتاب حول المصادر المتميزة والمستقلة.

للإطلاع

تُعَدُّ غالبيّة وسائل الإعلام الغربية، بالإضافة إلى وسائل إعلام الملكيات الخليجية (قناة الجزيرة، قناة العربية)، منحازة على نحوٍ كبير، وفي كثير من الحالات، تنخرط في الافتراءات لدعم الحرب الدعائية ضد سورية. هذا يدفعنا إلى طرح السؤال التالي: أين يمكن للمرء أن يتوجه للحصول على معلومات تتمتع بالصدقية أو الموضوعيّة؟

ليس هناك من جواب بسيط، حيث سيلاحظ القارئ أنني استخدمت مجموعة واسعة من المصادر. وما هو مدرج هنا إنما قائمة هو قصيرة من المصادر ذات الصلة من الإنترنت، وتلك المستقلة نسبياً عن أجندات القوى الكبرى، التي تقدم خدماتها باللغة الإنكليزيّة، فضلاً عن لغات أخرى. وهذه المصادر ينبغي أن تُساعد المراقب النزيه ليبقى مطلعاً بشكل أفضل.

الإعلام الوطني المناهض للإمبريالية

SANA - Syrian Arab News Agency (http://sana.sy/en/)
Syrian TV (http://www.syriaonline.sy/)
Press TV - Iranian network (http://www.presstv.com/)
FNA (Fars News Agency) - Iran (http://en.farsnews.com/)
RT - Russian Television (https://www.rt.com/news/)
Telesur - Latin America
(http://www.telesurtv.net/english/section/news/index.html)

الإعلام المستقل ـ غير الحكومي

Middle East Channel - Syria (http://www.me-channel.com/)

Al Akhbar - Lebanon (English service closed in April 2015, but still a good archive) (http://english.al-akhbar.com/)

Al Mayadeen - Lebanon (only in Arabic)
(http://www.almayadeen.net/)

As Safir – Lebanon (http://assafir.com/Channel/50/English)

Al Manar – Lebanon, Hezbollah
(http://www.almanar.com.lb/english/main.php)

Mint Press – USA (http://www.mintpressnews.com/)

Uprooted Palestinians – blog
(https://uprootedpalestinians.wordpress.com/)

Electronic Intifada – USA (https://electronicintifada.net/)

Syrian Free Press – USA (https://syrianfreepress.wordpress.com/)

Vineyard of the Saker – USA (http://thesaker.is/)

South Front – Canada, UK, USA (http://southfront.org/)

Global Research – Canada (http://www.globalresearch.ca/)

Al Masdar – USA (http://www.almasdarnews.com/)

New Eastern Outlook – Russia (http://journal-neo.org/)
Counter Punch – USA (http://www.counterpunch.org/)
The Greanville Post – USA (http://www.greanvillepost.com/)
SOTT - USA and France (http://www.sott.net/)
Hands off Syria – Australia (http://www.handsoffsyriasydney.com/)

مواقع نقد وتحليل للإعلام

Media lens - UK – (http://www.medialens.org/)
Off Guardian - UK – (http://off-guardian.org/)
FAIR – USA (http://fair.org/)

المؤلف في سطور

الدكتور تيم أندرسون محاضر في الاقتصاد السياسي في جامعة سيدني. تتناول أبحاثه وكتاباته التنمية والحقوق وتقرير المصير في أمريكا اللاتينية وآسيا والمحيط الهادئ والشرق الأوسط. نشر العشرات من الفصول والمقالات في مجموعة من الكتب العلمية والمجلات. صدر كتابه الأخير الأراضي وسبل العيش في بابوا غينيا الجديدة عام (2015).

المترجمة في سطور

ناهد تاج هاشم، مديرة وحدة الترجمة في مركز دمشق للأبحاث والدراسات (مداد)، تحمل شهادة الماجستير في الدراسات الأدبية من قسم اللغة الإنكليزية وآدابها في جامعة دمشق. تتركز اهتماماتها وترجماتها على الدراسات ما بعد الاستعمارية، صدرت لها ترجمة عدة مقالات في مواضيع متنوعة.

(فهرس الأعلام)

مركز دمشق للأبحاث والدراسات
Damascus Center For Research and Studies

يُعَدُّ هذا الكتاب رائداً بين الكتب الصادرة في الغرب عن الأزمة السورية، إذ تُقدِّمُ الحقائقُ فيه على نحوٍ يناقض ويقوِّض كل الروايات السائدة عن هذه الأزمة في الخطاب الإعلامي والسياسي الغربي. إنَّه إعادة قراءة لأسباب الأزمة في سياق الربط بينها وبين الديناميات المتحكمة بها، محليّاً وإقليمياً ودولياً.. ونأمل أن يكون تقديمُهُ للقارئ العربي دافعاً نحو استلهامِ رؤية جديدة للأزمة السورية، يتجاوز بوساطتها كيفيّة الفهم المُغرِضة، المبثوثة عنها، غربيّاً وعربيّاً، وهذا يفتح أفقاً جديداً لمعرفة ما يحدث في وطننا السوريّ.

وليس هذا الكتابُ كتاباً عن الحرب في سورية فقط، لكنه أيضاً كتاب عن الحروب الأخرى المشابهة في المنطقة العربية والعالم التي تدور تحت شعارات، مثل: "مسؤولية الحماية"، و"التدخل الإنساني" و"الاستعمار الجديد"، والتي طُمست طبيعتها وعُتِّم عليها تحت ذريعة التدخّل فيها، بتسميتها: "حروباً أهليّةً"، وهو بذلك إسهام في إعادة تقديم مقاربات جديدة عن قراءة الصراعات التي تشهدها المنطقة.

مركز دمشق للأبحاث والدراسات (مداد)

www.dcrs.sy

ISBN 978-9933-920-59-3
9 789933 920593